

بيرسا كوموتسى

الضفة الغربية من النيل

ترجمة

محمد حمدى إبراهيم

المركز القومى للترجمة

2220

سلسلة الإبداع القصصي

تدور أحداث هذه الرواية على مشارف ثورة 23 يوليو فى مصر، وهى الثورة التى غيرت الأحداث والوقائع التى كانت مستقرة ثابتة لقرون فى منطقة الشرق الأوسط، وسببت دهشة وصداعًا فى أرجاء الغرب. وفى الرواية يتعرف ضابط مصرى شاب فى الجيش المصرى على فتاة أجنبية "يونانية" ويعشقها عشقًا مجنونًا، غير أن الظروف تفرق بينهما، ولم تجد الفتاة اليونانية ملاذًا لها فى تعاستها سوى أن تقترن بزوج يونانى، بيد أن حبها للضابط المصرى يظل يطاردها وكأنه عدو أقسم على ألا يدعها تهجع للراحة.

وبعد مرور سنوات على هذا الغرام يلتقى العاشقان الشابان مرة أخرى، بعد أن تغيرت الظروف والأدوار تغيرًا جذريًا، حيث حظى الشاب المصرى الذى كان خجولاً ومتواضعًا بالقوة والسلطة ونعم بالاستقلال؛ وهنا يطلب الشاب من حبيبته الارتباط به والخضوع التام له، فتعجز عن ذلك بسبب سطوة التقاليد وربقتها. فماذا يحدث حينئذ حينما تعشش هذه الورطة على العشق المجنون والحب الكبير الذى جمع بين قلبيهما؟

تصميم الغلاف: نسرين كشك

الضفة الغربية من النيل

رواية

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: كاميليا صبحى

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2220
- الضفة الغربية من النيل
- بيرسا كوموتسى
- محمد حمدى إبراهيم
- اللغة: اليونانية
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة:
Δυτικά του Νείλου

Πέρσα Κουμούτση

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

الضفة الغربية من النيل

رواية

تأليف: بيرسا كوموتسى
ترجمة: محمد حمدى إبراهيم



2013

كوموتسى، بيرسا.
الضفة الغربية من النيل: رواية/ تأليف: بيرسا كوموتسى: ترجمة: محمد حمدى إبراهيم. - القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٣.
٢٩٢ ص: ٢٠ سم.
تدمك ٨ ٣٢٨ ٤٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص اليونانية.
أ ـ ابراهيم، محمد حمدى. (مترجم)
أ ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٩٦٧٩/ ٢٠١٣
I. S. B. N 978 - 977 - 448 -328 - 8
ديوى ٨٨٣

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى، وتعريفه بها. والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

الإهـــداء

«إلى نجيب محفوظ المعلم الأول الذى منحنى الإلهام». وإلى إيلينى كيكا التى شجعتنى على تأليف هذا العمل.

مقدمة

هذا الكتاب الذى بين أيدينا هو الكتاب الثالث فى سلسلة الروايات التى تنتمى إلى الجالية اليونانية فى مصر، والتى تتتبع مسار الحياة فيها. وكان هدفى هو إماطة اللثام عن طيات حياة اليونانيين - الذين عاشوا فى مصر وشبوا وترعرعوا فيها لحقبة من الزمان تربو على نصف قرن، فأفى - من ثم - بدين كنت قد قطعته على نفسى. والروايات الثلاث التى تتناول هذا الموضوع - هى: «الإسكندرية فى طريق الغرباء»، «سنوات شبابى الأولى: متعة عمرى»، «الناحية الغربية من النيل» - تتضمن فى صفحاتها عدة عقود مهمة من الزمان تمتد من عام ١٩٠٠حتى عام ١٩٦٠وهى الحقبة التى وصلت فيها الهيلينية فى مصر إلى أوج ازدهارها.

ولقد كنت أحس دائمًا بأننى مدينة بدين أخلاقى يجعلنى أنبرى لطبع مظاهر مسيرة تاريخية خلَّفت بَصْمَتها التى لا تُمحى على

أرض مصر. وبرغم أن رواياتى نتاج للخيال الأدبى، فإنها ترتكز على حقائق واقعية وعلى أشخاص حقيقيين أو على نوادر وطرائف وأحداث أسَرَّ بها إلىّ أناس ولدوا وشبوا عن الطوق هناك، وكل ما فعلته هو أننى نقلتها وكتبتها على الأوراق. أما المشاعر التى تزخر بها صفحات الرواية فيرجع منبعها إلى خبرات حياتى الشخصية وتجاربى الخاصة، حيث إننى شاهدت نور الحياة فى هذا البلد وشببت عن الطوق وسلكت مسيرة الحياة فيه حتى تخرجت من جامعة القاهرة.

وبوصفى مصرية الثقافة والمولد فإننى رأيت أن من واجبى أن أسهم بكل ما أملك من قوة فى إثراء الأدب المدون عن مصر، وذلك بأن أدون كل هذا دون أن أترك إلا النزر اليسير مما هو مختزن فى ذاكرتى لأولئك الذين لم يتسن لهم معرفة ذلك البلد، وكذا لأولئك الذين عاشوا فيه منذ نعومة أظفارهم وأحبوه وافتتنوا بما فيه. فالأمر يتعلق فى الحقيقة بصفحة فائقة الأهمية من تاريخ الهيلينية، لا ينبغى أن تطوى لأى سبب فى غياهب النسيان أو تضيع وتنسى فى ضباب الأزمان.

بيرساكوموتسى

«كيف لى أن اهجر هذه المدينة دون ان يصيبنى جرح فى قلبى وروحى» خليل جبران.. «النبى».

الجزء الأول

على أعتاب ثورة

(١)

جسر كان وحده الذى يفصل بين عالمين مختلفين متباينين ومتناقضين، كان كل عالم منهما يتألق بالسحر والفتنة ويجذب الناس نحوه بشدة. جسر واحد فقط على الرغم من أنه لم يكن فريدًا من نوعه - كان يمثل نقطة فاصلة بين العالم الفقير المحروم الذى يمثله الحى الشعبى فى بولاق، وبين العالم الغنى الموسر الذى يمثله الحى الذى يقطنه الأجانب والمصريون الأثرياء المبرزون فى الزمالك. وهو ضاحية أرستقراطية تمتد فوق جزيرة الزمالك الرابضة فوق مجرى نهر النيل وترتبط بباقى مدينة القاهرة عن طريق الجسور.

أطنان من الفولاذ والخرسانة والحديد مكدسة فوق بعضها بمهارة وفن وإتقان، هى التى فصلت هنا لمدة قرن تقريبًا من

الزمان بين ضفتى النيل المتقابلتين. ولو أن شخصًا نظر بدقة وعناية إلى المبانى الموجودة بكل ضفة فسوف يتبين حتمًا أنها تفصل بين الغرب والشرق ولكنها فى الوقت نفسه توحد بينهما.

مبان فقيرة مهملة تقف بجوار مساكن أخرى مهجورة أو تتلاصق معها - كثير منها دون طلاء على جدرانه الخارجية أو دون زجاج يغطى نوافذه - محال صغيرة ومقاه شعبية ومطابخ فى العراء تتزاحم فيما بينها، حارات وأزقة لا تهدأ فيها الحركة ولا تتوقف. وعلى النقيض منها تمامًا تجد الفيلات البديعة المسرفة فى الأناقة، والقصور والعمارات ذات الطوابق العديدة وذات الفخامة البالغة والمشيدة على الطرازين الإيطالى والفرنسى، والمحلات والمتاجر ذات الطابع الأوروبى التى تزين تلك الضاحية الهادئة الزاخرة بالخضرة والمعروفة باسم الزمالك.

طرق غاصة بالأوحال ومليئة بالحفر وزاخرة بكل أنواع القاذورات والغائط تناطح وتصارع بكل جسارة - لو جاز للمرء أن يقول هذا - الطرق الفسيحة العريضة التى تشع بالنور وتلمع من النظافة فى الضاحية المقابلة. وكانت مآذن المساجد التى ترتفع عاليًا فى شموخ وكبرياء تجاه السماء على الجانبين كليهما لهذا القوس الحديدى هى وحدها التى تعلن عن وحدة هذين العالمين المختلفين إلى أقصى حد وتشير إلى منبتهما المشترك.

وهناك فوق هذا الجسر قابَلَتْه، كانت هى قادمة من الناحية الغربية أما هو فكان قادمًا من الناحية الشرقية.

كان الوقت هو وقت الأصيل من يوم الأحد فى شهر يناير عام ١٩٥٢عندما انطلقت أليكساندرا من منزلها بعد تناول طعام الغداء تزور صديقة طفولتها أنجيليكى فى حى بولاق المجاور. وكانت الغيوم التى تجمعت بكثافة منذ الصباح الباكر تغطى سماء القاهرة اللامعة وهى تنذر بسقوط المطر. ولكن أليكساندرا التى لم تلتق بصديقتها بعد أن توقفت هذه الأخيرة عن الذهاب إلى المدرسة، بفترة قصيرة قبل عيد ميلاد السيد المسيح لكى تعتنى بوالدتها المريضة، لم تكن لديها أية أخبار عن هذه الصديقة وكانت تحس بقلق بالغ عليها. وكان والد (أليكساندرا) قد عرض عليها أن تصحبه فى سيارته، بمجرد أن لاحظ حالة السماء الملبدة بالغيوم من خلال النافذة العريضة، التى كانت موجودة فى حجرة مكتبه الذى يطل على الحديقة، غير أن الفتاة أكدت له أنها تفضل السير على قدميها.

وكان السير فوق الجسر يمتعها ويرفه عنها، وكان يروقها أن تتنفس من أعلى الجسر الهواء المشبع برذاذ المياه المتدفقة فى النهر الهادر، كما كان يروقها أن ترى مجراه اللولبى وانعكاس ضوء الشمس على صفحته فى الصباح الباكر، وكذا انعكاس نور القمر فوق مياهه خلال الليل، كما خلب لبها أيضًا تأرجح الزوارق المشدودة إلى مراسيها وتثنى ذؤابات أشجار النخيل، وكانت طائفة من أشجار النخيل هذه تميل بجذوعها إلى أقصى حد فتذكرها بساحرات شعورهن منتزعة ومنحنيات فوق الماء لكى يروين ظمأهن، أو بأجساد رفيعة طويلة لعباد ناسكين زاهدين ينحنون فى صبر

وبلا تذمر لربهم المعبود. أما الدهبيات (العوامات) التى كانت منتشرة على ضفتى النهر والتى ظلت أعوامًا طويلة بلا حراك حتى الآن وهى ملفوفة - ولك أن تقول هذا - فى غلالة حافلة بالأسرار، فكانت أشبه ما تكون بحفريات لزواحف أسطورية تبزغ من وسط المياه، وكل عوامة منها تخفى داخلها قصتها: فى حين كان انعكاس أضوائها الملونة خلال الليالى الساطعة بالأنوار فوق صفحة المياه الجارية، يعطى لهذا المكان ذاته مظهرًا مختلفًا جد الاختلاف، ويمنحه طابعًا احتفاليًا مفعمًا بالبهجة والسرور يأسر مشاعر السائرين وأحاسيسهم. ثم كانت تلك المبانى الحديثة الشاهقة، التى ارتفعت خلال السنوات الأخيرة إلى المدى الذى يمكن للعين أن تصل إليه، تعلن عن حلول عصر جديد وتبشر بمقدمه.

كان يروقها أن تشاهد هذه المناظر كلها وأن تتفرس فيها بإمعان لتراها من خلال قضبان الجسر الحديدية ومن فوقها، ولتتأمل فى ضوئها مسيرة حياتها، حياتها التى انطلقت بها الآن والتى كانت تزيل عنها طياتها رويدًا رويدًا مثلما يفك المرء لفافة من الرّق القديم، لكى تكشف عن أسرارها الخفية وتفك طلاسم شفرتها الغامضة.

كان مقدرًا لها أن تتخرج فى القسم العالى بمدرسة أخيلوبولوس للبنات، وكانت تحس أن صدرها مفعم بالفخر والكبرياء كلما فكرت فى الإمكانات التى سوف تتيحها لها خبراتها، التى سوف تحصل عليها بعد أن تتحرر من الالتزامات المطلوبة منها من قِبَل المدرسة

وتطرحها بعيدًا عنها، وبعد أن تتخلص من تذمر والديها المستمر وشكاواهم كلما عادت من المدرسة، أو كلما مكثت فترة من الوقت خارج المنزل. وكان أحد أساتذتها فى المدرسة قد قال لها منذ وقت قصير: إنك لم تعيشى من عمرك شيئًا حتى الآن، وكان هذا الأستاذ أكثر الأساتذة تطورًا وأشدهم ودًا، بيد أنه كان من أولئك الأشخاص الذين يصرون على أن يظلوا متعلقين بشخص النزعة المحافظة، ومتمسكين بالمفاهيم والأفكار البالية العتيقة. ثم أردف قائلاً بصوت كان يرتجف دون أن يشعر، وهو يفكر فى حياته التى تذبل وتخبو شيئًا فشيئًا: الآن وقد شارفت على الانتهاء من دراستك فى المدرسة، فإن الحياة تبدأ بالنسبة لك. فاستعدى إذن لاستقبالها بجناحين مبسوطين وعقل متفتح....

ولقد أثرت هذه الكلمات فى نفسها بصورة لا يمكن تخيلها، وانطبعت فى وعيها وظلت تتردد على مسامعها باستمرار، كلما تملكها الضيق من حياتها العائلية بما فيها من سلوكيات مفروضة وعادات متوارثة. فلقد أحست حينئذ بفورة الشباب داخلها تهدأ وتستقر، عندما شعرت أن شعلة ثورتها الفطرية وأن اندفاع زهرة شبابها قد انكمش وتقلص.

وكان ما استقر عليه عزمها بالضبط هو ما يلى: لقد هيأت نفسها لكى تستقبل الحياة، ولكى تتذوقها بقلب كان يرتجف من الشوق والإثارة ويرتعش بتفاؤل ذى خفقات غريبة. وحينما وصلت

إلى منتصف الجسر تقريبًا توقفت تقريبًا على حين غرة، وتسمرت بفعل دافع قوى يحملها على أن ترفع عينيها وتنظر إلى هيئة رجل كان يتقدم من الناحية الأخرى المواجهة لها. ولقد ظلت تمعن النظر وتتفكر فى هذا اللقاء لسنوات ممتدة قادمة، وخلصت إلى استنتاج مفاده أن هذا اللقاء كان مثل مهماز غير متجسد أو مثل نداء للقدر بلا صوت - رغم أنها لم تكن تؤمن إطلاقًا فى الحقيقة بهذا الاعتقاد - استحثها على الوقوف وعلى تصويب نظرها إلى ذلك الشاب صاحب القوام المشوق الطويل العريض. وذلك لأنها حينما أحنت رأسها لكى تقى وجهها من قطرات المطر الذى كان قد بدأ بالفعل يهطل بغزارة أشد. لم يكن بوسعها أن تنتبه إلى أنه قادم على مبعدة منها، ولم يكن بوسعها أيضًا أن تسمع دبيب قدميه أو تشعر - وهذا هو الأقرب - بأنفاسه وهى تداعب شعرها.

أما ذلك الشاب الذى كان قادمًا من الناحية المقابلة لعالمها الذى كانت تعيش فيه. والذى يتدثر من سيل المطر المنهمر بمقدمة قبعته العسكرية وبعنفوان شبابه العارم، فقد أخرج يديه من جيوب بزته العسكرية الكاكى وتوقف لبرهة من الزمن. كما لو كان قد بوغت بتلك الصورة غير المتوقعة التى ارتسمت أمامه، ولكنه فيما بعد أسرع فى خطواته.

وبينما كانت تنظر إليه وهو قادم إلى مكانها وهو يحث الخطى بثبات وتصميم، تساءلت لبرهة من الزمن عما إذا كان هذا الرجل الذى صوب إليها أنظاره - والذى لم تتمكن حتى الآن من رؤية

ملامح وجهه بوضوح - كان يبغى القبض عليها بسبب هفوة ما ربما تكون قد اقترفتها دون إدراك منها.

وعندما اقترب الشاب منها بمسافة كافية أيقنت الفتاة أن ملامح وجهه، التى كانت قد لفتت انتباهها من بعد لم تتغير فقط بسبب اضمحلالها، جراء بعد المسافة وبفعل سقوط رذاذ المطر، الذى أوجد نوعًا من الضباب الذى يشبه ستارة من الرداء الأثيرى بينهما، بل بدت لها هذه الملامح واضحة جلية بصورة أشد نقاء وأشد جاذبية. فلقد بدا لها محياه وكأنه لوحة قام برسمها فنان (بارع)، كانت قد شاهدتها منذ شهور قليلة فى متحف اللوفر أثناء إحدى رحلات والدها المهنية؛ فى حين كانت نظرته التى كانت تظللها فى البداية حافة قبعته العسكرية، نظرة حادة نفاذة حينما التقت فى النهاية بنظرتها، حملتها على أن تخفض عينيها بطريقة تلقائية قبل أن تتسرعا وتكشفا عن دهشتها وإعجابها.

توقف الشاب أمامها بالضبط على مسافة قصيرة جدًا منها، لدرجة أنه لو مد يده لكان بوسعه بكل تأكيد أن يلمسها - وفكرت التلميذة الشابة أن تتحاشاه وأن تبتعد عنه بطريقة لطيفة دمثة، على نحو ما يليق بفتاة فى مثل طبقتها الاجتماعية وفى مثل سنها. غير أن الصوت الداخلى المنبعث من شبابها الغض ذكرها فجأة بذلك العهد الذى قطعته على نفسها منذ وقت قصير. فحقًا كانت هذه النظرة الغامضة التى صوبها نحوها هذا الضابط الفتان الساحر هى التى شلت حركتها، حالما شعرت بأن أطراف قدميها قد تخدرت.

ترى ما الذى ينشده حقًا ذلك الشاب الوسيم ذو البزة العسكرية منها؟ وماذا كانت تعنى تلك النظرة الملحة التى صوبها إليها؟ وهنا ألقت نظرة خاطفة بطريقة تلقائية على ما خلفها لكى تتأكد من أن أحدًا لا يتبعها. كان الجسر خاليًا، ولم تكن هناك سوى سيارات قليلة العدد جدًا تمرق دون اهتمام، وهى تصدر ذلك الصوت المعروف الذى ينبعث من احتكاك إطاراتها بأرضية الجسر المبتلة.

«مساء الخير، يا آنستى!»، كان هذا هو ما قاله الضابط بصوته وهو متجه بشجاعة صوبها، فأخرجها بذلك من استغراقها فى أفكارها. «مساء الخير......»، كان هذا هو ما أفلحت فى أن تتمتم به بعد فترة من الصمت القصير وكأنها تصادق بذلك على رغبتها فى الإجابة على تحيته. «ترى هل ضايقتك؟»، سألها الشاب هذا السؤال وهو يطوح رأسه بلطف ناحيتها. هذه المرة لم تنبس أليكساندرا ببنت شفة، ولكنها رمقته فقط بطريقة معينة وكأنها تستحثه على أن يستمر فى الحديث. فأردف الشاب ذو البزة العسكرية قائلاً بابتسامة أخاذة وبتعبير يوحى بشكاية هينة: «من الواضح أنك لم تتعرفى علىّ!». بوغتت الفتاة بما قاله ولكنها لم تقل شيئًا من جديد، بيد أنها قطبت حاجبيها وهى مفعمة بالفضول. على الرغم من أنها كانت متأكدة من أنها لا تعرفه، فإنها حينما تفرست الآن فى وجهه بعناية أشد، بدا لها أن هناك شيئًا مألوفًا لها فى هذا الوجه الداكن البالغ الوسامة ذى العينين المعبرتين.

«أما أنا فقد تعرفت عليك بكل تأكيد»، استمر ذلك الشاب فى كلامه حيث إنه تشجع من كون الفتاة الأجنبية لم تبتعد عنه فى خاتمة المطاف كما كان يعتقد فى مبدأ الأمر. «إنك صديقة جارتى اليونانية التى تسكن فى حى بولاق، أليس كذلك؟ لقد شاهدتك مرارًا فى عمارتنا الكائنة فى شارع معمر حيث أقيم، أفلا تتذكرينى؟»

عندئذ فقط تذكرت ذلك الشاب ذا البزة العسكرية الذى يحمل على كتفيه شارة الملازم الأول، والذى تصادف أن قابلته عدة مرات فى الممر شبه المظلم فى الطابق الثانى، أو فى مقر سكن البواب الذى لا توجد به إنارة فى العمارة القديمة، التى كانت تقيم فيها صديقتها أنجيليكى منذ أن هاجرت إلى مصر مع والديها بعد نشوب الحرب العالمية الثانية. وعلى أية حال، فبغض النظر عن ابتسامات آلية كانت مصحوبة على الدوام بعدم اكتراث متكلف فى مثل هذه الأحوال المتكررة، فإن الشاب والفتاة لم يتبادلا أبدًا أية كلمة فيما بينهما، برغم أن الفتاة قد أحست أثناء المرة الأخيرة برغبته فى أن يحادثها، ولكن الخوف ربما انتابه فحول وجهه بسرعة إلى الجهة الأخرى وأسرع فى دق جرس مسكن الفتاة أنجيليكى. ولم يتسن لها أن تسمع إلا بالكاد تحيته الفاترة التى ألقاها عليها تقريبًا بدون تحديد وهو يحنى رأسه بطريقة غير محسوسة.

«أجل... أجل.. الآن تذكرتك...»، كان هذا هو ما أفلحت في التلفظ به في جملة واحدة، وبادلته الابتسامة للمرة الأولى وافترت شفتاها عن نصف انفراجة. فبادرها بكبرياء قائلاً: اسمي عادل محيي الدين، ثم مد يده إليها لكي يصادق على تعارفهما بطريقة رسمية. أما هي فردت عليه التحية بطريقة شبه آلية. غير أن الإحساس الذي تولد لديها من قبضة يده القوية، التي التفت حول كفها الصغير جعلها تشعر بمعنى هذه المصافحة باليد: لقد كانت تمثل رابطة للتعارف الذي تم بينهما.

«سعدت بلقائك...»، غمغمت الفتاة بهذه العبارة ولكن بدون أن تستحثه بدورها. فلم تكن تعرف ما إذا كان من الحصافة من جانبها أن تكشف له بمثل هذه السرعة عن اسمها. أما هو فقد أردف قائلاً وقد امتلأ زهوًا: كنت أود منذ فترة مضت أن أتحدث إليك ولكن... بيد أنني أحب أن أقول إن القدر هو الذي هيأ الفرصة لنا، لكي نتقابل اليوم من جديد وبوجه خاص على أرض محايدة.... لم يكن اختيار الشاب للكلمات الأخيرة رمية بدون رام، بل بدا أنه أصاب الهدف بإحكام، وذلك لأن أليكساندرا فهمت تمامًا ما كان يعنيه. أما بالنسبة له فلم يكن من السهل عليه أن يتقرب إلى فتاة أجنبية غريبة عنه أو أن يقدم نفسه إلى زائرة مجهولة تصادف أنه التقى بها عدة مرات خارج باب مسكنه: فلم يكن منبته ولا تنشئته يسمحان له بهذا. كما أنه لم يكن ليخاطر أبدًا بأن يضع نفسه موضع الشك أو أن يضعها هي موضع الريبة. فيما لو أن شخصًا فضوليًا من الشقق المجاورة عَنّ له أن يفتح الباب فيراهما على هذه

الصورة. ولكن الآن.... «لقد فهمت»، أجابت عليه الفتاة فأخرجته من حيرته البادية عليه. ثم أردف الشاب قائلاً بتسرع: «ولكى أكون صريحًا فقد كنت أراقبك مرات ومرات...»، وكأنه خشى من أن الفتاة ربما غيرت رأيها فجأة وعقدت عزمها على الانصراف. لكنها بادرته بقولها: حقًا؟ ولكن أين؟. ندمت الفتاة بسرعة على هذا الذى فاهت به، ولكن فضولها كان قد بلغ مداه وكان من المحال أن تتحكم فى حماسها. فقال الشاب: كنت أمر مصادفة فى أحد الأيام خارج مدرستك، فشاهدتك وأنت واقفة على سلالم المدخل مع زميلاتك من التلميذات.... فأجابته بقولها: متى؟ أنا لا أتذكر شيئًا من هذا؟. فشرح الشاب الأمر لها بقوله: فى الحقيقة لم أجسر أن أقترب منك أو أن أقوم بتحيتك برغم أننى كنت أتوق إلى ذلك بشدة..... وأردف قائلاً: لم أكن متأكدًا من أنك كنت تعرفيننى..... ظلت أليكساندرا صامتة ولكن الشاب استمر فى حديثه قائلاً: ومن ناحية أخرى لم أكن أنوى أن أضعك فى موقف حرج أمام صويحباتك. فردت عليه بقولها: أشكر لك حسن تقديرك للأمور.

لا تقولى لى إنك ذاهبة الآن إلى منزل صديقتك فى حى بولاق!، تلفظ الشاب بهذه العبارة وهو يقترب من الفتاة أكثر وأكثر لدرجة أنها تبينت شخصها ماثلاً فى حدقتى عينيه العسليتين، الأمر الذى جعل حيرتها تمتد وتزداد. وكأن شيئًا ما شد انتباهه فجأة، فرفع ناظريه فى التو صوب السماء. كان ضوء الشمس فى تلك الأثناء قد نفذ خلال سحابتين ليشجع على انقطاع المطر تمامًا، وكأن الشمس كانت بذلك تقسم بقسمها مع ظواهر الطبيعة الأخرى على نداء

القدر هذا. وهنا قال الشاب: ترى هل ترغبين فى أن أرافقك إلى هناك؟ حتى نهاية الطريق؟ إن هذا من شأنه أن يمنحنى سعادة غامرة.

ودفعها ما أعرب عنه إلى التساؤل والتمعن: فعلى الرغم من أن إصراره وشجاعته قد أدهشاها بمجرد اصطدامه بالقواعد غير المعروفة للسلوك فى هذا المكان وهذا الزمان، وهى القواعد التى تحدد بدرجة كبيرة أفعال الناس وأقوالهم، إنه بدا لها آنذاك ودودًا دمث المعشر مهذبًا جدًا كما بدا وجهه شديد الجاذبية، لدرجة أنها اندفعت فطفقت ترمقه بإعجاب طاغ. ولكن كلا! فلم يكن من العقل والتروى أن تقبل شيئًا كهذا وأن تخضع للإغراء وتعرض نفسها للاختبار والتجربة، وهو أمر من شأنه أن يقودها إلى دروب مجهولة وأزقة وعرة ذات عواقب غير متوقعة بالنسبة لها.

ولم يكن رفضها توافقًا مع الاحتشام والوقار، ولا نابعًا من نقص مزاجها أو من نقص رغبتها، بل كان بسبب شىء آخر. ذلك أن بزته العسكرية الرسمية الكاكى جنبًا إلى جنب مع كونه مصريًا قحًا قد حالا بينها وبين أن تسمح بحدوث شىء مثل هذا، فتبطل بسلوكها إمكانية مثل هذا الاحتمال، خاصة أن الحالة الآن فى مصر كانت تبدو غير مستقرة وتنطوى على الخطر. وكانت مظاهر الثورة ضد الأجانب المقيمين دائمًا فى ازدياد إبان الآونة الأخيرة، كما كان الفقر المدقع لغالبية الشعب، وحرمان أفراده من الميزات الأساسية أو الخيرات الرئيسة، وكذا الاستغلال البشع من جانب الإنجليز

وبوجه عام من قبل الأجانب، الذين كانوا يتسترون خلف قناع المستوطنين من أجل خدمة أغراضهم الشخصية، قد أدوا جميعًا إلى احتقان الناس وفوران غضبهم، فاندفع كثير منهم إلى القيام بأفعال كانت فى الغالب تتسم بالعنف. كان هذا هو ما تود أن تقوله للشاب لو أن الفرصة سنحت لها لكى تشرح له سبب رفضها.

وهنا خطت الفتاة خطوة إلى الخلف وهيأت نفسها لرفض دعوة الشاب، غير أن أصواتًا داخلها بدأت تثير من جديد ذلك الطنين الذى يدوى فى أحاسيسها، وتحثها على قبول دعوة الضابط الشاب. فماذا يهم لو أنه سار قليلاً معها؟ وماذا يضيرها أن تتبادل كلمات قليلة مرة أخرى مع هذا الشاب المجهول، الذى تعرف عليها واقترب منها بجرأة شديدة وبطريقة علنية وأثار - أجل وأثار - كل هذه المشاعر داخلها؟

وبعد أن ناضلت مرة أخرى ما طرأ عليها من تردد قبلت دعوة الشاب بإيماءة رأس طفيفة وبابتسامة باهتة. لم تعد تتذكر فحوى الحوار المتبادل بينهما أثناء هذه المسيرة التى كانت فيها برفقة الشاب الجذاب الساحر. فما كانت تتذكره بعد هذه السنوات العديدة هو ذلك الدفء الذى كان يسرى فى جسدها كله، وتلك الحرارة التى كانت تلف أطرافها الباردة، وذلك الإحساس الغريب الذى انبعث داخلها لأول مرة - وهو إحساس أشد وطأة وأكثر جاذبية من ذلك الإحساس، الذى شعرت به عندما تبادلت مع قسطنطين قبلة الوداع فى شرفة منزلها المظلمة أثناء أمسية عيد

رأس السنة، قبل يوم من رحيله مرة أخرى إلى ألمانيا لإنهاء دراسته هناك.

كانت قد مرت أسابيع قليلة فقط على هذا الذى حدث، ولكنها كانت بمثابة وقت كاف لكى تجعله ذكرى باهتة، ولكى تصبح تلك القبلة الخالية من الفوران العاطفى التى انطبعت فوق شفتيها أكثر برودة وأكثر فتورًا فى الإحساس، ولكى تنطفئ تمامًا الشعلة التى كان أوارها يخبو داخلها.

قبلة خالية من الفوران العاطفى؟ لا، إنها لم تقدم الوصف الدقيق لها بهذه العبارة: وإلا فكيف تسنى لها أن تعرف؟ فآنذاك لم يكن لديها مثقال ذرة من الخبرة، كما كانت غير معتادة على أمور الحب والمشاعر. بيد أنها كانت واثقة من شىء واحد لا سواه: لقد شعرت بأن تلك القبلة... كانت قبلة خاوية من الإحساس: ولقد غاب عنها شىء أدى آنذاك إلى عجزها عن تفسير ما حدث بالضبط. غير أنها أدركت فيما بعد أن ما كانت تفتقر إليه هذه القبلة هو الفوران.. هو القوة اللازمة لإثارة اهتمامها لتكرار التجربة، وبوجه خاص هو إيقاظ أحاسيسها التى كانت مخدرة حتى تلك الآونة. وهو بالضبط الشىء الذى أيقظه عادل.

وفى تلك الليلة ذاتها أوت إلى فراشها مبكرًا، لا لكى تستغرق فى النوم فهى لم تشعر قط بالنعاس، بل لأنها رغبت فقط فى أن تفكر وفى أن تعاود مرة أخرى تذكر هذا اللقاء لحظة بلحظة، هذا اللقاء الغريب الذى تم فوق الجسر مع الشاب الوسيم ببزته العسكرية المثيرة للإعجاب وبرزانته «الجسورة». ومرة بعد أخرى كانت الفتاة

تستدعى صورته إلى ذهنها، فيفعم فكرها بضحكته البراقة اللامعة، وبنظرته النفاذة تحت مقدمة خوذته الرمادية، بينما كانت تتردد على مسامعها بحة ضحكته غير المحسوسة التى كانت تقاطعها من آن لآخر. وكان وقع هذه الضحكة فى أذنيها مثل الموسيقى ومثل اللحن العذب. ولقد استدعى هذا كله إلى ذاكرتها ذلك العبوس الطفولى، المضحك إلى حد ما، الذى اعتراه حينما انبرت الفتاة لتصويب حروف اسمها الصعب بالطريقة التى كان ينطقه بها. ولقد تسنى لها أن تكتشف فى النهاية أنه اسمها بأسرع مما كانت تقدر وبأسرع مما كانت تتصور وبأسرع مما كانت تعد به نفسها.

ومنذ ذلك الحين كانت فى كل مرة تفكر مليًا فى وجهه العسلى المفعم بالإثارة - بمجرد موافقتها على أن يقوم باصطحابها حتى حافة الطريق - وفى خفضه التلقائى لأنظاره وهو يودعها. كان قلبها يدق بقوة وكانت رغبتها فى لقائه مرة أخرى تزداد - فضلاً عن أنه وعدها بذلك - وكانت تقترب من حدود التوق الجارف الذى لا يمكن البوح به.

(٢)

كان مبنى مدرسة أخيلوبولوس المربع مبنى كبيرًا وجميلاً، مكونًا من طابقين وكان قطعة من التصميم المعمارى الجديد بالإعجاب، وكان بمثابة صف كامل من المبانى يقع فى واحدة من المناطق الرئيسة المزدحمة فى قلب القاهرة، وهى منطقة باب اللوق. وكانت تيجان أعمدته المنحوتة القائمة فوق ستة أعمدة ذات طراز إغريقى

تنتهى بسقف على شكل جناحى نسر أو مثلث، كما كانت كمرات مقسومة ـ كانت تزين الواجهة الفنية المتقنة للمبنى ـ تشكل إطارًا لمدخله ذى الارتفاع الشاهق، فتظهر دقة الفن الإغريقى المؤثر. فى حين كان الجناحان الجانبيان للمبنى يمتدان على هيئة سقيفتين بطول الشارعين، ويحتويان على نوافذ قاعات الدراسة وكذا على ممرين صغيرين، وكان هذان الجناحان يحددان شكل المبنى ويجعلانه مختلفًا عن باقى مبانى المنطقة التى بدت بجواره كأنها أكواخ.

وكان مبنى المدرسة يضم صالة للألعاب الرياضية وقاعة للموسيقى ومسرحًا، وعيادة طبية للتطعيم والرقابة الطبية المنتظمة، وقاعات فسيحة للدراسة، وقاعة تتناول فيها تلميذات العائلات الفقيرة والمعوزة طعامهن، وأفنية فسيحة جدًا للتريض والسير. وكان المبنى من بعد يعطى انطباعًا بأنه تحفة معمارية منحوتة فى صخرة كلاسية، ألقاها جِنِّى عن طريق الخطأ فى هذه المنطقة الصاخبة المزدحمة، الواقعة فى هذه المدينة الكبيرة من مدن الشرق. لقد كان حقًا مثل حلية متجسدة أو مثل جوهرة بيضاء لامعة تتألق فى إثارة وسط باقى المبانى المحيطة بها.

وعلى الجانب الأيمن من المبنى كانت المدرسة تبعد عشرات الأمتار فقط عن ميدان التحرير، الذى يعد أكبر ميدان فى وسط مدينة القاهرة حيث يعج بتدفق لا ينقطع للناس والمركبات، فتحس أنه لا نهاية للحركة فيه. أما على الجانب الأيسر فكانت المدرسة تبعد بالمسافة ذاتها تقريبًا عن محطة السكة الحديدية التى تسمى بالاسم ذاته، وهى عبارة عن شبكة من الخطوط والتقاطعات المؤدية

إلى اتجاهات عديدة كانت فى وقت الذروة تعج بالحركة والضجيج. وكانت محطة باب اللوق هذه تزخر دومًا بالحركة وبأمواج من الركاب الراحلين والراجعين إلى هذه المنطقة فى مدة قوامها ربع ساعة تقريبًا.

كانت أليكساندرا تقف خارج مدخل المدرسة وسط مجموعة من زميلاتها التلميذات اللائى كن من بنات الجالية اليونانية، وكن جميعًا يتبادلن النقاش بحيوية وهن يستمتعن بدفء شمس الظهيرة بعد صباح كان قارس البرد مطيرًا. وبرغم أنهن كن قد غبن عن دروسهن لمدة أربعة أيام كاملة بسبب أحداث مثيرة مؤلمة[1]، كانت قد وقعت خلال الأسبوع الماضى وهزت دعائم مدينة القاهرة، إلا أنهن بدأن دروسهن مبكرات بمقدار ساعتين، وها هن يقفن الآن بالفعل خارج المدخل الرئيسى للمدرسة يعلقن على الأحداث، التى تحاشى أساتذتهن الخوض فيها أو الحديث عنها لأسباب لم يستطعن فهمها.

وحتى هذه اللحظة لم يكن هناك شىء حولهن يوحى بأى تغيير جوهرى، إذ كانت الحياة على أى حال مثل سالف أمرها قد استعادت رتابتها المعهودة، أو على الأقل كان هذا هو ما بدا منها: إذ

---

(١) وهى أحداث حريق القاهرة الذى وقع يوم ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ وسبب دمارًا هائلاً وخسائر لا تقدر بثمن فى المحلات الكبرى فى المدينة وأدى إلى موت كثير من الرعايا والمستوطنين. برغم أنه لا أحد يعرف اليوم حقيقة أسباب هذا الحريق ومدبريه فإنه يقال إن هذا الحريق كان مؤشرًا على بداية الثورة التى قامت عام ١٩٥٢ (المؤلفة).

إنها لاحت فى أعين هؤلاء الفتيات اللاتى لم تداخلهن الريبة، حياة هادئة خالية من القلق وباعثة على الأمل والتفاؤل.

كانت النفثات الأولى الدافئة لشهر فبراير قد بدأت تهب شيئًا فشيئًا لتعلن عن مقدم الرياح الجافة الدافئة، وأعنى بها رياح الخماسين التى سميت كذلك لأنها تهب على فترات إبان مدة قوامها خمسون يومًا، ولتعلن عن مقدم الربيع الذى يفد دومًا مبكرًا فى مصر. وكانت الفتيات يمسكن بمعاطفهن وستراتهن فى أيديهن، فيكشفن بذلك عن مرايلهن المدرسية اليونانية ذات اللون الواحد وذات الياقة البيضاء. كانت البنات الأصغر سنًا قد انصرفن مبكرات، فى حين كانت الفتيات الأكبر سنًا منتظرات حتى الآن، بعضهن كن ينتظرن سيارات آبائهن وبعضهن كن ينتظرن ركوب التاكسيات، فى حين كان بعضهن ممن يسكنّ فى الطرقات المجاورة كن ينتظرن، لأنه كان يروق لهن ببساطة أن يسترخين ويزجين الوقت فى نقاش موضوعات مختلفة، تحت أشعة شمس الظهيرة الدافئة قبل عودتهن إلى منازلهن سيرًا على الأقدام.

وفى تلك اللحظة كان الطريق الذى يمر بمدخل المدرسة الرئيس خاليًا تقريبًا، وكان قليل من المشاة يتريضون فى هذا الطريق الذى كانت تعبره الفتيات، وكان بعضهم يحيون الفتيات من قلوبهم بطريقة ودودة فى حين كان بعضهم الآخر، ممن هم أصغر سنًا، ينثرون مضايقاتهم البريئة المعهودة لمعاكسة الفتيات. وكان هؤلاء الأشخاص عادة من المصريين سكان هذه المنطقة، الذين كانوا قد

اعتادوا منذ سنوات مضت على مرأى الفتيات الجميلات الرشيقات، بملابسهن الزرقاء المكوية وياقاتهن المستديرة ذات البياض الناصع. وكانوا قد اعتادوا على وجودهن فى حيهم، وكذا على ثرثرتهن باللغة اليونانية المستعصية على الفهم بالنسبة لهم، عندما كانوا يقولون ذلك من خلال نكاتهم. وكان عدد من هؤلاء الأشخاص قد التقط العديد من كلماتهن، أعنى تلك العبارات اليومية القصيرة التى كان هؤلاء المارة يرددونها ويكررونها مثل الببغاء، عندما كانوا يرومون مضايقة أولئك الفتيات المرحات اللاتى يرتدين زيًا مدرسيًا موحدًا ويكدن يتشابهن فى ملامحهن.

وبعد ذلك بقليل أخلى المشاة مكانهم لحشد متنوع من الزوار الذين افترشوا الأرصفة على الجانبين. فمن الواضح أن قطارًا قد وصل إلى محطة السكة الحديدية التى كانت تقع على بعد أمتار قليلة، حيث لاحظت الفتاة اندفاع الناس وهبوط موجة جديدة من الركاب وتجمعهم. عند مدخل المحطة الرئيس واحتشادهم فى الطريق الذى يقع خارج المدرسة. كان الجمع مؤلفًا من رجال ونساء وأطفال صغار يرتدون الملابس البلدية الشعبية، وكانوا يمرون متعجلين أمام التلميذات وهم يلقون عليهن نظرات هى مزيج من الإعجاب والفضول.

وما إن وقفت أليكساندرا وسط حفنة قليلة من زميلاتها اللائى كن ما زلن منتظرات - ذلك أن معظمهن كن قد انصرفن لحال سبيلهن - حتى جاست بنظراتها القلقة طورًا تجاه الجهة اليسرى

من الطريق وصوب المدخل الرئيس للمحطة، وطوراً آخر كانت تتفحص بعينيها ملامح تلك الوجوه التى كانت تحيط بهن، وكأنها كانت تبحث عن شىء أو بالأحرى عن شخص بعينه بينهم.

فمنذ اليوم الذى التقت فيه بالضابط المصرى الشاب فوق الجسر، كان فكرها يحلق بجناحين باستمرار ناشداً ذلك الشخص، ومفكراً فى قوامه المثير وفى عذوبة تعبيراته وملامحه، التى كانت تتبدى تحت حافة خوذته العسكرية الكاكى، وكذا فى مسلكه الرقيق الدمث وفى ابتسامته الجذابة الآسرة التى جعلت قلبها يدق بقوة وبغير انتظام لأول مرة. برغم مرور ثمانية أيام بالتمام والكمال على لقائها به - أجل ! فقد كانت تعد الأيام يوماً بعد يوم بقلق بالغ وصبر نافد - فإنها لم تستطع أن تنساه لحظة واحدة. كان فؤادها المفعم بالشباب يخفق بشدة عند تذكره، وكانت الفتاة (الولهانة) تدبر شتى الخطط على أمل أن تحظى بلقاء مرتقب آخر معه. وفضلاً عن ذلك فقد وعدها الشاب نفسه بذلك اللقاء، حينما كان يزجى إليها تحية الوداع عند مشارف شارع معمر، وهو يضغط كفها براحة يده حتى كاد أن يصهرها فأحست حينئذ بالألم؛ وكانت هى قد صدقت وعده. ولولا هذه الأحداث المؤسفة التى سببت الاضطراب قد حالت دون تحقيق هذا الوعد، فإن الفتاة كانت واثقة من أن الشاب كان حتماً سيأتى ليراها.

وعندما اقترب منها رجل طاعن فى السن وهو يجر قدميه المتعبتين فى تثاقل، أفسحت له أليكساندرا الطريق لكى يمر. وكانت

الفتاة تتأثر إلى حد بالغ بمرأى الأشخاص المسنين، لأنهم كانوا يذكرونها بجديها الطاعنين فى السن اللذين كانت تعشقهما. واللذين حرمت منهما بعد موتهما وهى طفلة صغيرة فى العمر. ولقد شدتها فى الحال صورة هذا الرجل المسن وملكت عليها فكرها: كان وجهه النحيل شاحبًا وزاخرًا بالتجاعيد، وكانت عيناه السوداوان غائرتين، ولكنهما تبرقان بالنور، وكانت ملامحه العابسة تنم عن الحصافة، وكأنها منقولة بحذافيرها عن الصور الموجودة بالكتب المقدسة - أو ربما عن لوحة من لوحات بواكير عصر النهضة؟ - أو كأنها صيغت من إلهام رسام مشهور أو من وحى ربانى. كانت هذه الهيئة الدينية تثير فى نفسها الرهبة والخشوع. برغم أن أحدًا لم يحسبه شحاذًا، فإنه كان مرتديًا ملابس شعبية عبارة عن جلباب طويل منسول النسيج كان يصل إلى كعبيه وعمامة منسوجة على رأسه.

ابتسمت له فى ود ورقة وتعاطف، ولكن لدهشتها الشديدة طالعها الرجل المسن بوجه مشوب بالغضب والتوبيخ رادًا على ابتسامتها بنظرة تقطر حنقًا وموجدة. ثم من بعد ذلك بصق على الناحية الأخرى من الأرض بشكل ظاهر، وابتعد عن الميدان على مهل وهو يغمغم بكلمات لم تسمعها الفتاة. كانت كلماته مغطاة بضجيج كان يهيمن بالفعل على مسامعها، وكان هذا الضجيج منبعثًا بصوته من صوت قدميه اللتين كانا يجرهما بصعوبة وتثاقل وهما مدسوستان فى خف ممزق. ولقد تسبب هذا المسلك المفاجئ وغير

المبرر الذى أقدم عليه ذلك الرجل الطاعن فى السن فى جعلها تشعر بالغضب والضيق.

فارتجف بدنها بشدة من رد فعل الرجل المسن الذى جعلها تشعر بالإهانة، برغم أنها لم تكن المرة الأولى التى تواجه فيها مسلكًا جائرًا من قبل الآخرين، فإنها شعرت بالخجل وطفق قلبها يخفق بالوجيب. كانت معتادة في الآونة الأخيرة على مشاهدة وجوه عابسة مقطبة ووجوه أخرى لا تعرف الابتسام، كان أصحابها يرمقونها بضيق وتبرم أو بنفور فى بعض الأحيان، وكأنهم يعزون إلى هذه الفتاة سبب شقائهم وتعاستهم. ولكن كيف يكون بوسعها أن تكون مسئولة عن البؤس والفقر اللذين كانا يعصفان بشريحة كبيرة من الشعب المصرى؟ ولماذا تكون هى المسئولة عن إملاق هذا الرجل وفقره؟ إنها ليست سوى فتاة صغيرة مليئة بالحب تجاه الناس وتجاه البلد الذى أطعمها ورباها. تصوغ أحلامًا وتتوقع لها أن تتحقق وتتحول إلى واقع هنا فى هذا المكان.

تغيرت حالتها النفسية المتفائلة فجأة منذ برهة قصيرة فأسلمتها إلى مزاج متعكر سالب. وكان من الصعب عليها أن تتقبل هذا الوابل من التغيرات التى وقفت مثل السد المنيع أمام أحلامها، والتى كانت تهدد بطريقة غير مبررة بالغة الظلم إقامتها فى هذا المكان الذى ولدت فيه، أعنى فى الوطن الوحيد الذى عرفته وتعلمت كيف تعشقه منذ نعومة أظفارها. كان الأمر بالنسبة لها صعبًا وقاسيًا وغير مفهوم.

وعندما تفرقت الفتيات وانصرفن لحال سبيلهن، وانعطفت آخر فتاة منهن إلى زاوية الطريق الذى بدا الآن خاليًا، قررت أليكساندرا أن تسير حتى الميدان وأن تستقل من هناك سيارة تاكسى، على غرار ما اعتادت فعله عندما كان والدها يتأخر فى مكتبه لأى سبب ولا يتمكن من المرور لأخذها معه، حيث كانت مشاغله وأمور عمله تحول بينه وبين القدوم إليها مرات كثيرة. وفضلاً عن ذلك فإن حظر التجوال - الذى كان قد فرض بعد القلاقل والأحداث المؤسفة التى هزت المشاعر خلال الأسابيع الماضية - كان قائمًا وسارى المفعول بعد الساعة التاسعة مساءً لفترة زمنية تالية. وكان والدها قد أكد لها أنه ما من خطر يخشى منه سوف يحدث.

لم تكن حالتها النفسية تسمح لها بالبقاء فى ذلك المكان أكثر من ذلك، وكانت رغبتها فى الانتظار لعلها تلتقى مرة أخرى بذلك الضابط الشاب المصرى قد تبخرت فى هذه اللحظة. وشعرت فى أعماقها بالارتياح لعدم ظهور الشاب فى خاتمة المطاف كما كان يمليه عليها إحساسها منذ الصباح. فماذا عساها حقًا تنتظر؟ وفى ماذا تفكر؟ وكيف أمكن أن يخطر على بالها احتمال إقامة علاقة مستحيلة فى مثل هذه الظروف؟ فمثل هذا النوع من «الصداقة» بين فتاة أوروبية - وعلى الأخص يونانية - وشاب مصرى، كان مقدرًا له أن يجابه من قبل الآخرين باللوم والتقريع وبالنفور والازدراء، وكأنه المسلك الوحيد الخليق بالاستهجان أو كأنه الزلة الوحيدة المستحقة للقدح والتوبيخ على ظهر الأرض. ولكن الآن بعد أن

تغيرت بالأحرى الأمور كلها، فإن أليكساندرا نفسها ـ على النحو الذى تعيشه ـ قد تغيرت بدورها حتى هذه اللحظة، إذ كانت قد بدأت تفقد ملامحها الأولى، وكأن وجهها الجديد قد غدا غريبًا بالنسبة لها وغدا مجهولاً، وكان هذا أمرًا يجعلها تصاب بالرعب.

وما إن ابتعدت الفتاة عن المدرسة حتى حثت خطاها، ثم من بعد ذلك احتضنت حقيبتها المدرسية فى صدرها وأخذت تعدو بكل قوتها حتى الميدان، متجاهلة النظرات المتسائلة التى كان يلقيها عليها المارة ويحدجونها بها. وكان الشىء الوحيد الذى كانت ترغب فيه الفتاة فى تلك اللحظة هو أن تقفل أدراجها عائدة بأقصى سرعة ممكنة إلى دفء منزلها والأمن المتوافر بين جدرانه. ففى داخل منزلها فقط كان مقدرًا لها أن تشعر أن شيئًا لم يتغير... وأن الحياة مستمرة فى رتابتها المعهودة وإيقاعها المحبب.

(٣)

وعندما وصلت إلى الميدان وبينما كانت تستعد لإيقاف سيارة تاكسى، بعد أن مرت بها سيارة تاكسى قبلاً دون أن توقفها أو تكترث لمرورها، أحست بنفس شخص ينبعث خلفها وكأنها تلاطف شعرها: فالتفتت برأسها خلفها بغتة وشاهدته. كان الشاب الضابط يقف على بعد خطوات قليلة منها ويرنو إليها بإصرار.

ارتجف كيانها برغم أنها كانت تعرف أنه قادم وكانت تنتظر ظهوره. وغمرتها مشاعر متصارعة فى تلك اللحظة. ابتسمت بسرعة لتملأ هذا الفراغ الزاخر بالحيرة. بينما حاولت فى هذه

اللحظة ـ حتى لا يفتضح أمرها ـ أن تروض أفكارها الثائرة المتوهجة التى كانت تتدفق فى عقلها، وأن تتحكم فى الحماس الذى لا سبيل إلى السيطرة عليه، الذى استولى عليها بغتة.

«مساء الخير».. جاء صوته العميق تاليًا لفترة صمت كانت تنبئ بنوع من القلق والترقب. أتعشم أن تكونى قد عرفتينى هذه المرة، أردف الشاب قائلاً هذا بابتسامته المعهودة التى كانت مصحوبة هذه المرة بتعبير ودود نابع من القلب. لقد مررت أمس بالمدرسة، ولكن بوابتها الرئيسة كانت مغلقة مثلما كان عليه الحال فى اليومين السابقين، أردف قائلاً هذا بينما كان يقترب من الفتاة أكثر. وها هو قد وقف الآن قبالتها على بعد مسافة قليلة جدًا، وكأنه يحتضنها بنظراته، ولو أنه مد يده لتمكن بكل تأكيد من أن يلمسها: وكان هذا بالضبط ما فعله. ارتجفت الفتاة فرقًا من إحساسها بلمسة يده على يدها. وقبل أن يتسنى لها أن تتقهقر واجفة، أدركت أن الشاب كان يريد فحسب أخذ حقيبتها المدرسية لكى يخفف عنها عناء حملها. برغم أن ما قام به الشاب كان ينم عن براءة وشهامة وفروسية، فإن حركته هذه كانت تنهض دليلاً على الألفة وعلى الثقة بالنفس، إلى الدرجة التى جعلت اضطرابها يستمر. ولكن ترى هل كانت هى نفسها غير مسئولة عن الألفة التى كان يتصرف بها تجاهها؟

«بالأمس انصرفنا من المدرسة مبكرًا»، كان هذا هو ما قررت فى خاتمة المطاف أن ترد به عليه، بينما كانت تقبض بقوة وبطريقة آلية

على الحقيبة المدرسية التى كانت تحملها. وتحركت مقلتا عينيها بعصبية كما لو كانت تتحاشى أن تلتقى بعينيه، حتى لا يتبدى له الحماس الذى كانت تحاول إخفاءه.

وماذا عن الأيام السابقة؟... كيف عساها ألا تتجاوب مع اهتمام الشاب؟ كانت المدرسة مغلقة، كان هذا ما أفلحت فى قوله ردًا عليه بمجرد أن زال الضجيج الذى أحدثته سيارة متهالكة بعادمها الكثيف بعد ابتعادها. لقد توقفت الدروس لأيام قليلة، أرادت أن تضيف ذلك إلى قولها، وذلك كما تعرف بسبب الاضطرابات التى لا ريب سمعت بها، ولكنها ما لبثت أن تحاشت الاستمرار فى الحديث، على الأرجح لأنها قررت أنه ليس ثمة سبب يدعوها للإطالة، أو ربما لكى لا تبدد ذلك السحر الذى أسدل أستاره عليها شيئًا فشيئًا وغمرها ولف كيانها مرة أخرى.

فهمت!، أجابها عادل بصوت بدا فى أذنها خافتًا. ثم بعد ذلك سألها الشاب بلهجة الرجل الذى يحس بأنه واثق من نفسه للغاية قائلاً: هل تريدين أن نذهب سويًا للتريض؟.

للتريض؟، كررت الفتاة هذه الكلمة كما لو كانت تريد كسب قليل من الوقت، إلى أن تتمكن من استيعاب عرضه هذا فى عقلها. وفى خاتمة المطاف التقت عيناها بعينيه للمرة الأولى. وعلى أية حال برغم الرزانة والهدوء اللذين كانت تظهرهما الفتاة، فإنها تبينت فى عينيه وميضًا وبصيصًا من القلق والانزعاج - أو ربما من الترقب والأمل - كان من شأنه أن يخمد من لحظة إلى أخرى. أجل إنها

ترى هذا الوميض بوضوح وكانت غريزتها النسوية تمليه عليها، برغم كونه لا يزال مجهولاً بالنسبة لها.

لن نغيب طويلاً، أعدك بذلك، بادر بتوضيح الأمر قبل أن تتمكن أليكساندرا من الإجابة، ثم أردف قائلاً كما لو كان قبولها لدعوته أمرًا مسلمًا به: بعدها سوف أوصلك مرة أخرى وسوف أرافقك إلى منزلك إذا شئت ذلك. فلا تقلقى. هذه المرة كان تعبيره مختلفًا، إذ غدا تعبيرًا يكاد يكون أبويًا ينطوى على الرغبة فى الحماية.

قبلت أليكساندرا دعوته وشعرت فى أعماقها أن عدم رفضها لدعوته سرعان ما سيصبح عادة مستقرة ثابتة، وما إن قبلت الدعوة حتى مد عادل يده واستوقف تاكسيًا. ذهلت من هذه الحركة ولكنها لم تقل شيئًا بل تبعته فحسب.. أجل تبعته ببساطة وتقريبًا عن رغبة منها، دون أن تبدى أدنى معارضة ودون مقاومة أو عذر أو حتى أى مبرر من جانبها. وتركت نفسها بين يديه كما لو كانت طفلاً مطيعًا ساذجًا، واثقًا كل الثقة فى الوصى عليه الذى هو جدير بالثقة. وكأنها كانت تعرفه منذ زمن بعيد، أو كأنها كانت متأكدة من هذا الشاب الذى كان يقطر بلا مراء رقة لا مثيل لها.

إلى الأهرامات!، هتف قائلاً للسائق فأدهشها ذلك منه مرة أخرى. وتحركت سيارة التاكسى على مهل وهى تعبر الميدان الكبير الذى كان يعج بزحام رهيب. وفى أثناء الطريق تبادلت معه كلمات معدودة ونظرات قليلة. وفى الحقيقة كان عقلها نهبًا لاضطراب

بالغ، إذ أحست أنها مخدرة وعاجزة عن المقاومة أو عن إبداء رد فعل إزاء كل ما وقع لها من أحداث.

وعندما التفتت من جديد إلى الشاب الذى كان جالسًا بجوارها، وجدته قد سمر نظرته إلى الأمام ناظرًا إلى نقطة غير محددة خارج زجاج النافذة. وكان يبدو عليه الشرود أو ربما كان يفكر بدوره أيضًا فى نتيجة هذه المغامرة. وعلى أية حال فقد أيقظت نظرتها الجانبية إلى وجهه من هذه المسافة القصيرة - وهى مسافة التنفس - أيقظت داخلها من جديد تلك المشاعر الفوارة. إذ شرعت تدرس فى صمت ملامح محياه من الزاوية المواجهة لها، وهى ملامح تتسم تقريبًا بالكمال، وتدرس كل خط من خطوطها وكل زاوية من زواياها، وكل علامة على بشرته البراقة مهما صغرت، وتتفرس فى تلك الندبة الصغيرة التى تقع أسفل فكه. ثم من بعد ذلك صوبت أنظارها إلى زاوية عينه المنداة، وإلى حاجبيه الكثيفين المقوسين اللذين ينتهيان إلى نقطة غير مرئية، وإلى الوريد الصغير المائل للزرقة الذى كان ينبض برقة فى صدغه.

وكان وجوده إلى جوارها قد ملأها نشاطًا وحماسًا بطريقة غير معتادة. فلقد شعرت بإحساس جميل وهى بجواره كأنها كانت تعرفه منذ عهد بعيد، برغم أنها لم تفلح فى التخلص تمامًا من الاضطراب بسبب سلوكه فائق الجسارة، وبسبب جرأته التى دفعتها إلى أن تتبعه دون مقاومة، وبسبب إصراره وأيضًا بسبب عجزها عن مقاومته. وبسبب نزوتها وطيشها اللذين دفعاها إلى الانصياع له

بسهولة وإطاعة رغباته. وعلى أية حال فقد كان هناك شىء فوق متناول قدراتها، شىء لم تستطع أن تواجهه أو أن تتصدى له كان يوجه تصرفاتها، أو قل إنها كانت ضعيفة الإرادة أو مسحورة إزاء جاذبية هذا الفتى الأجنبى.

ترى هل يكون هذا هو ما يطلق عليه الآخرون اسم جنون العشق؟ تساءلت فيما بينها وبين نفسها وهى تخفض بصرها. ترى ماذا عساه أن يكون رد فعل والدها حقًا لو أنه رآها بجانب هذا الرجل الأجنبى، والأدهى من ذلك داخل سيارة تاكسى؟ وماذا كان يتعين على قسطنطين (صديقها) أن يصفها به، لو أنه وجد حقًا فى نفسه القدرة على أن يثق بها؟ إنه لم يقيدها بوعود وقسم غليظ، ولكن ألا تُعتَبر نظرته العفوية - على أية حال - التى كانت تتسمر طويلاً فوقها طوال أمسية الاحتفال بالعيد، والتى طبعها وصادق عليها بقبلته على شفتيها وليس على وجنتها - كما كان يفعل فى بعض الأحيان - ألا يُعتَبر هذا المسلك من جانبه تعبيرًا صريحًا عن عشقه لها؟ طالما أنها بدورها قد قبلت هذا منه بصمتها.

أغلقت عينيها بسرعة لتطرد من مخيلتها الصورة التى اعتقدت أنها لمعت فجأة فجعلت فكرها ينحرف عن مساره، مثل ضوء قوى مزعج لكشاف مبهر فى ظلمة ليلة هادئة، أو لتقل إنها لم تحتمل شدة هذا الضوء الغامر. أنا لا أريد أن نتأخر!، تمتمت وأنفاسها تلهث، وذلك لكى تلتقط أنفاسها أكثر من أن تقطع حبل الصمت. ثم

من بعد ذلك حانت منها التفاتة إلى المرآة الصغيرة، التى كان السائق الفضولى يسترق النظر إليها بين الفينة والأخرى ليراقبهما بنظراته الحافلة بالارتياب.

لن نتأخر! أعدك بذلك، كانت هذه هى الإجابة المناسبة التى يجب أن يرد بها على ما قالته، ولكنه نطقها على ما يبدو بصوت خفيض. غير أن الفتاة لم تسمع الكلمات التى تخيلت أنه قالها، حيث إن الأفكار التى عصفت بعقلها كانت بالغة الضجيج، كانت أفكارًا هائمة متقلبة ضالة حالت بينها وبين سماع أى شىء.

برغم الزحام الذى ساد الطريق وبرغم بعد المسافة التى تفصل بين ميدان التحرير بالقاهرة وبين منطقة الأهرامات بالجيزة، فإن الرحلة بدت بالنسبة لها بالغة القصر بل بدت كأنها لم تدم سوى ثوان قليلة، وكأنها لم تحدث فى حقيقة الأمر إلا فى خيالها. ومن خلال الارتباط بين الشعور بالخدر الذى لا يمكن التحكم فيه، أحست الفتاة بأن وجود الشاب إلى جوارها قد محا كل إحساس بالمنطقة التى توجد فيها، وطغى على المكان وأبطل قانون الزمان.

وعندما وصلت سيارة التاكسى إلى المنطقة الواقعة تحت أقدام تمثال أبى الهول، نقد الضابط الشاب سائق التاكسى أجره وهبطا كلاهما من السيارة. ونظرت أليكساندرا بطريقة عفوية إلى ساعة يدها وتساءلت ربما للمرة الألف، عن العذر الذى سوف تتذرع به لذويها عن هذا التأخير، ولكن صوت عادل قطع حبل أفكارها قبل

أن ينحرفا فى مسارهما مرة أخرى صوب... المقصد المجهول. ما رأيك فى أن نشرب كوبًا من الشاى فى هذا الكشك السياحى؟. سألها هذا السؤال وهو يشير إلى قهوة قريبة فى الهواء الطلق. انظرى! إن المنظر من هناك غاية فى الروعة.

طفقا يسيران بصعوبة فوق الرمال وهما معجبان بالمكان الساحر المثير، الممتد أمام تمثال أبى الهول العظيم، وبالصحراء التى تحيط به من كل جانب، والتى كانت بمثابة بحر من الذهب يعكس ضوء الشمس ودفئها. كانت تحس دومًا بالجاذبية والسحر فى كل مرة تزور فيها منطقة الأهرامات وترى فيها تلك اللوحة الفاتنة الساحرة، وكانت هذه المنطقة تثير فى نفسها دومًا الإحساس ذاته، وهو إحساس بالسكينة المطلقة، إحساس هادئ عجيب خارق للطبيعة كان ينبع بجلاء من الرهبة والخشوع. اللذين يوجدهما هذا المكان العظيم فى نفوس زواره. ومنذ ذلك الوقت وعلى مدى سنوات طويلة بعد ذلك، سوف تظل تلك المنطقة هى الملاذ والملجأ لها فى لحظات حياتها السعيدة وفى لحظات عمرها الصعبة سواء بسواء.

ماذا بك؟ ولماذا لا تتكلمين؟، سألها عادل وعيناه تشع بذلك البريق الذى بدا فيهما مرة أخرى. لا شىء! إننى معجبة فحسب بجمال المنطقة!... فقال لها: أهذا فقط؟، فابتسمت وقالت: أجل.. هذا فقط. وفى تلك اللحظة بدأت جماعة من الباعة المتجولين الشبان تعرض سلعها وبضائعها بإلحاح على الزوار الذين كانوا يجوبون المنطقة. وعندما نجح عادل فى التخلص من آخر شخص

منهم، التفت إليها ورمقها بنظراته ثم قال: لم يدر بخلدك أننا سوف نلتقى من جديد... أليس كذلك؟. لكى أكون صريحة فإنى لم أتوقع ذلك، أجابت بعزم وإصرار برغم أن هذه لم تكن الحقيقة. فرد عليها بقوله: برغم أننى كنت قد وعدتك بذلك؟ فقالت الفتاة: لقد مرت أيام منذ ذلك الحين واعتقدت أن..... فداعب الشاب محياها بنظراته ثم قال: لو لم تحدث كل هذه الأمور آنذاك، لكنت قد أتيت لألتقى بك فى وقت مبكر عن هذا الوقت. وتحاشى الشاب أن يفصح عما كان يضمره فى نفسه.

وصلا إلى بقعة فسيحة الأرجاء كانت بها مقاعد مصفوفة من الواضح أنها كانت معدة لمشاهدة عرض مسائى، وشاهدا منصة هائلة فائقة الارتفاع كانت مجموعة صغيرة من العمال منهمكة فى إنهاء تشييدها. ثم صعد الشاب والفتاة الدرجات القليلة المؤدية إلى المقهى الكبير المقام فى الهواء الطلق، وجلسا إلى واحدة من الموائد الجانبية. كان المقهى خاليًا تقريبًا إلا من طائفة قليلة من السياح الذين كانوا يخلدون ذكرى زيارتهم لهذه المنطقة وللمناظر المحيطة بها بآلات التصوير التى كانوا يحملونها. وبعد لحظات قليلة جدًا قدم رجلان يرتديان الجلباب البلدى لوحت الشمس وجهيهما وهما يجران خلفهما جملين أنهكت قواهما ولم يلقيا من صاحبيهما العناية والرعاية، ثم وقفا على مسافة قليلة من الشاب والفتاة وطفقا يحثانهما بابتسامات عريضة على أن يحزما أمرهما ويقوما بنزهة وهما يمتطيان ظهر هذين الجملين المدهشين. ولكن عادل قام بإبعادهما قائلا لهما إن الفتاة مصرية وليست سائحة ـ فضلاً

عن أن هذا كان أمرًا بالغ الوضوح - فابتعد الرجلان ببطء بعد أن منيا بخيبة الأمل وهما يسحبان خلفهما البعيرين، وتوجها ليجربا حظهما مع نفر من رواد المقهى الموسميين.

وما إن استقر الفتى والفتاة فى مقعديهما المصنوعين من الخيزران، حتى بادر عادل إلى طلب الشاى من الجرسون النشط الذى كان يتنقل بخفة بين الموائد. ومن مكبر خفى للصوت كان بالمقهى انسابت إلى الآذان ألحان ساحرة حالمة، ألحان حريرية منسوجة بنول أثيرى وزاخرة بالقوة والعاطفة المشبوبة، كانت مصحوبة بتنويعات تخلق فى وجدان السامع مشاعر غريبة متصارعة. أحست أليكساندرا فى هذه اللحظة ذاتها بالسرور الممتزج بالحزن، بالأسى والفوران الجياش، وكانت على ثقة من أنها قد سمعت هذه المقطوعة الموسيقية فى مكان ما وفى زمن ما، غير أنها لم تتذكر أين ولا متى بالضبط.

إنها سيمفونية شهرزاد التى لحنها ريمسكى كورساكوف، باغتها الشاب بهذه الكلمات وكأنه كان يقرأ أفكارها، فرمقته الفتاة وهى مشدوهة إلى حد ما. لقد شعرت حقًا بقدر ضئيل من الارتباك والحيرة بسبب جهلها ولكنها لم تنبس ببنت شفة، بيد أنها اكتفت فقط بالابتسام على استحياء، وكأنها تقدم له الشكر والامتنان على تقديم هذه المعلومة الخاصة بمقطوعة موسيقية كانت تجهل أمرها.

إنها سيمفونية يتم فيها الثناء على بسالة شخصيات أسطورية وردت فى قصص شهرزاد أو حكايات حليمة كما تسمونها أنتم. قال

هذا بغية أن يشرح لها موضوع السيمفونية، ثم استطرد قائلاً: وذلك فى حكايات ألف ليلة وليلة.. وفى أثناء النقلة التالية للمقطوعة الموسيقية التى لم تدم سوى لحظات معدودة، بادرها بقوله: كما أنها مقطوعة موسيقية تشيد بسحر العشق وفتنته.

قطبت الفتاة ما بين حاجبيها برقة ولطف إعجابًا بالطريقة الساحرة التى كان الضابط الشاب يلفظ بها العبارة الأخيرة. ترى هل هو حقًا خبير وعارف بفتنة العشق وسحره؟ كان هذا ما تساءلت به فى هذا الصدد. إن شابًا وسيمًا جدًا على هذا النحو كانت لديه بالتأكيد فرص كثيرة لكى يحس بهذا ولكى يصبح العشق موطن إلهام بالنسبة له. هل تسمعين الآن هذه النغمة الرائعة المثيرة للإعجاب؟، أردف الشاب قائلاً وهو نشوان بروعة الموسيقى، دون أن يأبه بكل ما يدور داخل عقلها أو يختلج فى نفسها، أو ربما على العكس من ذلك! توقف برهة عن الكلام لأنه أراد أن يمنحها الفرصة لكى تستمع بعناية للموسيقى وأن تستمتع بها بدورها.

وعندما لاحظ الفتى أن أليكساندرا قد طربت لعذوبة الموسيقى وأنها قد غدت أسيرة سحر الألحان، أردف قائلاً: إن آلات الكمان تبدو كأنها تتبادل الحديث مع الآلات الموسيقية الأخرى... أعنى كأنها تتكلم مع هذه الآلات بهدف إخضاعها والسيطرة عليها....

وافتر ثغره عن ابتسامة مشابهة للابتسامة التى كان قد أخضع بها كيانها وأبهجها، فأثار بها أعماقها من جديد. أسمعت كيف تتبادل آلات الكمان العشق مع الآلات الأخرى؟ وكأنها مصرة على إغوائها وإغرائها بسحرها لكى تقع فى شباكها....

ضحكت (من أعماق قلبها)، إذ بدا لها أمرًا غريبًا أن يتمكن رجل شاب ـ وعلى الأخص ضابط ـ من التحدث بشاعرية وأن ينتعش طربًا من مثل هذا اللحن المستمد من سيمفونية كلاسية. وفى الحقيقة إنها كانت متفقة معه تمامًا فى أن اللحن مدهش فى الواقع، وفى أنه تأليف موسيقى من تلك السيمفونيات التى تخلق فى الخيال لوحات منحوتة مبارزة مصبوغة بألوان قوس قزح، لوحات تجعلك تحس بها وتتذوقها بكل مشاعرك.

أجل! إنها فى الحقيقة جميلة جدًا.، غمغمت الفتاة وهى تحس بتعاطف مع حماسه. إنها ليست جميلة فقط! بل هى مذهلة!، أضاف الشاب قائلا وبريق من الإعجاب يتجلى فى عينيه الجميلتين. هل تروق لك حقًا الموسيقى الكلاسية؟، بادرها بالسؤال وهو يغوص فى عينيها الساحرتين. أومأت الفتاة برأسها مبدية موافقتها على ما قاله، وشعرت على أية حال بأنه ينبغى عليها أن تكون أكثر صراحة معه، فقالت: ومع ذلك فنحن لا نسمع مثل هذه الموسيقى عادة فى المنزل، حيث إن والدى من عشاق الموسيقى اليونانية، من ثم فإننا نسمع رغمًا عنا الأغانى اليونانية أكثر من سواها.... ضحك الشاب بصوت خافت، بعدها أردفت الفتاة: وذلك لكى نتذكر ما بين الحين والآخر وطننا الآخر!.

أتفهم ذلك، تمتم الشاب بذلك وهو يهدى إلى الفتاة مرة أخرى ضحكته الجذابة الآسرة. قالت الفتاة: وهل تحب أنت هذه الموسيقى؟، فأجاب الشاب بقوله: أجل أحبها جدًا، وهذه

السيمفونية بالتحديد هى المفضلة لدى. ثم شرح لها الشاب أنه عاشق لهذا العمل الموسيقى بوجه خاص، وأنه كان يسمعه مرارًا وتكرارًا فى منزله ويعزب به آذان والدته التى هى فى منتصف العمر، وأن والدته لم تكن قادرة على استساغة مثل هذا النوع من الموسيقى أو فهمه. وأفهمها الشاب أيضًا أنه - إلى جانب الأسطوانة الخاصة بهذا العمل - قد اشترى جراموفون قديمًا من سوق خان الخليلى لكى يسمع منه هذه المقطوعة الموسيقية.. وبعد وقت قصير خطط الشاب لشراء بيك آب عصرى لكى يستمتع بأداء أفضل عندما يتاح له أن يتخلص من الضوضاء المزعجة التى كانت تحدثها الإبرة السميكة للجراموفون فى كل مرة أثناء احتكاكها وتعثرها غير المنتظم فوق خطوط الأسطوانة البلاستيكية.

ثم شرح الفتى لها أن حبه للموسيقى الكلاسية - وبوجه خاص هذه السيمفونية - قد بثه داخله قبل سنوات قليلة مُعَلِّمُهُ الذى كان يشرف على تدريبه فى الأكاديمية العسكرية(١)، وهو رجل كان عادل يكن له الإعجاب ويبجله ويحترمه بلا حدود، وكان عادل يحلم على الدوام بأن مثل هذا الشخص سوف يتولى يومًا ما مقاليد الأمور فى هذا البلد الذى أرهقته المشاكل.

---

(١) الحديث هنا عن البكباشى - آنذاك - جمال عبدالناصر الذى أصبح فيما بعد ملهم ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ وقائدها. (المؤلفة).

ومرة أخرى أصاخ كلاهما السمع للموسيقى لفترة قليلة، إلى أن بادر عادل مرة أخرى إلى قطع حبل الصمت بقوله: كان معلمى فى المدرسة الحربية يترنم بضوت خافت على الدوام بهذا اللحن فى كل مكان وفى أى مكان كان يوجد به، حتى أثناء ساعات التدريب. ضحك الشاب بصوت خافت ثم أردف بعدها قائلاً بنبرة جادة: ثم قابلته بعد ذلك مرة أخرى فى الجبهة بعد انقضاء عامين، إذ حاربنا سويًا فى خط القتال الأول. ولولا تشجيع هذا القائد لنا ولولا بثه الحماسة فى نفوسنا، لما تسنى لأحد منا على وجه اليقين أن يظل على قيد الحياة حتى الآن. كنت آنذاك أخطو نحو العام الثانى والعشرين من عمرى، ولم أكن حتى ذلك الحين قد عرفت الخوف إلى هذه الدرجة.

أقر الشاب بهذا وقد اكتسى وجهه بنظرة قاتمة وزاخرة بالأسى ثم أردف قائلاً: لقد كان الطريق إلى الموت جليًا واضحًا، وكنت أشاهد فى كل مكان جثثًا ممزقة الأشلاء. وبعد مرور أيام قليلة على ذلك انطلق جيشنا صوب الفالوجة طاعة لأمر آخر صدر لنا من القيادة(١). وأكد لها الشاب أن كل ما حدث كان بتأثير من الرأى العام والمراقبين الدوليين، الذين تجاهلوا قتل النفوس البشرية والمذابح الواضحة ولم يكترثوا لها؛ وأن جميع من قدر لهم البقاء على قيد الحياة من المعارك، عادوا مرة أخرى من خط القتال لكى ينشدوا الراحة ويقتاتوا بلقيمات من الخبز هذا لو عثروا عليها.

---

(١) الحديث هنا عن حرب عام ١٩٤٨فى فلسطين بين حكومة إسرائيل الجديدة والدول العربية، حيث لقى الجيش المصرى الهزيمة. (المؤلفة).

وعندما حدثت الهدنة الأولى عسكر رئيس الأركان[1] معنا فى أشدود أمام المواقع الحصينة وحاول أن يبقى معنوياتنا مرتفعة. كان الجنود آنذاك يقاتلون بدون غطاء، أعنى بدون دعم من المدرعات وبدون دعم من الطيران، وسقطت أول موجة من الجنود صرعى وسرعان ما تلتها موجة ثانية من الجنود سقطوا بدورهم صرعى: لقد كان ثمنًا فادحًا ذلك الذى دفعناه بلا مقابل فى مذبحة مروعة هى بدعة وضلال. وارتسمت غلالة من الحزن والأسى على نظرته ثم أردف قائلاً: هناك عرفت رعب الحرب وهولها لأول مرة؛ ولم يفلح سوى أقل عدد من المقاتلين الذين كانوا معى فى العودة إلى وطنهم سالمين. قال هذا بنبرة حزينة وهو كاسف البال: لقد فقدت معظم أصدقائى... ونجوت أنا بأعجوبة، أعنى أفلت بهذه الندبة الضئيلة بما يشبه المعجزة من أحد الانفجارات. أضاف هذا وهو يظهر للفتاة أثر الندبة أسفل فكه، وهى الندبة التى لفتت نظر أليكساندرا قبل ذلك فى سيارة التاكسى.

وعندما أدرك الشاب أن اهتمام الفتاة قد تزايد واشتد، استمر فى تصويب نظراته اللامعة إليها وفى التحدث إليها بصراحة: ولولا إصرار قائدنا وبطولته لما تسنى لنا ـ حتى نحن القلائل الذين نجونا ـ أن نعود من الحرب. ومنذ ذلك الحين لم يترك قائدنا مكانًا شاغرًا

---

(١) وهو نفسه جمال عبد الناصر الذى كان رئيسًا لأركان الفرقة السادسة من الجيش. وكانت وحدته قد حوصرت فى الفالوجة ولم تتوافر لها الأسلحة المناسبة والتغطية الكافية فانهزمت وتكبدت خسائر فادحة. (المؤلفة).

فى نفسه لأى شىء سوى إيمان لا تنفصم عراه بأنه يومًا ما سوف يكون قائدًا للجيش ولبلده هذا؛ ولم لا؟ فماذا كان عليه أن يقدمه لكى يرى حلمه يتجسد ويكتسى بلحم ودم!.

وعندما بلغت رواية الشاب القصيرة خاتمتها، اختفى تمامًا ذلك التعبير المبتهج الأول الذى كان يرتسم على أساريره، فلقد اكتسى وجهه الوسيم الخالى من الهم بقناع عكر صفوه وأحزن فؤاده، بينما بدت عيناه وكأنها فى رحلة بعيدة إلى عالم مظلم مقبض ثقيل الوطأة. هذا التغير المفاجئ - جنبًا إلى جنب مع امتداد الصمت الذى ساد بينهما - جعل القلق يتسرب إلى نفس أليكساندرا.

وبمجرد أن أدرك عادل ذلك، طوح رأسه بخفة إلى الخلف كما لو كان يريد أن يبعد عنه الذكريات الحزينة لتلك الحرب المرعبة التى تركت آثارها فى تاريخ مصر الحديث، وأن يمحوها من عقله وروحه لكى يعثر مرة أخرى على صفاء قلبه. ذلك أنه لم يكن يروم أن يدمر تلك اللحظات التى أتيحت له بجوار الفتاة الأجنبية الجميلة، فربما لا تتاح له فرصة أخرى مثلها. ولكن دعينا من هذا كله قال لها هذا بعد أن عثر من جديد على مزاجه المبتهج المفعم بالسرور. أتعرفين، يا أليكساندرا..... ضحك بشدة لأنه ارتاب فى أن يكون قد نطق اسمها هذه المرة أيضًا بطريقة خاطئة. ولكن حينما أكدت له الفتاة بإيماءة رقيقة من رأسها وبيسمة افتر عنها ثغرها أن النتيجة كانت ناجحة، أردف الشاب قائلاً بعد أن ارتفعت معنوياته: بينما كنت واقفًا اليوم على الرصيف أمام المدرسة

لأرافقك مع صديقاتك... رأيتك وأنت تناقشين وتضحكين بينهن بهذه الطريقة التى أراها الآن.... ولم يستمر بعد ذلك فى الكلام: كنت أناقش وأضحك بينهن بهذه الطريقة؟ ماذا تعنى؟ استحثته بقولها هذا على أن يستمر فى حديثة أنت أجمل فتاة بينهن.. أتعرفين ذلك؟. قال ذلك وهو يخفض بصره ويطلق ضحكة لم يشأ لها أن تكتمل. برغم أن الكلمات التى قالها الشاب كانت تتردد على مسامعها عادة بدون تخصيص من نوع ما، فإن الطريقة التى نطقها بها واللهجة التى تلفظ بها وابتسامته التى تلت ذلك - إضافة إلى تلقائيته التى بدت تقريبًا طفولية - قد أبطلوا غياب التفرد عن العبارة ومنحوا هذا الإطراء المطروق المبتذل نكهة فريدة ولونًا مميزًا من السحر. ولكن الفتاة - على أية حال - فضلت ألا تعلق على إطراء الشاب ومجاملته لها وأن تركز أنظارها واهتمامها على هذه المنطقة الرائعة الممتدة حتى الأفق.

أيروق هذا المكان لك؟ أليس المنظر غاية فى الجمال؟. سألها وهو يوجه الحديث إلى منعطف أكثر أمنًا. ثم تتبع نظراتها ولف رأسه بدوره ليرى هذا المكان الرائع ويرمقه بإعجاب وفخر باد للعيان. إنه جميل للغاية، والتجربة فريدة من نوعها، آزرت رأيه وتعاطفت مع مشاعره ومع ملامح وجهه. لماذا إذن هذه الرزانة والوقار؟، سألها هذا السؤال عندما التقت عيناه بعينيها مرة أخرى. الرزانة؟ - أجل! لماذا لا تتكلمين؟ أفلا تحسين بالبهجة؟ - كلا! بل هناك شىء آخر... أجابته فى ثقة واعتداد.. فقط.. أنا لا أعرف ما

إذا كان لقاؤنا أمرًا صائبًا أم لا. كانت هذه هى المرة الأولى التى أفصحت له فيها عن مكنون فكرها الذى كان يعذبها ويقض مضجعها منذ اللحظة الأولى التى قابلته فيها.

وبدا القلق على عادل فقال: لماذا؟. قالت: ليس الأمر سهلا... إنك لا تفهم الوضع؟، رمقته بنظراتها بطريقة معينة كما لو كانت تقول له إن من العبث أن يحاول شخص تفسير ما هو واضح بذاته. أعرف.. أعرف.. وأدرك أن الأمر ليس سهلاً، خاصة الآن حيث أصبح كل شىء معقدًا وغير متوقع. قاطعها بسرعة بقوله هذا، كما لو كان يريد أن يوافق على كلامها وأن يؤكد بوجه خاص ما يعتلج بفكرها. ثم أردف قائلاً: ولكن العلاقات بين الناس أكثر أهمية من أى شىء آخر ومن أية ظروف مهما كانت. فما قولك؟ إلا إذا كنت حقًا ترفضين صداقتى.. أليس كذلك؟.

أثارت كلمة صداقة لديها قلقًا من نوع غريب، من ناحية لأنها كلمة قيلت آلاف المرات ولأنها كلمة ذات طابع عام يتبادلها عادة الأجانب مع أولاد البلد، ومن ناحية أخرى لأنها فى أعماقها كانت تخفى تناقضًا ومبالغة وجرعة جسورة من النفاق، وبوجه خاص من قبل المجاملين. فالصداقة تستلزم وجود احترام متبادل وتوقير وإجلال وتدعيم، وفى هذه الحالة الراهنة فإن عناصرها المكونة إما أن تكون غائبة نهائيًا أو أن تكون مقدمة فى صورة جرعات غير متساوية. أما بالنسبة لليونانيين فى مصر ـ على أية حال ـ فإن الصداقة لها مفهوم مختلف: فالعلاقة بين الضيوف المقيمين وبين أصحاب البيت المضيفين كانت ترتكز على الحب الحقيقى والتوقير،

برغم أنه وجد فى صفوف الفئة الأولى (أعنى الضيوف) نفر - وهم قليلون جدًا لحسن الحظ - ممن تخطوا حدود العلاقة المنسجمة أو ممن أساءوا استخدام كرم المضيفين بلا حياء ولا خجل.

هل ترفضين صداقتى حقًا، يا أليكساندرا؟، كرر الشاب سؤاله بإصرار أشد. لا.. حقًا، جاءت هذه الإجابة من الفتاة كرد فعل تلقائى: ولكن.... ولكن ماذا؟، قال الشاب. إن المصادمات ضد المقيمين الأجانب تحدث على الدوام بعنف وبدون مبرر مستساغ. قالت له هذه الكلمات وهى تؤكد العبارة الأخيرة، برغم أنها فى أعماقها كانت قد أخذت على نفسها عهدًا بأن لا تذكر أبدًا هذا الأمر من قريب أو من بعيد.

إن غالبية الناس البسطاء أميون، وليس فى مقدورهم أن يعرفوا.... قال هذا فقاطعته الفتاة بقولها: هذا صواب، ولكن ردود الفعل - على أية حال - فى معظم الأحوال قد وصلت إلى حدود خطرة. كانت هناك مسحة من الانتقاد تشوب صوتها مما سبب له بالأحرى نوعًا من الاستياء. على أية حال فإن الأسباب الأساسية التى دفعت الشعب إلى مثل هذه الفعال أسباب عادلة ومن الواضح أنها مبررة، قال الشاب هذا وهو يبدى معارضته للفتاة بحدة مقطبًا ما بين حاجبيه. ثم أردف قائلاً: ولقد نبعت هذه الأسباب من سخط الناس وحنقهم، أعنى هؤلاء الناس الذين حرموا من جميع النعم والخيرات. وإنها لصرخة يائسة من جانب هؤلاء المحرومين احتجاجًا على من ينكرون عليهم أن يحظوا بضروريات الحياة الأساسية... ومن يأبون عليهم أن يعيشوا حياتهم ذاتها.. أتفهمين؟.

لم تنبس الفتاة ببنت شفة وبدت مذهولة، وإن كانت فى حقيقة الأمر قد أحست بنشوة غامرة من تلك الشعلة التى توهجت مرة أخرى فى عينى الفتى. وعندما اعتبر عادل أن السبب فى ذهول الفتاة كان يكمن فى لهجة حديثه أو نبرة صوته، استمر فى حديثه برقة ونعومة وبلهجة أشد ليونة عن ذى قبل: ولكن الشعب البسيط ليس هو المسئول، إنما المسئول هم أولئك الذين من الواجب عليهم أن يقودوا الضالين إلى الطريق الصائب، طالما أن من يحكمون هذا البلد المسكين المعذب قد جعلوا الدولة تغط فى سبات عميق....

أربكتها عبارات الشاب الأخيرة إلى حد ما، ولكنها كانت عبارات زاخرة بالإثارة والحماس الجارف والقوة التى جعلتها تقترب منه أكثر من ذى قبل، برغم أن البريق الذى أضاء ملامح الشاب للحظة قصيرة والذى خبا قبل أن تتمكن الفتاة من جعله ينطبع فى حكمها وفى مزاجها، قد ذكرها بوجه الرجل المسن الزاخر بالحنق والغضب، ذلك الرجل المسن الذى قابلها صباح هذا اليوم. وتهيأت الفتاة لكى تحدثه عن تلك الحادثة ولكنها ندمت على هذا الخاطر. وذلك لأنها قررت أنه فى نهاية الأمر حادث عابر لا يستحق الذكر. إن رد فعل رجل طاعن فى السن لا يمكن أن يكون ممثلاً بحال من الأحوال لتصرفات شعب بأسره إزاء المشاركين له فى المواطنة الذين يكنون مشاعر الحب وحدها تجاه أرض مصر المضيافة. وحيث إنها كانت فتاة ناضجة بما فيه الكفاية لفهم مثل هذا التصرف، فقد فضلت ألا تتحدث عنه بكلمة وأن تتفق فقط مع ما قاله الشاب.

وهنا تفحص عادل وجه الفتاة برقة، فقد كانت حقًا ذات جمال أخاذ، وإن كان جمالها ليس بالمعنى التقليدى للفظ الجمال: فكر مليًا ثم ابتسم مرة أخرى، وكانت ابتسامته فى هذه المرة زاخرة بالرقة والحنان من جانبه. وكانت عيناه تشهدان بوضوح على فرط إعجابه بها وعلى استحسانه الشديد لمظهرها. كان شعر الفتاة الطويل الأشقر المائل إلى اللون الكستنائى يتماوج برقة ويبرق ببريق أخاذ وهو يتماوج فى إثارة تحت أشعة شمس الظهيرة البراقة. كانت أطراف شعرها التى تصل إلى أسفل كتفيها تمتزج مع نسمات الهواء التى تهب دونما عائق يحد من حركتها فى هذه المنطقة المفتوحة، ثم تسقط من بعد ذلك بتلقائية خلف الشريط الأبيض الذى كان يربطهما معًا. أما وجنتاها فقد اصطبغتا بلون أحمر قان بفعل مداعبة أشعة الشمس لهما - أم ترى هل كان ذلك بفعل الاضطرام الذى سببه وجود الشاب أمامها؟ وكان لون وجنتيها الوردى يظهر حلاوة محياها أكثر وأكثر عن ذى قبل، إذ إنه كان يرسخ الإحساس باللون الذهبى لعينيها الذى كان بالفعل يتناغم مع لون شعرها ومع لون الشمس من فوقها ولون الصحراء حولها. ثم من بعد ذلك فإن ابتسامتها التى كانت تكشف عن براءة روحها ونقاء سريرتها تظهر فى الوقت نفسه أنوثتها الصارخة.

وكأن الشاب لم يحتمل أن يصمد أكثر من ذلك أمام مثل هذه الصورة الفاتنة الجذابة التى تجلت أمامه، فانبرى بحركة عفوية لا إرادية لمد يده تجاه وجه الفتاة، وقام بلمس وجنتها بلطف براحة يده، أو لنقل إنه أراد أن يقيس درجة حرارتها بكفه... إن وجنتيك

تلتهبان من حرارة الشمس.... قال لها هذه العبارة فجأة. كما أن عينيك... تتحديان ضوء الشمس ودفئها....

ابتسمت الفتاة مرة أخرى من فرط شاعرية الشاب، ولكنها هذه المرة أزاحت يده برقة، ولم يكن ذلك بسبب الخجل أو بسبب الحيرة بل لأن كف يده كان قد أشعل نارًا فى وجنتيها أكثر لهيبًا من ضوء الشمس... وفى الحق إن جسدها كان يلتهب بفعل الحرارة التى أحدثتها مرة أخرى لمسة يده الجسورة - برغم أنها كانت خالية من عدم اللياقة - ولكن فى هذه المرة فحسب غدت حرارتها نارًا كانت تبث فى كيانها بأسره القوة وتضرم فيه النار وتسفعه سفعًا. ولم يكن لديها أدنى شك فى أن هذا الشاب الذى لم تكن تعرفه حتى الآن معرفة وثيقة، قد أيقظ داخلها تلك الأحاسيس والرغبات التى كان الآخرون من الأشخاص الأكبر سنًا والأكثر خبرة فى الحياة وفى العشق وأماراته يتناولونها ويصفونها فى أحاديثهم بتلميحات مستورة وببريق غير مفهوم فى عيونهم... أعنى تلك المشاعر التى كان الشعراء يتغنون بها فى قصائدهم، ولم تكن الفتاة تدرى عنها شيئًا.

فكم من مرة فى الحقيقة أخفقت فى أن تحس بها وتدرك كنهها؛ لأنها كانت بالفعل صغيرة وغير ناضجة، وحيث إن الحظ لم يواتها فيجعلها تتذوقها آنذاك... وحتى عندما أظهر لها قسطنطين عشقه وهيامه فى الركن المظلم من الشرفة، قبل ساعات قليلة من رحيله إلى ألمانيا، فإن الفتاة حاولت وهى يائسة أن تنشد هذه المشاعر بحذافيرها فى مكان ما داخل شغاف قلبها، ولكن عبثًا وبلا طائل...

وكلما بحثت عنها لم تجد لها أثرًا، إلى أن حلت هذه اللحظة السحرية التى جعلتها تنبثق داخلها على غير رغبة منها وبدون عائق، مثل الحياة التى تتدفق بقوة من منبعها.

جلس الفتى والفتاة معًا برهة من الوقت، وتحدثا عن الحياة وعن أحلامهما. لم يكن هناك شىء مشترك بينهما سوى شبابهما وسوى الظمأ الذى لا يرتوى تلهفًا على الحياة وعلى الجاذبية المتبادلة بينهما، التى كانت مع كل كلمة وكل نظرة وكل تلميحة تتغذى وتنمو وتكبر، أو لتقل إنها كانت وجودًا غريبًا مخلوقًا من لحم وعظم، مخلوقًا حيًا كانا ينميانه ويقويانه فى كل جزء من اللحظة تحت حرارة الشمس ومن خلال أشعتها الدافئة. لم يكن يضيرها كون الشاب من عرق أجنبى ومن منبت مختلف عن منبتها، فلقد كانت بجواره تحس بالسعادة والتفاؤل وبأول معرفة لها بالتكامل... وفى حقيقة الأمر فإنها لم تشعر أبدًا قبل ذلك بهذا الإحساس فى حياتها، وكانت واثقة من هذا كل الثقة.

ومنذ ذلك الحين التقى الشاب مع الفتاة مرات كثيرة... كان ينتظرها تقريبًا كل يوم، طورًا فوق الجسر هناك فى المكان ذاته الذى التقيا فيه لأول مرة، وطورًا خارج المدرسة. كان ينتظرها خلف عمود الإنارة القديم المواجه للطوار أو على مسافة قليلة منه لكى يقودها فى الدروب والأزقة الخفية الواقعة فى المناطق المجهولة تمامًا بالنسبة لها، التى لم يطرقها أبدًا من قبل أحد من بنى

جلدتها. وكلما حاولا أن يتفاديا نظرات العابرين الفضولية، كان هؤلاء المارة يصرون على أن يتفحصوا بإعجاب وبفضول هذين الشابين الجميلين ذوى الهندام الحسن اللذين كانا يجوسان فى دروبهم الظليلة المتواضعة.

كان الشاب يصطحبها ويغدو دليلاً لها فى الأزقة الخاصة به، وهكذا مع الوقت بدأ يسحر الفتاة بجاذبيته ويشدها إليه أكثر فأكثر إلى أن غدت حاجتها لرؤيته ملحة. كما أصبح وجوده فى حياتها ضروريًا مثل قطرة الندى التى تروى بتلات وردة ظامئة فى صحراء قاحلة، أو مثل أشعة الشمس فى الصباح الباكر عندما تشرق على زهرة عباد الشمس الحزينة كاسفة البال. كانت كل مرة تطرح عنها مخاوفها وشكوكها وريبتها، ولكنها كانت قبل كل شىء آخر تنكر الأحكام المسبقة التى كانت قد ضربت بجذورها فى أعماقها، والتى كانت إرثًا ورثته عن الأجيال السابقة.

(٤)

فى المبنى اللازوردى ذى الطابقين القائم فى شارع عبد الحميد باشا. وتقريبًا فى وسط جزيرة الزمالك الزاخرة بالخضرة وبين الورود وأزهار الياسمين التى كانت تنال الاهتمام والعناية فى تلك الحديقة المليئة بالزهور، كان كيرياكوس كيريازوبولوس منهمكًا منذ فترة طويلة من الوقت فى نقاش جاد مع بيريكليس أثاناسياذيس، صديقه الحميم الذى كان صحفيًا لامعًا وشريكًا فى ملكية الصحيفة اليونانية فوس = النور.

كانت تقاطيع وجه (كيرياكوس) الوسيمة - التى هى من بقايا سحر سالف لم تمتد إليه يد النسيان - تذكر بقوة بملامح ابنته الوحيدة التى يحبها حب عبادة فيما عدا عينيها اللتين ورثتهما عن والدتها مارينا. وكانت ظلال العدستين السميكتين لنظارته المصنوعة من العاج الأسود التى كان يرتديها بانتظام، تنعكس على عينيه النفاذتين المتوهجتين بلونهما الأخضر الداكن بدرجة جعلت ملامح وجهه متغيرة. وكان قوامه متوسط الطول مائلاً إلى النحافة، وإن كان فى الآونة الأخيرة منذ أن دلف إلى الخمسين من عمره، قد كدس بضعة كيلوجرامات زائدة فى المنطقة المحيطة ببطنه، الأمر الذى سبب له الضيق؛ حيث إنه غدا مصدر الإزعاج الوحيد له كما غدا باعثًا على مشاكسات لا نهاية لها من جانب زوجته - وكانت هذه الزوجة قد داومت على الحفاظ على جمالها وعلى تناسق قوامها ورشاقتها وملاحة وجهها، الذى كان يبدو كأنه وجه فتاة أصغر سنًا عما كانت فى الحقيقة عليه.

برغم أن صديقه بيريكليس أثاناسياديس كان أصغر منه سنًا بسنوات كثيرة، فإن تقاطيع وجهه لم تكن جذابة أو أخاذة، ولم تكن عيناه نابضتين بالحيوية والبريق الأخاذ. كان طويلاً بالغ النحافة وله شارب رفيع لونه كستنائى أشقر، فوق شفتيه غير الظاهرتين ونظرته العابسة المتجهمة على الدوام. وكانت عادته المتأصلة تتمثل فى الغليون الذى كان ينفث دخانه بلا توقف.

كانت أليكساندرا فى غرفتها تحاول الاستغراق والتركيز فى قراءة دروسها، وكانت ما بين الفينة والأخرى تسترق السمع إلى المناقشة الدائرة بين الصديقين، من خلال نافذة حجرتها المفتوحة إلى أن استغرقت فى سماع حديثهما بكامله. لم تكن فى بداية الأمر تعلق أهمية كبيرة على ما كانا يقولانه. حيث إنها كانت تعلم علم اليقين أن المناقشات المتكررة التى كانت تدور بينهما كانت غير مستساغة ومملة. إذ كانا فى العادة يستهلان النقاش بالحديث عن تفاصيل عمل والدها وعن مسار حصص رأسماله التى كان يضارب بها فى البورصة، ثم ينتهيان بقول كلمات يعربان فيها عن شكرهما وامتنانهما لوالدتها، تعبيرًا منهما عن دماثة خلقها وكرم ضيافتها التى كانت مصحوبة دائمًا بالمزات اللذيذة الشهية، التى اشتهرت الأم بصنعها فى دائرة الجيران والأصدقاء. ولكن النقاش اليوم تحول إلى موضوعات جادة وحاسمة كانت تمس بوجه خاص أحداثًا ومظاهر تتعلق بها هى شخصيًا .

وفى واقع الأمر فإن الشعب قد وقع نهبًا لاضطراب شامل، كان والدها يقول هذا لصديقه الذى كان جالسًا على أريكة من الخيزران بجواره وهو يدخن غليونه بحركة تكاد تكون مسرحية. ثم أردف قائلاً: فأنت ترى هذا بوضوح على وجوههم، حيث تنطق به نظراتهم القلقة. أنا لا أظلمهم... فالاستغلال البشع لهذا البلد والفقر المدقع الذى يعيش فيه غالبية الناس، جنبًا إلى جنب مع المعارك الهزيلة التى كان يخوضها البلاط الملكى ضد الإنجليز، إنما هى أمور تهدف جميعًا إلى هدف واحد لا سواه هو تضليل مشاعر

الشعب. أليست هذه العوامل كلها خليقة بإثارة الناس ودفعهم إلى الحنق والغضب وعدم الرضا؟.

كان هذا ما قاله صديقه، أما والدها فقد أجاب عليه بقوله: هل تعتقد بأن هذه العوامل سوف تدفع الناس إلى انتفاضة أخرى مثل تلك الانتفاضة (الغاضبة) التى حدثت فى شهر يناير؟. وهنا أجابه صديقه قائلاً: هذا مرجح... وأخشى ما أخشاه أن الغضبة هذه المرة ستكون أشد قسوة وعنفًا؛ فالأفعال الإجرامية والمكائد التى يدبرها البلاط الملكى لا نهاية لها، فى حين أن البذخ السافر للقصر وفضائحه تعد عناصر كافية لإشعال نار الغضب فى نفوس الشعب ولإثارة حنقهم واستيائهم.

لزم والدها السيد كيريازوبولوس الصمت واكتفى فقط بهز رأسه إقرارًا بما سمع، لكى يبدى موافقته التامة على ما قاله صديقه. وهنا استمر صديقه الصحفى قائلاً: وخذ من بعد ذلك القهر الذى تتعرض له الطبقة البرجوازية الصغيرة، التى تتعطش شوقًا إلى الاستقلال الاقتصادى والسياسى... فمن الواضح أن هذه العوامل كلها سوف تدفع بها فى وقت ما إلى نشوب ثورة لا محيص عنها، وأخشى ما أخشاه أن هذه الساعة قد اقتربت ما بين لحظة وأخرى. كان هناك قدر ضئيل من الفخار والكبرياء فى لهجة صوته، وفى الطريقة التى كان يتكلم بها ويلوح خلالها بيديه. وكان يروق له دومًا أن يستولى على الاهتمام فى مثل هذا النوع من المناقشات، مثلما كان يروق له أن يقوم الآخرون باستشارته فى الموضوعات

السياسية. كما كان يعتبر نفسه صاحب سلطة مرجعية، ولم يفقد أبدًا فرصة أن يظهر معارفه وموهبته فى شئون الصحافة والأخبار، متبنيًا على الدوام ذلك الأسلوب الجذل الفخيم الزاخر بالفخار ذاته، ومنتقيًا فى كثير من الأحوال الألفاظ الطنانة ذات الجرس والتأثير، وكأنه يلقى خطبة فى ساحة السوق الأثينى القديم. ومع ذلك فقد كان فى حقيقة الأمر إنسانًا ذكيًا لماحًا واسع المعرفة بكثير من الأمور ويحظى بحكم صائب فى أمور السياسة.

أعتقد أننى متفق معك مرة أخرى، أجاب والد أليكساندرا وهو يرنو إلى الصحفى بعناية واهتمام. كانت لدى الأخير ثقة مطلقة فى أحكام صديقه وكان يعلم حق العلم أن ما قاله - بغض النظر عن الطريقة أو الأسلوب - قد ثبت دومًا أنه صحيح. إن الاضطرابات الأخيرة فى أكبر مدينتين فى مصر، وكذا فى الأقاليم، تفتح هوة سحيقة أمام جميع من يتعطشون للسلطة، كما أنها اضطرابات من شأنها أن تؤدى - كما سبق أن قلت - إلى نشوب ثورة أخشى أنها لن تتوان عن التفجر. قال الصحفى هذا ثم أخرج من جيبه قداحة فضية أخذ يشعل بها مرة أخرى غليونه الذى قارب على الانطفاء. وبمجرد أن جذب نفسًا أو نفسين من الغليون وتثبت من أن دخانه قد اشتعل جيدًا، استمر فى حديثه بالنبرة ذاتها: إن التحدى السافر والصارخ قد فاق كل ما كان قبله.

وهنا هز السيد كيريازوبولوس رأسه مظهرًا موافقته على ما قيل: أما رفيقه فأردف قائلاً بعد أن جذب مرة أخرى نفسين من

غليونه: إن الباشوات والوسطاء والوشاة والساسة المرتشين يسعون جميعًا إلى امتصاص دماء الشعب البائس المحروم والاستيلاء على الضروريات التى تقيم أوده... فماذا تنتظر؟.

ولكن على أية حال ليس هناك خطر علينا نحن اليونانيين.. أليس كذلك؟ إذ ليست لدينا المعتقدات ذاتها التى كانت للآخرين، قالت هذا والدة أليكساندرا بأسلوبها البرىء وبجمالها الأخاذ البادى على وجهها، وهى تدلف من باب المطبخ إلى الحديقة حاملة صينية فوقها كؤوس مملوءة بعصير المانجو.

عندك حق، أجابها الصحفى بهذا وهو يمد يده إلى الكأس المنعشة المقدمة له فوق الصينية بحيث تثير شهيته، ثم أردف قائلاً: شكرًا لك، يا مدام كيريازوبولوس. وهنا توقف لبرهة من الوقت وهو ينظر إلى كأس العصير التى يهفو إليها فؤاده ثم واصل حديثه قائلاً: ولكن عامة الناس لا يعرفون هذا. ثم رفع كأسه عاليًا وقال: فى صحتكم، فأجاباه: فلتنعم بالصحة!.

تجرع الصحفى نصف العصير الذى فى كأسه ذات المحتوى اللذيذ فى جرعة واحدة، ثم أردف قائلاً قبل أن يتبدد اهتمام الآخرين: وعلينا ألا ننسى أننا قد كنا نحن اليونانيين منذ العصر الهيلنستى السادة فى هذا البلد. وهنا فكرت أليكساندرا فى أن هذا القول يعد نوعًا من النقد الذاتى لم يسمعه أحد يقال إلا نادرا على فم مستوطن يونانى، ولهذا السبب أصغت إلى الحديث الدائر باهتمام أشد. ولهذا ينبغى علينا أن نأخذ حذرنا أكثر فى تعاملنا

اليومى مع أولاد البلد. خاصة حينما لا تتيسر لنا فرصة معرفتهم معرفة وثيقة وكذا فى أثناء انتقالاتنا وتحركاتنا. وأنا أهدى هذه النصيحة شفهيًا لأصدقائى ومعارفى، كما أكتبها على صفحات جريدتى. قال الصحفى هذا؛ وما إن ابتعدت والدة أليكساندرا لكى تحضر باقى الأطعمة للضيف، حتى انحنى الصحفى على صديقه وقال له وكأنه يسر إليه بسر من الأسرار: لقد علمت من مصادر وثيقة لا شك فى صدقها أن عملاء المخابرات الأمريكية موجودون هنا بالفعل، وأنهم يتباحثون مع تنظيم طليعى للضباط يسمون أنفسهم الضباط الأحرار[1]. ثم خفض من صوته بعد ذلك إلى درجة أشد وقال: إن واشنطن تعتقد أن هذا التنظيم قادر على أن يقوم بثورة أو انقلاب، أما أنا فأعتقد أن وجهة النظر هذه خاطئة تمامًا، إن لم تكن ساذجة..

وهنا حدجه السيد كيريازوبولوس بنظرة حافلة بالدهشة والاستغراب، أما الآخر فكان قرير العين مغتبطًا ومختالاً بمقدرته المهنية وبموهبته، التى تجعله دومًا عالمًا ببواطن الأمور وبالمعلومات ذات الأهمية الفائقة، ثم أردف قائلاً وهو يحس بقدر أكبر من الغرور: فى مواجهة التفسخ العام للنظام الحاكم والفساد المطبق - الذى ليست له حقًا بداية ولا نهاية - فإن هؤلاء (الضباط) لن يظلوا محايدين دون حراك... فالغضب يجيش فى كل مكان، يا صديقى

---

(١) وهو تنظيم الضباط الأحرار الذى بدأ تشكيله جمال عبد الناصر عام ١٩٤٥فى رحاب الأكاديمية العسكرية المصرية. (المؤلفة).

العزيز، كما أنه يغلى ويفور فى معسكرات الجيش وفى الأوساط العسكرية.. اليوم أكثر من أى وقت سابق. وأخشى ما أخشاه أن هؤلاء الضباط أنفسهم سرعان ما يرغبون فى الاستيلاء على مقاليد الحكم. وهنا أبدى والد أليكساندرا ملاحظة على هذا بقوله: إلا إذا عين الملك فى ضوء الانتخابات واحدًا من هؤلاء الضباط وزيرًا للحربية.

مستحيل!، قاطعه الصحفى بثقة ثم قال: قد يكون الملك شرهًا ونهمًا وزير نساء لا علاج له، ولكنه ليس أحمق. ولو أنه قرر أن يعين ضابطًا وزيرًا فإنه بالتأكيد سوف يختار واحدًا من بطانته المحبين للملق والتزلف. نطق بيريكليس أثاناسياذيس بهذه الكلمات، ثم أخرج منديله من جيبه ليمسح به وجهه الذى كان ينضح بالعرق. كان الجو حارًا وكان نهارًا قائظًا بدرجة لا تطاق منذ ساعاته الباكرة، منذ أن حل شهر يونيو بعنفوان نسماته الأولى الحارقة، وكانت فترة ما بعد الظهيرة لا تزال حارة. وحينما حلت السيدة المضيفة - مدام كيريازوبولوس - بطلعتها فى الحديقة مرة أخرى، كانت فى هذه المرة تحمل أطباقًا محلية لذيذة الطعم مشتهاة، كانت قد أعدتها منذ الصباح الباكر الخادمة العجوز التى كانت تعمل فى المنزل. وهنا فكر الصحفى فى تغيير الموضوع. حيث إن ما قيل من جانبه حتى هذه اللحظة قد خلق جوًا من التساؤل والحيرة والقلق. فأدار دفة الحديث تجاه موضوع أقل إيلامًا للنفس وأقل إثارة للقلق. فقال من فوره: إن الحرارة اليوم شديدة جدًا! أليس كذلك؟ لعلنا سنبدأ مبكرًا عن كل مرة فى تكبد المعاناة هذا العام!.

فضحك السيد كيريازوبولوس وقال: ألم تتعود على حرارة الجو بعد كل هذه السنين، يا صديقى؟. فرد عليه الصحفى قائلاً: إنه شىء لا يمكنك التعود عليه. وعلى فكرة: متى سوف تذهبون إلى الإسكندرية لقضاء العطلة؟. تركت السيدة مارينا الصينية على المائدة المستديرة الموجودة بين الرجلين، ورمقت زوجها بنظراتها ثم أجابت: عن قريب جدًا... نحن فى انتظار انتهاء ابنتنا أليكساندرا من أداء امتحاناتها النهائية.

يبدو أن البلاط الملكى سوف يسبقكم هذا العام.. فلقد أعدوا العدة للانتقال إلى القصر الملكى الصيفى!، قال الصحفى هذا وهو يضحك، ولا شك أن هذه العبارة الطريفة التى نطق بها الرجل قد بدت لهما فكهة مازحة جدًا، لأن كليهما انخرط فى الضحك بصوت عالٍ. أجل إن هذا حق... فنحن نبدأ دومًا وننتهى مع فترة العطلة المتاحة لنا، أبدت والدة أليكساندرا هذه الملاحظة، بعد أن شعرت فى أعماقها بأن إطراء الصحفى لها وبأن المقارنة التى عقدها بينهم وبين العائلة الملكية قد أرضت غرورها. وهنا قال الصحفى: ومتى ستؤدى امتحاناتها بالتوفيق والنجاح؟: قالت الأم: فى ظرف أيام قلائل، فقال الصحفى من جديد: وبماذا تحس؟: فقالت الأم: بالثقة فى النفس.. إنها تفكر فى أن تواصل دراستها العليا فى الجامعة. فما رأيك يا سيد أثاناسياذيس؟.

قال الصحفى: قرار ممتاز... فكثير من الفتيات الصغيرات لا يقنعن بالدور التقليدى النمطى للزوجة أو ربة المنزل ـ ألا ترين أنه

عصر تحرير المرأة ؟.... قال هذا ثم ضحك، وهنا تدخل والدها الذى كان شديد الإعجاب بابنته بطريقة تفوق الحد فقال: إنها حقًا هى التى سوف تبت فى أمر مستقبلها وتتخذ القرار فيما هو أفضل لها. فأقره الصحفى السيد بريكليس على ذلك بقوله: أجل! أجل!. وهنا أهلت أليكساندرا بطلعتها عليهم فى الحديقة، فقطعت بذلك النقاش الذى كان دائرًا عنها وعن اختياراتها ثم قالت: مساء الخير.

كانت ترتدى ثوبًا أنيقًا أبيض اللون كانت قد اشترته بمناسبة عيد الفصح هى ووالدتها من محلات شيكوريل، وكانت تبدو فيه بالغة الأناقة. أهلا بك، يا أليكساندرا. بهذا أزجى السيد بريكليس التحية للفتاة وهو يرمقها بإعجاب شديد، حيث إنها اليوم قد شبت عن الطوق وبدت فى نظره ناضجة وأكثر جمالاً عن ذى قبل. ومنذ المرة الأخيرة التى شاهدها فيها - وكان ذلك قبل أسابيع قليلة - غدا بوسع المرء أن يقول إنها قد تغيرت وزالت عنها تلك السحنة الطفولية المميزة للبنات وأصبحت بالفعل أنثى ناضجة. ثم أردف الصحفى قائلاً: أتصور أننا أزعجناك وقطعنا عليك استرسالك فى القراءة بثرثرتنا.. أليس كذلك؟.

ابتسمت الفتاة وتظاهرت بأنها طربت لكلمات الصحفى ونبرة حديثه، ثم قالت: إطلاقًا! إنك دائمًا شخص مميز، يا سيد بريكليس. وهنا قال الصحفى: كنا نتحدث أنا ووالدتك عن أن المرأة اليوم لا تسير وفق السلوك النمطى.. فنحن نجتاز عصرًا جديدًا. فما هو قولك، يا أليكساندرا؟. فأجابته الفتاة بطريقة شبه آلية:

أجل.. عندك حق.. فالأمور صارت على هذا النحو. فلم تكن لدى الفتاة أدنى رغبة فى أن تضيع الوقت فى مناقشة مملة حمقاء مع الصحفى. كان عقلها يهرع بها إلى مكان آخر.. كان يهرع بها إلى الضابط الوسيم عادل الذى كان ينتظرها على الجسر، وكانت هى قد تأخرت بالفعل عن موعدها معه. بعد ذلك التفتت نحو والدها وتظاهرت بالهدوء، وإن كان قلبها فى الحقيقة يدق بشدة بسبب نفاد صبرها، ثم قالت له: كنت أفكر فى أخذ استراحة من المذاكرة لزيارة أنجيليكى لوقت قصير لأطمئن عليها.

فى مثل هذه الساعة؟ قال الأب. ماذا عن هذه الساعة، يا والدى؟ إنها لم تبلغ السادسة بعد، احتجت الفتاة وحدجت والدها بنظرة زاخرة بالتهديد. إن الأحوال خطرة ولا تحمد عواقبها، يا أليكساندرا. وهذا ما كنا نناقشه للتو الآن مع السيد بريكليس، قال الأب هذا فصادق على كلامه السيد أثاناسياذيس بقوله: آجل! إنها الحقيقة... إن هذه الأيام تتطلب حصافة أشد ومزيداً من الحرص. كما أن فتاة شابة وجميلة مثلك لن تكون عاقلة ولا آمنة إذا سارت وحدها فى الطرقات وسط الأفارقة. ليست هناك مشكلة، ردت أليكساندرا بحدة على هذه النصائح التى قالها مُعَلِّقة بها على نبرة الرجل التى يظهر منها رغبته فى حمايتها، وإن كانت فى الحقيقة تخفى أنانية مفرطة وتنطوى على نوع من إملاء رغبته عليها. ثم استطردت قائلة: ومن ناحية أخرى فإننى لم أحس إطلاقًا بالخطر، فلقد ولدت وترعرعت وسط هؤلاء الأفارقة (المصريين)، كما تسميهم.

كانت لهجتها تبدو فى الآذان حادة، وهو أمر أدهش والديها اللذين لم يعتادا على صدور مثل هذا السلوك المستفز من جانب ابنتهما. للأسف فإن الخطر ليس مرئيًا بل يختفى عادة خلف الوجوه البريئة الحلوة، قام الصحفى بشرح وجهة نظره بجدية أكثر لكى يبرهن بها على صحة ما قاله، ثم أردف قائلاً: هل نسيت الجريمة البشعة التى حدثت فى مدينة الإسكندرية منذ وقت ليس بالبعيد؟.

فقبل شهور قليلة أقدم بواب شاب على اغتصاب فتاة يونانية فى منزلها ثم قتلها، وكانت هذه الفتاة تقيم فى العمارة التى يقوم البواب بحراستها. وعندما قامت الشرطة بالقبض على البواب اعترف الأخير بأن دافعه إلى قتل التلميذة الشابة كان الرغبة فى الانتقام من استغلال الأجانب وإساءة معاملتهم. لقد كان هذا تصرفًا فرديًا من جانب شخص مختل القوى العقلية. أجابت الفتاة بلهجة حادة وهى تتفادى أن تلتقى عيناها بنظرة والدها التى كانت تحثها على مزيد من التعقل والروية، ثم أردفت قائلة: وكان يمكن حدوث هذه الجريمة بكل تأكيد لأى سبب كان.

ومع ذلك فليس من المستبعد أن تحدث تطورات تنطوى على التذمر والاستياء من لحظة إلى أخرى. بادر الصحفى بقول هذه الكلمات ليهدئ من روع الفتاة. أيًا كان الأمر. فلا بأس إطلاقًا من أن نحتاط. تدخل الأب بهذه العبارة وهو يكبت غضبه، وإن كان قد

تضايق بما يكفى من أسلوب ابنته البارد المنطوى على الإصرار والعناد. ولم يكن يريد منها أن تمضى فى تحديها للصحفى وأن تحترم كونه ضيفًا فى منزلها.

سوف آخذ حذرى... أجابت الفتاة بهذا وقد ثبطت همتها وأرادت أن تنتهى بسرعة من هذه المناقشة المرهقة. إن أليكساندرا قلقة وعصبية فى الأسابيع الأخيرة، التقطت الأم خيط الحديث وهى تولى وجهها نحو الضيف، وكأنه كان لزامًا عليها أن تبرر بدورها سلوك ابنتها الخشن. والسبب فى ذلك هو هم الامتحانات، وكذا غياب صديقها قسطنطين كل هذا الوقت. ابتسمت الأم وهى تغمز لابنتها أليكساندرا، الأمر الذى جعل الفتاة تحس بمزيد من الضيق والاكتئاب.

حقًا! كيف حال الشاب؟ أعتقد أنه انتهى من دراسته هذا العام.. أليس كذلك؟ قال الصحفى هذا. أجل! لقد انتهى منها بالفعل. أجابت السيدة كيريازوبولوس بفخر ظاهر. وبالمناسبة، لقد حدثنى والد قسطنطين تليفونيًا صباح اليوم فى مكتبى. تذكر ذلك فجأة السيد كيرياكوس كيريازوبولوس ملتفتًا فى البداية إلى زوجته، ثم ناظرًا بعد ذلك باهتمام إلى ابنته، ثم أردف قائلاً وهو يومئ برأسه: إن الشاب سوف يكون هنا لمدة ثلاثة أسابيع لقضاء العطلة الصيفية. وقال إنه بعد أن ينتهى من دراسته الجامعية سوف يعود لكى يتولى إدارة مصنع والده.

ارتجفت أليكساندرا... إذ كانت قد نسيت تقريبًا أمر قسطنطين، ونسيت قبلة الوداع التى طبعها على شفتيها فى الظلام أثناء الاحتفال بعيد رأس السنة، وهى قبلة تؤكد عهدًا صامتًا لم تعبر عنه الألفاظ أو تصادق عليه. وطوال هذه الفترة التى انقضت والتى بلغت حوالى خمسة أشهر، لم ترسل له الفتاة سوى رسالتين أو ثلاث رسائل مقتضبة فاترة. متذرعة دائمًا بعبء الدراسة والمذاكرة. وفى الرسائل التى أرسلتها كتبت له عن أمور حياتها اليومية ببساطة، وتحاشت أن تشير فيها إلى أى أمر آخر فيما خلا مشاريعها وأهدافها فى دراستها الجامعية بعد ذلك. أما خطاباته لها فكانت حافلة بوعوده عن مشاعره تجاهها وباشتياقه العارم إليها. فكيف عساها أن تتصدى له إذن؟ وماذا عساها أن تقول له؟ كثيرًا ما فكرت وتمنت لو أنها تحدثت معه صراحة، لو أنها شرحت الأمر له.. فربما كان خليقًا بأن يفهمها. حقًا لقد كان قسطنطين مختلفًا عن سائر أقرانه من الشبان.. كان ذكيًا ومثقفًا، كما كان متدلهًا فى غرامها. فكيف يتسنى له إذن أن يبدى تفهمه لموقفها لو أنها حدثته عن رجل آخر فى حياتها؟ لقد حدثت أمور كثيرة منذ المرة الأخيرة التى شاهدته فيها، وما عاد إحساسها مشابهًا لما كان عليه آنذاك... لقد غدت الفتاة إنسانًا آخر مختلفًا تمامًا عن ذلك الإنسان الذى عرفه الشاب... وبالتأكيد فإن قلبها كان قد وهب لشخص آخر.

ما قولك، يا أليكساندرا؟، سألها والدها لينتزعها فجأة من أفكارها التى سيطرت عليها. ثم أردف قائلاً: ألا تشعرين بالسرور

لأن قسطنطين عائد فى النهاية إلى القاهرة؟ أجل! ترى كم من الوقت هو غائب عنا؟. حوالى خمسة أشهر، أجابت السيدة مارينا لتخفى الفراغ الذى نجم عن صمت أليكساندرا. إن خمسة أشهر مدة كافية من الزمن لشابين وصديقين حميمين... أليس كذلك يا بنيتى؟. أصر الأب على إكمال حديثه بلهجة ذات مغزى فى هذه المرة وهو يلفظ كلماته ببطء كلمة كلمة.

ولكن الفتاة أصرت على أن تقيم سياجًا بصمتها، وكأنها كانت خائفة من أن تهوى فى حفرة خطيرة وعميقة لو أنها تحدثت. إن قسطنطين خريسوستوموس غلام سيكون له شأن، ووالده واحد من مشاهير الجالية اليونانية. ولقد سمعت أن مصنعه للنسيج فى الآونة الأخيرة قد استولى على اهتمام السوق، أشار إلى ذلك السيد أثاناسياذيس بدوره ثم استطرد قائلاً: تخيلوا أن القصر الملكى قد أصبح عميله الوحيد! ففى الموسم الماضى وحده طلبوا من مصنعه ١٢٠٠ توب من أجود أنواع الحرير والأطلس!. وهنا صاح السيد كيريازوبولوس بصوت عالٍ وقد غمرته الدهشة: ١٢٠٠ توب! يا إلهى!، فرد عليه الصحفى بقوله: إن شذوذ الملك ليس له حدود، يا صديقى العزيز: وهنا ضحك الصديق بصوت عالٍ وقال: والأمر نفسه يصدق على محظياته وعشيقاته. ترى كم عدد النساء اللائى يضمهن القصر فى الحقيقة؟. سألت السيدة كيريازوبولوس بدورها: ومن ذا الذى يجرؤ على عدهن؟ أجابها الصحفى. سيحسن الملك صنعًا لو أنه وضع حداً لمظاهر القصف والمجون فى القصر الملكى، قال الأب هذا ثم قهقه الجميع ضاحكين.

كان على أليكساندرا أن تخرج بسرعة من المنزل، لكى تتحاشى هذه المناقشة المملة التى تثير الأعصاب، ولكى تتفادى أكثر نظرة والدتها الفاحصة التى لا ريب قد تشككت فى غياب حماس ابنتها عند سماع الأخيرة لأخبار عودة قسطنطين. فمنذ عيد الميلاد الذى انصرم فإن العائلتين اللتين مضى على تعارفهما الآن سنوات طويلة، ارتبطتا خلالها بروابط الصداقة والمحبة، قد تبادلتا فيما بينهما العهود الجادة والوعود المازحة والدعوات والأمانى بمستقبل مشترك واعد لنجليهما. وكان احتمال عقد المصاهرة بينهما موضوعًا تتم الإشارة إليه بمزاح على الدوام منذ أن كانت أليكساندرا وقسطنطين لا يزالان تلميذين فى المدرسة الابتدائية.. وكانت الفتاة فى بداية الصف الأول الابتدائى وكان الغلام فى الصف النهائى الابتدائى. والآن فها هى الفتاة تتصرف كما لو كانت لا تدرى شيئًا عن هذا، أو كأنها لا تأبه إطلاقًا بأمره.

ولكن صوت والدها الجهورى والقاطع أوقفها قبل أن تتمكن من الوصول إلى بوابة المنزل ذات القضبان الحديدية: من فضلك لا تتأخرى فى العودة، يا أليكساندرا!. فرجعت الفتاة من فورها وأجابت والدها بلهجة رقيقة لطيفة: سأعود بعد ساعة زمن.. أعدك بهذا. ثم استمر الحديث بينهم حول مجون الملك وملذاته وعشيقاته، أما أليكساندرا فكانت قد ابتعدت عن المنزل، وكانت كلمات والديها وكلمات الصحفى قد غدت خافتة خلفها مثل الألوان الباهتة فوق لوحة زهيدة الثمن.

وفى الحقيقة فإن كل شىء قد خبا بريقه بمجرد أن خلفته وراء ظهرها وسعت لتقابل حبيبها... لقد انمحى كل شىء من وعيها كما لو كانت الأشياء قد فقدت جوهرها وماهيتها. ولم يعد لأى أمر من الأمور التى أحاطت بها أو لفت فى غمارها حياتها اليومية الرتيبة، لم يعد لأى أمر مغزاه الذى كان له ولا معناه الثابت. أجل لا شىء على الإطلاق.. كل الأمور حولها أخذت تفقد قوتها وتضعف وتذوى، فيما خلا مشاعرها التى كانت تنمو وتكبر تجاه هذا الشاب.

(٥)

كان شهر يوليو متربعًا على عرشه وفى عنفوانه بلفحات حره ولهيبه وبالقيظ الذى يستمر طوال نهاره، جنبًا إلى جنب مع صعوبة التنفس، مما جعله لا يطاق وكأنه قطعة من العذاب. ولكن الحرارة الخانقة لم تكن هى التى أزعجت أليكساندرا وسببت لها اضطرابًا حادًا وسحقتها سحقًا. لقد كانت العاطفة التى شعرت بأنها اجتثت قلبها من جذوره منذ أيام قلائل هى التى غيرت بصورة جذرية حالتها النفسية ومزاجها.

وما إن انعطفت إلى زاوية الطريق حتى حثت خطاها وأسرعت، وأزجت التحية بتسرع إلى جارة لهم كانت تتصف دومًا بالفضول الذى يبعث على الضيق.. ألقت عليها التحية باللغة الفرنسية، ثم أومأت برأسها دون أن تتوقف للبقال الأرمنى الذى كان واقفًا أمام محل بقالته الواقع عند زاوية الطريق. كان لهيب الأسفلت ينفذ من خلال فتحات صندلها الجلدى ذى الألوان الفاتحة ويصل إلى باطن قدمها.

وعندما وصلت إلى الطريق الرئيسى كادت لفترة وجيزة أن تفقد اتزانها وأن تزل قدماها من فوق حافة الرصيف المرتفعة، وكانت على وشك أن تسقط فوق فرس أجرب كان يسير ببطء وتثاقل من فرط ثقل حمولته. ولكنها توقفت فى اللحظة الأخيرة وانتظرت حتى مر الفرس، فى حين وصل نفاد صبرها إلى ذروته. وما إن أفلح الحيوان الأعجم المتثاقل فى سيره أخيرًا فى الابتعاد بعربته الكارو، حتى هرعت الفتاة مسرعة لتجتاز الطريق، وقامت بعبوره فى تسرع ودون انتباه دون أن تلقى بالاً للسيارات التى كانت تجرى فيه من الجانبين. وأطلق سائق تاكسى نفيره فجأة أمام قدميها وكان على وشك أن يصدمها بسيارته، ولكن الفتاة لم تدرك شيئًا مما يدور حولها ولم تسمع كلمة من الكلمات التى انهالت من فم السائق الذى أصيب بالرعب والفزع، وكان السائق يخرج رأسه من نافذة السيارة وهو يصب لعناته على الفتاة وقد بلل العرق وجهه من فرط القيظ ومن شدة الرعب.

وكانت الفتاة - على أية حال - قد عبرت الطريق إلى الجهة الأخرى ومضت فى سيرها عبر الطريق الموصل إلى الجسر: وكان عقلها واهتمامها منصبين فى تركيز على مكان آخر... كانا متسمرين على وجه واحد دون سواه، على الإنسان الوحيد الذى هيمن على فكرها وسيطر على أحلامها. أعنى ليس فقط على تلك الأحلام التى تتراءى لها فى الليل... كانت الفتاة تركز على ذلك الشخص الذى سمح لذاتها أن تعصى لأول مرة صوت المنطق البارد، وأن تتجاهل قواعد السلوك السليم وأصوله التى تفرضه عليها

طبقتها الاجتماعية المحافظة، وأن تجتث الترهات المتأصلة فى بنى جلدتها وطبقتها... الشخص الذى غير حياتها وهزها من أساسها ودفعها إلى أن تراجع معتقداتها وإيديولوجيتها، وشق فى روحها طريقًا جديدًا مليئًا بالنور والإثارة والأحاسيس التى عرفتها لأول مرة.

كان هذا الشاب هو الإنسان الوحيد الذى غزا حياتها مثلما تهب النسمات المنعشة القادمة من البحر فتلطف من أثر قيظ الظهيرة فى الصيف، والذى ساعدها على إعادة النظر فى كل ما كانت تؤمن به حتى ذلك الحين، وعلى أن تتخلص من كل تلك الأشياء التى كانت قد تحصنت بها، وعلى أن تتحرر من كل ما كان قد انسكب فى روحها وفى عقلها عن الحياة وعن العشق وعن الحب.

خمسة شهور... خمسة شهور وهى بجواره، نجحا فيها سويًا فى أن يقلبا رأسًا على عقب كل ما يمت بصلة إلى الماضى، وأن يبطلا مفعوله فيصير هباء منثورًا، وأن يقوضا ذلك البناء القديم الذى كانت تحميه الجدران المظلمة طوال سنوات مضت.. جدران من التمييز العرقى والكبرياء والغرور والارتياب والتشكك. كانت قد مرت أيام منذ أن شاهدته لآخر مرة وكانت تحس بالقلق البالغ عليه. وفى المرة الأخيرة التى صادفت آخر يوم من أيام الامتحانات، كانت تنتظره بالقرب من الميدان وفقًا لما اتفقا عليه فى اللقاء السابق. كان قلب الفتاة يخفق بشدة ويدق داخل صدرها كالرعد مثلما كان الحال دائمًا من فرط الترقب والانتظار، ولكن عادلاً لم

يأت إلى ذلك الموعد المضروب بينهما، ومنذ ذلك الحين لم تعرف عنه شيئًا ولم يصلها منه شىء. فماذا عسى أن يكون قد حدث له؟ وماذا يا ترى قد جرى؟ كانت تتساءل على هذا النحو دون توقف، مثلما تتساءل الآن تمامًا، على حين كانت تحاول فى اللحظة ذاتها أن تهدئ من مخاوفها التى دأبت على أن تجثم فوق صدرها مثل الكابوس ومثل الوحوش المخيفة، التى كانت تتقاذفها كما لو كانت لعبة صغيرة الشأن.. لماذا لم ينتظرها الشاب خارج المدرسة كما وعدها؟ إنه لم يخلف أبدًا مواعيده معها ولم يحنث أبدًا بوعوده لها.

ومنذ ذلك الحين انقضى أسبوعان خالتهما الفتاة بلا نهاية، وكادت أليكساندرا أن تجن من فرط الشوق والحنين، خاصة أنها الآن قد انتهت من العام الدراسى بالمدرسة واقترب موعد رجوع قسطنطين، وكان أخوف ما تخشاه هو أن تفقد تمامًا خطى حبيبها ومعشوق فؤادها. وعندما جال هذا الخاطر بفكرها أحست بالرعب خوفاً من أن يسيطر عليها هذا الهاجس مرة أخرى. لقد ارتجف قلبها بعنف عند تفكيرها فى احتمال حدوث انفصال بينهما.

برغم أن الفتاة كانت تعرف منذ البدء أن هذه العلاقة القائمة بينهما لن يتسنى لها أبدًا أن تنجح أو أن تضرب بجذورها فى أرضية مشتركة، فإنها لم تأبه ولم تهتم لمثل هذا الأمر. كان يكفيها أن تراه وأن تكون إلى جواره وفى صحبته كلما سمحت لها الظروف بذلك؛ وكانت تغمض عينيها وتحكم غلقهما كلما تذكرت هذا الغد المجهول الذى لا تكترث به. من ثَم لم تكن اللقاءات الأخيرة بينهما

مثل لقاءاتهما الأخرى: إذ لم يقتصر الشابان على الملاطفات البريئة والوعود التى تبذل بغير لفظ، بل امتدا إلى اختلاس القبلات فى الطرق المظلمة والأزقة الضيقة الموجودة فى المناطق العشوائية.... فلقد كان الشابان منذ فترة من الزمن قد أنفقا وقتهما معًا فى مطارحة الغرام على هذا النحو متذرعين بالصبر أو متظاهرين به.

وتذكرت الفتاة مرة أخرى اللحظة المباركة التى تركت نفسها فيها للمرة الأولى - بعد أن قوضت دعائم جدار الخوف الذى لا يمكن النفاذ منه وهدمت الشكوك المحيطة به - تركت نفسها لتذوق سحر العشق بأسره بدون تردد فى مواجهة التعاليم العابسة التى يفرضها الوقار وتمليها الرزانة، وفى مواجهة الرفض والضغط المضاد للطبيعة على الشباب المتفجر بالحيوية وبالعواطف الجامحة. وبعد أن استعادت الفتاة فى ذاكرتها كل هذه الأفكار، كادت تحس مرة أخرى بلمسته وبعاطفته الجارفة التى كانت تشعر بها حينما يقوم بتمرير يده على شعرها، وبشفتيه حينما كانا يلتصقان بشفتيها: وحينئذ اصطبغت وجنتاها بلون أحمر قان من فرط الدماء التى اندفعت إلى وجهها، وهو أمر لا علاقة له حقًا بالخجل أو بالندم.

انبعث فى ذاكرتها مرة أخرى المشهد الذى يتعلق بيوم من أيام شهر مايو، ذلك اليوم الذى تبدلت فيه للمرة الأولى حياتها وتغير فيه عالمها النفسى تغيرًا شاملاً. وأخذت تفرد كتلة الخيوط المتشابكة المختلطة منذ البدء وتبسطها أمامها، وتحضر أمام عقلها كل حركة صدرت من عادل وكل إيماءة أو تقطيبة عابسة مهما كان

حجمها صغيرًا، وكذا رغبته التى كانت تجعل رغبتها تتوهج وتندلع. واستعادت فى ذهنها كلماته.. كلمة كلمة وجملة جملة، وكأنها كانت تريد أن تعايش مرة أخرى كل هذه الكلمات منذ البدء لكى يتسنى لها أن تجعل الشاب وكأنه موجود بالقرب منها.

كانت الفتاة قد قطعت مسافة الطريق عدوًا، إذ كانت قد تأخرت عن الموعد الذى تم الاتفاق عليه بينهما خارج حديقة متحف الشمع فى ضاحية الدقى، وكانت تخشى أن تتخلف عن موعدها. فلم تكن لتغفر لنفسها أبدًا هذا، ولم تكن لتتحمل الانتظار بدون أن تراه حتى المرة القادمة. وعندما بلغت أخيرًا قمة الطريق ووصلت إلى السور الحديدى الموجود قبل مسافة قصيرة من مدخل الحديقة، توقفت لتلتقط أنفاسها. وهنا رأت حبيبها وهو يذرع الطريق جيئة وذهابًا بعصبية أمام الباب الصغير ورأسه منحنية إلى أسفل.. كان يبدو عليه القلق وأمارات التفكير وكأنه كان يحدث نفسه.

لقد تأخرتِ!، قال لها هذا بوضوح وقد بدت عليه علامات الارتياح بمجرد أن لمحها، ثم استطرد قائلاً: لقد اعتقدت أنك لن تأتى وجعلنى هذا أشعر بالقلق والانزعاج. لم تفلح الفتاة فى الإجابة عليه فى التو، فقد كانت تلهث وكان جنبها يؤلمها. لقد رحلتُ عن المنزل بمجرد أن استطعت إلى ذلك سبيلا.. فقد عهدت إلىّ والدتى بأداء عمل معين ولم أفلح فى الرحيل إلا بعد أن أديته. أجابته الفتاة بهذا التفسير بمجرد أن عادت أنفاسها إلى الإيقاع المنتظم واستعادت هدوءها، ثم استطردت قائلة وهى تبتسم: والآن.. أنا ها أنذا بجوارك.

ولكن نبرته مع ذلك ظلت نبرة غريبة، أما نظراته فكانت غامضة ومضطربة. ومن ثم ضغط على شفتيه فى الوقت الذى بدأت فيه انعكاسات حزينة تظلل بريق عينيه وتضع عليهما سحابة غائمة.. كان من الواضح أن هناك أمرًا جادًا يشغل باله ويقض مضجعه. تبدو متأملاً شارد الفكر.. فماذا حدث لك؟، سألته الفتاة والقلق يعصف بها ويعتصر روحها بأسرها بطريقة شديدة الوطأة. تناهت إلى سمعها قهقهة تشبه إلى حد بعيد صرخة غضب قبل أن يقول الشاب لها: فى كل مرة كنت تتأخرين فيها، أظن أنك ندمت على التورط فى علاقة معى أو أن والديك قد اكتشفا علاقتنا، وأننى لن أشاهدك مرة أخرى...

ابتسمت له الفتاة من جديد وكأنها تتشاحن معه مرة أخرى بطريقة مازحة لتلومه على مخاوفه غير المبررة، ولكنها لم تقل شيئًا ولم تعقب على ما قاله. ثم تأهبت لتدخل حديقة المتحف، ولكنها ما إن سبقته إلى الدخول حتى توقف وأطبق على معصمها بقوة ثم قال لها: انتظرى من فضلك!. ماذا حدث؟ ألا تريد أن ندخل إلى الحديقة؟، سألته الفتاة وهى غير مرتابة على ما يبدو فيما كان يدور بعقله آنذاك. تطلع الشاب بإصرار إلى عينيها وكأنه كان يبحث داخلهما عن إجابة شافية واضحة عن سؤال لم تطرحه عليه بعد.

قطبت الفتاة ما بين حاجبيها وسمرت نظرتها على عينيه فى محاولة من جانبها لفهم ما حدث له بالضبط، ولمعرفة هذا الأمر

الذى كان يشغله ويظفر باهتمامه؛ وظلت ترقبه باهتمام بالغ وتمكنت من أن تلمح تلك الشعلة الخافتة التى كانت تختلج فى عينيه أثناء لقاءاتهما الأولى والتى كانت تهدد بأن يخبو بريقها من لحظة إلى أخرى. وبدا لها كأن هذه الشعلة قد اشتعلت من جديد فى أعماق عينيه، وإن كانت هذه المرة تبدو أكثر ضعفًا. فتح الشاب فمه لكى يشرح لها ما يرومه ولكن شفتيه ارتجفتا للحظة واحدة فقط، ثم من بعد ذلك ـ وكأنهما شعرتا بالندم ـ عادتا مرة أخرى إلى الانقباض.

ماذا يحدث لك؟، سألته الفتاة مرة أخرى وقد ازداد قلقها ونما اضطرابها. ثم استطردت قائلة: لماذا لا تتكلم؟. ولكن الشاب ظل مع ذلك يرمقها بتلك النظرة الغريبة، وكأنه يتوسل إليها طالبًا منها شيئًا لم يكن واثقًا منه تمامًا، أو كأنه لم يكن يجد الكلمات المناسبة لكى يعبر لها عنه. ثم من بعد ذلك زفر الفتى زفرة عميقة خالتها تنهيدة حارة ومد يده إلى جيب سترته وأخرج منه مفتاحًا قديمًا اعتراه الصدأ. ما هذا؟، سألته الفتاة وهى فى حيرة من أمرها. فقد بدا لها شكل المفتاح وحجمه غير مألوفين، إذ لم تر من قبل ما هو مثيل لهما.

لكن الشاب لم يجب على الفتاة، وكان امتناعه هذا من الرد جنبًا إلى جنب مع نظرته الغامضة باعثًا لها على الشك والارتياب بصورة أشدّ. فعادت الفتاة لتكرر سؤالها بإلحاح: ما هذا؟... إنه مفتاح دهبية (أى عوامة)، أجاب الفتى أخيرًا عليها. وجاءت إجابته ضعيفة

فاترة تكاد تكون خالية من حرارة الحياة؛ قال هذا وهو يخفض من ناظريه وكأنه يروم أن يخفى عن الفتاة نظرته المذنبة. بوغتت أليكساندرا بما قاله الفتى وغمغمت بقولها: دهبية!.

كان تحاشى الفتى النظر إليها وجهًا لوجه قد ساعد الفتاة على فك طلاسم رسالته لها بسهولة بالغة. وهنا تغير التعبير الذى كسا محياها فجأة فغدت أميل للانتقاد بحدة، وكان من نتيجة ذلك أن تبدلت تقاطيع وجهها الجميلة. إنه ليس مفتاحى... لقد أعطاه لى أحد الأصدقاء...، بادر الشاب بالتفسير. ثم توقف لبرهة قصيرة لكى يطلع على خبايا نظرتها ثم استطرد قائلاً: إنه متغيب فى سفرة ينجز فيها أعماله، ولقد تنازل عنه اليوم.... وعندما تطلع الفتى إلى ملامح الفتاة وأحس بعنادها وتصميمها رفض الاستمرار فى الكلام. لم يكن يطلب منها أن تتبعه ولم يجرؤ على أن ينبس ببنت شفة، وكل ما كان يأمل فيه هو أن تتفهم موقفه وتقبل دعوته... كل ما كان يبغيه هو أن تحس بعذابه وبانقباض معدته المستمر وبالنار المستعرة التى تحرقه. ولكن عندما غدت ملامحها تنذر برفض قاطع أحس باضطراب وهلع، فقد خاف من أن يفقدها وأسرع لكى يقول لها بتعبيرات صريحة تنطوى على الندم: أرجو أن تسامحينى وتغفرى لى، فلم أقصد إهانتك.. وأقسم على هذا.. صدقينى.

ولكن الفتاة استمرت على صمتها، وطفقت ترمق الشاب وملامحها زاخرة باللوم والعتاب. لقد أردت فقط أن نوجد فى مكان

هادئ أنا وأنت وحدنا، بعيدًا عن عيون الآخرين الفضولية التى تتسمر فوقنا فى كل مرة.....، استمر الشاب فى الكلام وهو خجلان. أحست الفتاة برغبة فى أن تؤنبه وتوبخه على تصوراته المندفعة غير الحصيفة وغير المحسوبة. لماذا جرؤ على أن يضعها فى مثل هذه الورطة؟ وفى هذا الخطر الجسيم والشك العاصف؟ ولكن عبوسه الدال على الندم وملامحه التى كساها التقطيب قد كشفا لها عن الصراحة التى اتسمت بها كلماته، وبددت فى لحظة رغبتها فى الشجار معه. فخفضت من أبصارها لبرهة من الزمن ثم عادت لتسمر نظرتها عليه فى إصرار. كان الشاب قد امتقع لونه، وكانت علامات الندم وطلب الصفح قد ارتسمت على وجهه وانطبعت عليه بوضوح، وبدا كما لو كان طفلاً صغيرًا يقر بخطئه ولكنه لا يعرف كيف يصلحه.

أنا لم أقصد إهانتك... هذه هى الصراحة!، كرر هذه العبارة وهو يتمتم بها، وكانت نظرته زاخرة بالاستعطاف. هذه هى الصراحة!، وبحركة تلقائية أخذ الفتى وجهها بين راحتيه ثم أحنى هامته. وظل ممسكًا بوجهها إلى أن داعبت أنفاسه الحارة شفتيها، ثم تمتم متلعثمًا وهو يستعطفها وقال: أتوسل إليك أن تقبلى عذرى وآمل أن تصفحى عنى.

وعندما ذابت الفتاة فى صفاء ملامحه وفى بحر عينيه الرماديتين، شدت انتباهها حركة غريبة حدثت عن يمينها: فالتفتت

برأسها وحذا الشاب حذوها بحركة غريزية وتابع نظرتها بحركة متزامنة خالية من الارتياب. وهنا أيقن الفتى أن كليهما قد أصبح مركزًا لاهتمام المارة العابرين، وخاصة اهتمام مجموعة صغيرة من النسوة اللائى خرجن لتوهن من الحديقة مع أطفالهن الصغار؛ كن قد توقفن وقد بلغ بهن الفضول مداه على مسافة قصيرة من الشابين، وطفقن يتطلعن إليهما ويرمقنهما بنظرات فضولية وهن يتبادلن كلمات فيما بينهن. برغم أن هذه الكلمات لم تكن تسمع بوضوح، فإن أليكساندرا كانت واثقة تمام الثقة أنها كانت كلمات تقطر بالاستياء والحنق، وربما بالاستنكار جراء هذا التصرف المستفز من جانبهما فى مكان عام.

وفجأة أحست الفتاة بعصبية حادة تتملكها وتسيطر عليها، ولم تكن تدرى أى شىء بالتحديد هو الذى ضايقها أكثر من سواه. ترى هل كان هذا الشىء هو رد فعل النسوة ونظراتهن التى بدت وكأنها تنهشها نهشًا؟ أم ترى كان هو عرض عادل المتهور - برغم أن صياغته أو التعبير عنه لم تحدث توًا؟ أم ترى هل كانت هى واثقة من رفضها لعرضه قبل أن يقدم لها هى نفسها دليلاً مقنعًا؟ ولكن أى نوع من الأدلة كان بوسعها أن تفتش عنه فى أعماق عقلها، طالما أن وجودها كله - كما هو العهد به دائمًا - كان يصرخ برغبتها فى أن تتبعه بلا أدنى مناقشة؟ وما لبث خوفها أن فقد حدته مع الوقت كما تناقص ترددها وتسويفها فى اتخاذ القرار. فكيف يمكنها أن تمضى فى مقاومة هذا الشاب؟ لا! لم تكن لديها القوة على أن ترفض عرضه بأى حال من الأحوال، ولا المقدرة على أن تقاومه: إنها لم تكن تقيم وزنًا لأى شىء من أجل خاطره.

أين هى؟، سألته الفتاة فجأة.. فبوغت الشاب وقال: ماذا؟.. قالت: أين توجد الدهبية؟. رمقها الشاب وقد غمرته الحيرة ثم قال: هنا.. هنا قريبًا!... قالت الفتاة: أريد أن نذهب إليها.. قال الشاب: أليكساندرا!: قالت الفتاة بإصرار: أريد أن نذهب إليها. استعادت الفتاة هذا الحوار السريع فى عقلها منذ ذلك الحين آلاف المرات، بمثل ما كانت تستعيده الآن وهى تحملق فى مياه النهر التى بدأت تزيد وتفيض لحظة بعد أخرى، بمثل ما يزيد القلق داخل صدرها. فخلال زمن قصير سوف تتحرك مياه النهر باندفاع أشد إلى أن يحل شهر أكتوبر، وآنذاك يمتلأ النهر حتى حافته ثم تفيض مياهه خارج الضفتين. وسوف تجرى أمواجه المزبدة بصورة تنطوى على التهديد وهى تحمل فى طياتها الطمى والغرين على الضفتين.

كانت قد وقفت على منتصف الجسر لكى تلتقط أنفاسها ولكى تستريح وتهدئ من ثائرتها... كان ريقها قد جف وكان قلبها يدق بضربات مخيفة لم تنتج فقط من عجلتها فى سيرها أو من عدوها. ارتكزت بمرفقيها على سطح سور الجسر الحديدى الذى كان ناعمًا ودافئًا بتأثير حرارة الشمس، وضغطت فكها بقوة بكامل قبضتيها، وكأنها كانت تحول بين رأسها وبين السقوط بفعل ثقل أفكارها. ثم من بعد ذلك أطرقت برأسها ووجهت ناظريها إلى أسفل نحو مياه النهر وكأنها تبحث فيها عن الإجابات التى عذبتها طوال هذا الوقت كله. غير ان منظر النهر ـ كما هو الحال دائمًا ـ قد خفف عنها ولطف من أحاسيسها ورطب روحها وجعلها تقر عينًا.

وعندما لفت رأسها صوب الضفة الغربية للنهر، انجذبت نظرتها نحو العوامات الطافية الساكنة فوق صفحة مياه النيل.. فداعبتها بنظرتها وتذكرت تلك الذهبية التى غدت ملاذًا ومأوى وشاهدًا صامتًا على عشقها للشاب الوسيم. كان الجزء الخارجى من العوامة الخالى تقريبًا من الأثاث يشهد على الهدف من اتخاذها سكنًا. وكانت رائحة الملوحة المنبعثة من المياه ومن الرطوبة ـ التى تنشرها حوائطها الخشبية المتعبة ذات الأعوام الطوال، والتى كانت قد تعفنت فى مواضع كثيرة، بحيث غدت تسمح لضوء الشمس القوى بالدخول عبرها بدون عائق ـ كانت هذه الرائحة قد اختلطت مع رائحة الكولونيا التى وضعها الشاب على وجهه ومع عرقه الممتزج بالملوحة: فى حين كان صدى صوت لطمات الأمواج الناعمة ـ التى كانت تتكسر فوق القوائم الخشبية القديمة التى تقف فوقها العوامة ـ يتردد فى أذنيها حتى الآن ويتكرر على التوالى فى رتابة... لقد تمثل المشهد أمام ناظريها مرة أخرى مثلما حدث آنذاك دون أدنى تغيير.

أخذت الفتاة تنقل أنظارها فى المكان مرة بعد مرة لتسجل فى ذاكرتها كل كبيرة وصغيرة فيه، وبالأحرى لكى تدارى حيرتها وارتباكها الأجوف، ولكى تكسب وقتًا قليلاً إلى أن يفتر قلقها وتعتاد على تقبل استمرار هذا الوضع، ولكى تسيطر على الاضطراب الذى كان يغمرها ويهيمن عليها. وعلى أية حال، فلقد جاءت بمحض رغبتها وبكامل موافقتها، ولن تدع عذابها واضطرابها يدمران تلك اللحظة الساحرة.

وعندما فهم عادل فيما بعد حالتها النفسية اقترب منها ببطء وبحرص - مثلما يقترب عالم الفيزياء من اكتشافه النادر المجنح - ولكنه حافظ على مسافة معقولة منها؛ ثم ترك لحظات بعينها تمر وتنقضى قبل أن يحاول تهدئة مشاعرها وقبل أن يلطف من مخاوفها ومخاوفه بابتسامة نصف باهتة تكاد تكون مرتجفة، جاهد وقتًا كافيًا لكى يحافظ على بقائها متزنة. كان كل منهما يقف الآن بالفعل فى مواجهة الآخر ومسافة قصيرة جدًا تفصله عن حبيب قلبه، أمام أريكة ذات ألوان باهتة، وشرع كل واحد منهما يحملق فى عينى زميله كما لو كان يريد سبر أغواره أو فك طلاسم أفكاره الخفية الدفينة.

وكان الشاب هو أول من كسر حاجز الصمت الأصم الذى انتشر لواؤه بينهما مثل السور الزاخر بالأشواك، وكان حديثه مشوبًا بلهجة لطيفة مهدئة وبألفاظ كان ينتقيها بعناية، وكأنه كان يوجهها لنفسه أكثر مما يوجهها لها، وكان يبرر بها لها مرة أخرى ما يعتلج بفكره، ويشرح لها الأسباب التى دفعته إلى اتخاذ هذا القرار. وكان من الواضح أن الفتى أراد أن يدافع عن وجهة نظره وأن يعزز أفكاره وأن يبرئ ساحته فى الوقت نفسه، لأنه استدرج الفتاة إلى مثل هذه الفعلة الجسورة للغاية. فلم يكن يصح فى رأيه أن يقوما بارتياد الحدائق والبساتين أو الطرق المظلمة المجهولة الكائنة فى الضواحى الشعبية، لكى يتبادلا القبلات خلسة فى الأركان المعتمة الموجودة فى الأزقة والدروب الضيقة أو القائمة فى الأركان المعتمة للمنازل العتيقة الآيلة للسقوط... لقد كانت هذه التصرفات وأمثالها مثيرة لغضب المارة العابرين وخطرة عليهما فى آن واحد.

قال لها هذه الأشياء كلها وكان يعنيها.. ومن ناحية أخرى كانت الفتاة نفسها قد فكرت مرارًا وتكرارًا طوال المرات التى كانا يسيران فيها بلا نهاية ويرجعان منها وقد تورمت قدماهما من التعب، وصارت آلامهما أشد هولاً من انتظار مسيرتهما التالية. لقد انقضت أربعة شهور كاملة على هذا المنوال الذى عذبهما والذى كان ينطوى على خطر محدق لكليهما.

كان كلاهما ينطلقان باندفاع ومخاطرة مثلما تندفع المياه فى مجرى نهر هادر إبان الفترة الأخيرة من فصل الصيف. ثم أضاف الشاب بعد ذلك بلهجة كشفت بجلاء ووضوح عن نقاء فكره وصراحته المتسمة بالبراءة - أجل! لقد كانت واثقة من هذا كل الثقة - أضاف أنه لا يريد شيئًا ولا ينتظر شيئًا. وحسبه أن يحتضنها بقوة فى صدره وأن يشم عبير شعرها الحريرى، وأن يحس بأنفاسها وهى تتردد بين كفيه... أجل إنه لا يريد شيئًا أكثر من ذلك. وعندما أزاح الشاب تردده جانبًا وطرح عنه شكوكه، مد كلتا يديه نحو الفتاة واقترب منها مسافة أخرى، وهو يتمنى من أعماق قلبه أن يجد القوة التى تجعله يسيطر على مشاعره وأن يحافظ على وعوده لها. كان يروم فى الحقيقة - والله شاهد عليه - أن يظهر لها صدق كلماته ووعوده. كان يبغى فقط أن يحتضنها بين ذراعيه من غير أن ينظر وهو مرتعب حوله أو خلفه... لم يكن يبغى شيئًا أكثر من ذلك. بيد أن لمسته الخجولة الزاخرة بالحياء - مع ذلك - ما إن وجدت من الفتاة على حين غرة استجابة زاخرة بالحرارة، وما إن وجد خوفه

ما يناظره لديها من ترقب واشتياق، وما إن تحول رفضها المبدئى إلى قبول فجائى تلقائى طيع، حتى تناغم جسدها الزاخر بالحيوية بطواعية كاملة لنغمات جسده الذى كان يرتجف من فرط العاطفة المشبوبة. هيمن الشوق العارم على الشابين الزاخرين بالبراءة، وغدت المداعبات المرتجفة نارًا تتلظى ولهيبًا لافحًا يلفهما معًا، ويأخذهما إلى مدى لا يمكن التحكم فيه.

استسلمت الفتاة لراحتى الشاب وغابت عن وعيها بين أحضانه دون أدنى مقاومة: أما هو فلم يعد قادرًا على أن يتراجع أو ينكص على عقبيه أو يتحكم فى رغبته أو فى نفسه أو فى ظمأه، بعد أن واتته الشجاعة لتجاوبها الجسور معه واستحسانها الواضح لكل ما يفعله: فحنث بوعده لها وطفقت أصابعه تتلمس جسدها المخملى بشراهة، وراحت أنامله تتحسس كل بوصة فى جسدها المشتاق إليه. كان يتحسس وجهها مثل الأعمى ويتحسس بأصابعه بشرة عنقها وكتفيها العذراوين المصقولتين، كان يجوس بخشوع فى طرقات معبدها المقدس وقلبه يخفق شاكرًا بنوال هذه النعمة، بينما كان جسده يهتز بعنف من فرط الاشتياق مثل العابد المتبتل الذى ينذر نفسه بكاملها للعبادة.

خضع العاشقان الشابان لضعفهما المتبادل ونبذا كل فكرة للمقاومة وكل ما كان يحول بينهما وبين رغباتهما، وبينما كانت لمساتهما المستمرة قد غدت فائقة الجرأة، انزلق كلاهما إلى ذلك

التيار المندفع للعواطف المشبوبة المتبادلة وتركا نفسيهما لتدفق المشاعر الذى لا سبيل إلى السيطرة عليه، وفقدا كل إحساس سوى ذلك الإحساس الجارف الهادر الذى يحسه جسد ما حينما يؤول إلى ملكية جسد آخر.. جرفت موجة من الإثارة الفتاة فأغلقت عينيها وكأنها كانت تروم محو هذه الصورة من عقلها، لا لأنها كانت تشعر بالخجل - وربما كان الأمر يرجع إلى ذلك - ولكن لأنها لم تتحمل التأثير العاطفى الذى أوجدته هذه الصورة فى روحها، خاصة الآن وهى موجودة بعيدة عن الشاب ولم تكن تعرف ماذا كان يعنى غيابه بالنسبة لها.

ثم من بعد ذلك قدحت زناد فكرها لكى تتذكر الكلمات التى كان قد همس بها فى أذنيها قبل أن يزجى لها التحية فى مقابلتهما الأخيرة، واستعادت هذه الكلمات مرة بعد مرة علها تكتشف فيها شيئًا يمكن أن يعينها على التنبؤ، أو على ما يمكن حدوثه... ولكن عبثًا وبلا طائل. كانت كلمات الفتى حافلة بتأكيدات عن عشقه لها وكان تعبيرًا عن امتنانه الفائق الذى بلا حدود لها.

وعندما وصلت الفتاة إلى الكورنيش - وهو الطريق الممتد على طول ضفة النيل - توقفت من جديد لبرهة قصيرة، وكان توقفها هذه المرة من أجل أن تشترى من أحد الباعة الجائلين قرطاسًا صغيرًا من الترمس المملح الذى كانت تحبه صديقتها أنجيليكى. بعد ذلك توقفت عند قمة الطريق وحاولت عبوره إلى الناحية المقابلة، كان الطريق يعج بالحركة ولم يكن لدى الفتاة المزيد من الصبر، إذ كانت تتوق إلى الوصول إلى بولاق فى أقصر وقت ممكن.

جلست الفتاة قليلاً فى منزل صديقتها، وكانت الذكريات جنبًا إلى جنب مع اختفاء عادل، الذى لم تجد له تفسيرًا قد تسببت فى إصابتها بالإرهاق، للدرجة التى لم تنتبه فيها إلى الكلمات التى كانت تقولها لها أنجيليكى؛ وكانت صديقتها تعبر لها عن قلقها بسبب صحة والدتها. كان اهتمام الفتاة مركزًا على الأصوات التى يمكن أن تنبعث من الشقة المجاورة (التى كانت سكنًا لحبيبها عادل). ولسوء حظها لم تسمع شيئًا ولم يتراء أمام ناظريها أى شخص، فى أى مكان من العمارة أو فى الطريق. وقفلت الفتاة عائدة أدراجها إلى منزلها وهى تجر قدميها جرًا جراء عذابها ويأسها.

(٦)

واستيقظت الفتاة من نومها وقد كساها العرق بسبب كابوس اعتراها، وما أن استردت وعيها حتى نهضت من فراشها وألقت بالماء على وجهها، ونفضت عن روحها بقايا هذا الحلم الرهيب ثم ارتدت ملابسها بسرعة وبدون اختيار. كانت قد مرت أيام قليلة على ذهابها إلى منزل صديقتها أنجيليكى، وكانت قد عقدت العزم على زيارتها فى منزلها مرة أخرى اليوم. ولو كانت محظوظة فربما أتيح لها هذه المرة أن تلتقى بحبيبها فى الطريق الضيق، أو على السلم، أو فى الممر المؤدى للطابق الذى تقيم فيه صديقتها، أو عند مسكن البواب. كانت تأمل فى حدوث ذلك وكانت تتمناه من كل قلبها.

عبرت الجسر مرة أخرى - لم تكن تتذكر عدد المرات التى قطعت فيها هذه المسافة التى لا تنتهى إبان الأسبوع الماضى - عبرت الجسر متجهة صوب حى بولاق، وكان قلبها يخفق بعنف من فرط تباريح شوقها المهلك، ومن فرط أملها وانتظارها. وكانت نبضات قلبها تدق بعنف وتزداد فى كل مرة كانت ترى فيها شخصًا يقترب، وكانت تشعر بأن قلبها قد اقتلع من مكانه. ثم بعد أن تتيقن من أنه ليس هو ذلك الشخص، كانت تحس أن روحها قد غادرت أعماق جسدها، وأنها تلتقط أنفاسها بصعوبة بالغة.

كانت امتحانات التخرج آخر العام قد انتهت منذ ثلاثة أسابيع، وكان عقلها خلال هذه الأسابيع يشرد دائمًا ويذهب بها إلى مكان آخر، فى حين كانت آلاف الأفكار السلبية المسببة للعذاب تمر خلاله فى كل لحظة. ولقد سبب حزنها ونقص حماسها ومزاجها الحاد القلق لوالديها، فكان أحدهما يقول للآخر بمجرد ابتعادهما عنزما: ليس هناك من سبب يحدو بها إلى فعل ذلك، خاصة الآن بعد انتهاء ما هو صعب عسير، وفى ضوء أن قسطنطين سوف يعود مهما كان الأمر!.

كان ينبغى عليها إذن أن تهدأ وأن تستجمع قواها أكثر وأن تهدئ مخاوفها. ولكنها لم تكن لتفلح فى ذلك ما لم يتسنّ لها رؤيته ومقابلته. وما لم تتيسر لها معرفة ماذا حدث له. فجعله يغيب عنها ويختفى كل هذه الأيام بدون تفسير وبدون سبب. وعندما وصلت الفتاة إلى الزقاق الذى ترتفع فيه العمارة، التى تقيم فيها صديقتها

أنجيليكى والتى يقيم فيها حبيبها عادل، توقفت عند متجر شعبى لتشترى قليلاً من البلح لصديقتها لعلمها أنها كانت تحبه جداً، ولتشترى كذلك زجاجة كولونيا تمارا لوالدتها. وبعد ذلك - وكأنها كانت تريد أن تتمهل قليلاً عساها تلتقى به فى الطريق أو تراه وهو خارج من باب العمارة - توقفت لبرهة من الوقت أمام فترينة محل صائغ وطفقت تتفحصها بعينيها لمدة من الزمن، دون أن يبدو لحبيبها أثر.

خرج الصائغ من محله على الفور وسألها وهو متأهب لخدمتها: هل تريدين شيئًا ما، يا آنستى؟. لا! لا! إننى أتفرج فحسب، أجابته الفتاة بحسم وهى تتقهقر خطوتين إلى الخلف، وكأنها مثل خيال مرتعش يرتسم فوق حائط يغمره الضوء، ثم توقفت لبرهة أخرى من الوقت فى الطريق، ولكن تمهلها المستمر لفت أنظار المارة العابرين فتسمرت عيونهم فوقها... وهنا دلفت مسرعة إلى بوابة المنزل.

وفجأة سمعت دبيب خطوات ثقيلة تهبط درجات السلم، فدق قلبها بعنف مرة أخرى بعنف بالغ مثل ضرب اللكمات، فضغطت بيدها على صدرها بتلقائية. لكن الرجل الذى كان يهبط درجات السلم لم يكن هو عادل، بل كان رجلاً متوسط العمر ابتسم لها وهو يزجى إليها تحية المساء، ثم أفسح لها الطريق برقة لكى تمر. أطلقت تنهيدة عميقة ثم واصلت صعود درجات السلم على مهل درجة درجة. وما إن وصلت إلى الطابق الثانى حتى وقفت خارج باب شقة أنجيليكى لبرهة من الوقت قبل أن تدق الجرس.

كان الهدوء الذى يغمر الشقة المجاورة لشقة صديقتها يبدو لها غريبًا، وبعد برهة قليلة فتحت لها أنجيليكى الباب فتبخرت بذلك آخر آمالها فى رؤية حبيبها على سبيل الصدفة، وكان هذا هو ما قررت قوله له لو أنها التقت به. لم تبق طويلاً فى منزل صديقتها، حيث إن الوقت بدا لها طويلاً وبلا نهاية، كما بدا لها الموقف أكثر مجلبة للعذاب من المرة الماضية، حينما ضجرت للغاية من هذا المنزل للسبب ذاته. ومرة أخرى لم تستمع إلى صديقتها أنجيليكى وهى تحدثها عن مخاوفها الخاصة بتطور مرض والدتها، التى كانت طريحة الفراش طوال الشهور الماضية وكانت تعانى كثيرًا من مرضها، كما قالت لها صديقتها إن حالة والدتها كانت تتفاقم يومًا بعد يوم... وكان الشىء الوحيد الذى فعلته أليكساندرا هو أنها كانت تهز رأسها مبدية موافقتها ما بين الفينة والأخرى، لتؤكد لصديقتها أنها تصغى إليها بعناية؛ وإن كانت لم تنتبه البتة للحالة المزرية التى آلت إليها صديقتها أنجيليكى التعسة. كانت أنجيليكى قد صارت نحيلة للغاية، كما فقد وجهها الجميل بريقه ونضارته: فبفعل الإرهاق والتعب وطول السهر، صار وجهها الآن وجه إنسانة متقدمة فى العمر كالنسوة التعسات اللاتى بلغ منهن الإرهاق مداه.

ومثل المرة الماضية ظلت أليكساندرا عند صديقتها لكى تسترق السمع إلى الأصوات المنبعثة خارج باب شقتها. وكانت أليكساندرا تبدو منومة وبدا كأن عقلها قد فارق جسدها، وغدا يحلق ويتأرجح خارج المنزل عبر الطريق، أو فى الممشى الخاص بالطابق الذى تقع

فيه شقة صديقتها. كانت ترتجف عند سماع أى صوت علا أم خفت وكانت تنتفض وتهب واقفة. كما كان قلبها يستسلم من جديد للانقباض المؤلم والدقات العنيفة التى تشبه صوت ضرب اللكمات. وبعد ذلك حينما أيقنت أن الأصوات كانت تنبعث من شقق أخرى. استسلمت للهدوء لفترة من الوقت حتى سماع صوت آخر، سواء كان صوتًا حقيقيًا أو كان صوتًا ناجمًا عن تخيلاتها وأوهامها. وعندما حلت عليها لحظة لم تعد تحتمل فيها انتظار هذا العذاب الفظيع. هبت واقفة وقالت لصديقتها أنجيليكى إنه يجب عليها الانصراف وإنها سوف تعود مرة أخرى سريعًا، ثم وقفت خارج باب الشقة للحظات معدودة وهى ترفع صوتها وعقيرتها أثناء تحيتها لصديقتها، على أمل أن يسمعها عادل لو كان موجودًا بالصدفة فى شقته. ولكن لم يخرج أى شخص من الشقة المجاورة ولم يسمع أى صوت أو يتردد أى صدى فى الممر.

شعرت أليكساندرا برغبة عارمة فى سؤال أنجيليكى مباشرة عنه، ولكنها فى اللحظة الأخيرة ندمت على رغبتها هذه... لقد خشيت من أن تدرك صديقتها شيئًا فتفشى بذلك سرها ويفتضح أمرها. فلم يكن من السهل على أنجيليكى أن تقبل بوجود مثل هذه العلاقة، ولن يتسنى لها فهمها. إذ كانت أليكساندرا تعرف فحوى وجهات نظر صديقتها فى مثل هذه الأمور. وكانت تدرك أن كل ما يمت بصلة إلى مثل هذه الصداقة يبدو لصديقتها مرفوضًا وغير مقبول. وربما كان ذلك يعود إلى أن أنجيليكى قد وفدت إلى مصر

من بلاد اليونان حديثًا نسبيًا، ذلك أنها لم تولد بمصر ولم تعجن بهواء مصر وتربتها.. لقد كانت فى الثامنة من عمرها عندما وفدت مع والديها إلى هذا البلد المضياف، تاركة خلفها مدينة أثينا الحبيبة ومودعة إياها؛ وبناء على ذلك فقد كانت تشعر أنها أجنبية ومختلفة عن زميلاتها الأخريات.

وعلى أية حال لم تتمكن أليكساندرا هذه المرة من التحكم فى نفسها، فلقد نفد صبرها مع آمالها التى تبددت فى أن تسمع صوت حبيبها. وحينما كانت تلقى بالتحية على صديقتها مودعة إياها، عادت مرة أخرى إلى الأريكة التى كانت تجلس فوقها، ثم قالت لها: أتعرفين. يا أنجيليكى..... كان هذا ما شرعت فى قوله مباشرة بلهجة خالية من القلق، كما لو كانت هذه الكلمات التى ينبغى أن تقولها لها نابعة فقط من رغبتها فى الثرثرة أكثر من أى شىء آخر: كنت أرغب فى أن أقول لك هذا منذ وقت مضى - وهو ليس بالأمر الجاد حقًا - .. ففى الأيام الماضية قابلت جارك الذى حادثنى للمرة الأولى.

- جارى؟ من تقصدين؟.

- ذلك الضابط فى الجيش الذى يقطن بجواركم.

- آه! تقصدين عادلا؟.

- أجل! أجل! إنه هو.

- وأين قابلتيه؟، وارتسمت الدهشة الشديدة على نظرتها.

قالت أليكساندرا: قابلته بالصدفة عند مدخل العمارة وتحدث إلىّ... بينما كنت خارجة من المنزل آخر مرة زرتك فيها؛ كاد يسقط فوقى وهو خارج من بوابة العمارة، فاعتذر إلىّ وطلب منى الصفح عن عدم انتباهه وتجاذب معى أطراف الحديث.

فقالت أنجيليكى: أمره غريب.. فهو ليس من ذلك النوع الذى يتحدث كثيرًا.

قالت أليكساندرا: سألنى عما إذا كنت صديقة الفتاة اليونانية التى تسكن بجوار شقته وأجبته بالإيجاب، ثم ضحكت كما لو كانت قد ألقت نكتة.

قالت أنجيليكى: إنه أمر غريب بالنسبة إلى عادل... فهو لا يتحدث إلى أى شخص فى الحى.

قالت أليكساندرا: بمعنى؟

- إنه عزوف متباعد عن الآخرين ولا يتحدث تقريبًا مع أحد. وربما كان عمله هو السبب فى ذلك.

- ربما...

- متى تقابلتما؟

- ألم أقل لك؟ لقد تقابلنا أثناء زيارتى الأخيرة لك هنا فى منزلك.

- لا بد أن هذا قد حدث قبل رحيله.

وهنا صعقت أليكساندرا من هول المفاجأة، وكاد صوتها المرتجف يفضح أمرها. ولكنها مع ذلك حاولت أن تتمالك نفسها وتحافظ على رباطة جأشها وسلامة فكرها وتتحكم فى مشاعرها. وما إن استعادت مرة أخرى هدوءها واستجمعت شجاعتها لكى تتحدث وتسأل، حتى تظاهرت بأنها كانت تريد فحسب أن ترضى فضولها، وقالت: رحيله؟ إلى أين؟ وحتى متى؟.

رمقتها أنجيليكى وهى مندهشة ثم قالت: لا أحد يعرف.. لقد نُقِلَ الضابط وترك شقته الأسبوع الماضى.

لم تنبس أليكساندرا ببنت شفة، بل اكتفت بأن ترمق صديقتها بعينين نصف مفتوحتين ولكنهما خاشعتين. وهنا قالت صديقتها: فى الأيام الماضية حضرت والدته لزيارة والدتى التى تكن لها مودة وصداقة، إذ كانت تريد أن تستفسر عن صحتها، ثم استطردت قائلة بغير اكتراث: لقد أهدتنا حلوى وزجاجات شربات بمناسبة ترقية ابنها الضابط، وأخبرتنا أن إدارة فرقته قد أرسلته إلى مدينة أخرى... ترى ماذا كان اسمها؟، حاولت أنجيليكى أن تعصر ذهنها وتتذكر: آه! إنها بورسعيد أو الإسماعيلية! فى الحقيقة أنا لا أعرف.

كان لهذه الكلمات وقع الصاعقة على رأس أليكساندرا التى أحست أنها قد أصيبت بالذهول أو السكتة الدماغية. اعتقدت فى البداية أنها لم تسمع ما قيل جيداً، ولكنها فيما بعد عندما أفاقت واستردت وعيها وأدركت محتوى كلمات صديقتها أحست بخيبة أمل

مطبقة مريرة... لا لا... إنها ليست خيبة أمل بل يأس. لماذا لم يشر حبيب قلبها إلى هذا الأمر أبدًا؟ لماذا لم يقل لها كلمة واحدة عن ترقيته؟ ترى ماذا حدث؟ ترى هل حدث شيء أدى إلى مضايقته؟ ولكن ما هذا الشيء؟ وماذا عن مقابلاتهما في الدهبية؟ هل من المعقول أو من الممكن أن علاقتهما الدافئة بأسرها المفعمة بالحب والعاطفة والمشاعر المتفجرة، والزاخرة برقته التي لا حدود لها كانت ملفقة أو متصنعة؟ أيمكن أن يكون قد خدعها أو سخر منها بطريقة تدعو إلى الرثاء؟ وهل كانت الصراحة التي طالعتها في عينيه من قبِل التظاهر؟

ظلت هذه التساؤلات وأمثالها، التي لا إجابة لها عندها، تدق في ذهنها وتعذبها عذابًا لا نهاية له بمثل ما عذبتها صورة محياه من قبل التي نقشت على شغاف قلبها بطريقة لا سبيل إلى محوها، وهو منحن فوقها ناشدًا حبها المطلق واستجابتها المطلقة، بتلك الرزانة الدالة على تسليمه الكامل بعشقه لها...

متى إذن سوف يعود إلى القاهرة، هذا لو قدر له أن يعود؟ ولماذا لم يذكر لها شيئًا في المرة الأخيرة التي التقى بها؟ ترى هل ستقابله مرة أخرى؟ أم أن تلك المرة الأخيرة كانت هي لقاء الوداع؟ أحست أليكساندرا أنها تغوص ببطء في بركة من الوحل، وبدأت أنفاسها تجف ففتحت فمها لكي تتنفس ولكنها وجدت صعوبة بالغة في ذلك.

وهنا سألتها أنجيليكى بعد أن رأت امتقاع وجه صديقتها: ماذا يحدث لك، يا بنيتى؟. لا شىء، تلعثمت الفتاة وهى تقول ذلك وقد تحشرجت أنفاسها. لم تكن قادرة على أن تتكلم.. وكانت تبتهل إلى الله بكل قوتها التى بقيت لها ألا يفتضح أمرها لصديقتها. وهنا قالت لها أنجيليكى: كيف تقولين لا شىء؟ لقد امتقع لونك تمامًا!. فردت أليكساندرا بقولها: لا شىء مطلقًا!.

قالت لها أنجيليكى: إنك تتصرفين بغرابة فى الآونة الأخيرة... إننى أحادثك وأنت لا تصغين لى.. وأنت ذاهلة باستمرار وحزينة وشاردة الذهن. أجل.. فقبل قليل أزجيتِ لى تحية الوداع وهممتِ بالانصراف، ثم عدتِ ثانية للجلوس. ماذا يحدث لك فى خاتمة المطاف؟. قالت أليكساندرا: ليس الأمر مهمًا أو جادًا.. ربما كانت حرارة الجو هى السبب فى ذلك.

- حرارة الجو؟

- أجل! حرارة الجو.. والقلق بسبب نتائج الامتحانات. كم كانت الفتاة تتعذب! لم تكن قادرة على أن تستمر أطول من هذا المدى.. كانت هناك غصة فى حلقها تدفعها إلى التنهد.

- نتائج الامتحانات؟ لقد كنت دومًا أفضل تلميذة، يا أليكساندرا. أم ترى كان السبب هو غياب قسطنطين وأنت لا تريدين تقبل ذلك. قالت أنجيليكى ذلك وهى تضحك وتغمز لصديقتها غمزة ذات مغزى. فلقد كانت تعرف بأمر تلك القبلة التى لثمها قسطنطين على شفتى صديقتها فى شرفة منزلها ليلة رأس السنة. إذ كانت

أليكساندرا نفسها قد أسرت بهذا الأمر إلى صديقتها أنجيليكى فى اليوم التالى. بمجرد أن استغرقت والدة الأخيرة فى النوم وجلستا معًا هنا فى هذا المكان نفسه من المنزل. ثم استطردت أنجيليكى قائلة: متى سيعود حقًا؟ أعتقد أنه سيعود بعد وقت قصير.. أليس كذلك؟

لم تتمكن أليكساندرا من الرد عليها.. كانت أعماقها خالية وفؤادها فارغًا ولم يكن بوسعها أن تتنفس. وهنا قالت لها أنجيليكى: أليكساندرا، لماذا لا تقولين لى ماذا بك؟ ترى هل أنت مريضة؟. كانت نظرتها إليها نفاذة لدرجة أن الفتاة أليكساندرا ظنت أن صديقتها قد حاولت النفاذ إلى عقلها لكى تكتشف جميع أسرارها، فقالت من فورها: لا شىء.. لقد تأخرت.

- أنا لا أصدقك.

- لا شىء... قلت لك لا شىء.

قالت هذا ثم حملقت فى وجهها وبعد ذلك تقدمت نحو الباب، وبعد أن فتحته التفتت إلى صديقتها أنجيليكى لبرهة من الوقت ثم قالت: وداعًا، يا عزيزتى، اعتنى بنفسك. قالت الصديقة: أليكساندرا!. ولكن الأخيرة تبخرت مثل الدخان... رحلت عبر الزقاق ثم عبر الطريق، وعندما وصلت إلى مشارف الجسر انفجرت فى بكاء لا طاقة لها على التحكم فيه وهى تتشنج. لقد انخدعت أما هو فقد جرحها جرحًا لا براء منه، حيث إنه تنكر للنواميس غير المدونة التى سنتها الأجيال السابقة.. أجل لقد طعنها

بينما هى لا تزال تعيش حقًا فى الخداع والكذب والرياء، وتتبع بسذاجة المواثيق المقدسة التى فرضتها أخلاقيات دعاة الإظلام فى العصور الغابرة، وتهز بقوةٍ أساسَ الثوابت الراسخة التى تأسست وصارت متوازنة منذ قرون مضت. وربما كان هذا هو عقابها لأنها أحبت رجلاً ومنحته نفسها بالكامل.

(٧)

غدا لون السماء الوردى فى أشد درجات التناسق مع صوت المؤذن المؤثر الداعى إلى صلاة الفجر، ولكن التداخل المنفر لصوت مذياع منبعث من إحدى المقاهى الشعبية التى تسهر طوال الليل فى ضاحية بولاق، أدى إلى مباغتة الزبائن القليلين الساهرين من مرتادى المقهى، وكان ذلك بالضبط قبل إذاعة أول نشرة للأخبار. كما خيمت على المكان أيضًا صرخة حزينة متقطعة الأنفاس من فرط التعب، تردد صداها من نافذة مطبخ فى الطابق الثانى من عمارة قديمة مواجهة.

وبعد ذلك مباشرة انبعث صوت عميق هادئ لمذيع شاب، وهو يبدأ بعناية وبتأثير متصاعد إلقاء بيان باسم مجلس القيادة العام الجديد للجيش. ولقد جعل صوت المذيع وكذا محتوى البيان الذى تكشف للناس شيئًا فشيئًا، جعل أبدان السامعين تقشعر وترتجف، بينما كانت قلوبهم تدق بقوة داخل صدورهم وعيونهم تحملق فى الفضاء، وكأنهم كانوا يبحثون عن كائن غير مرئى من شأنه أن يؤكد لهم أن كل ما سمعوه كان حقيقة وليس من صنع خيالاتهم الظامئة، ولكى يثبت لهم هذه الحقيقة التاريخية ويدفعهم إلى الاعتقاد بأن ما سمعوه لم يكن

كذبًا باطلاً أو بهتانًا ولم يكن سرابًا، وأنه من الآن فصاعدًا سوف تصبح صورة وطنهم صورة مختلفة يتعذر نسخها أو إلغاؤها.

استقرت هذه الكلمات البسيطة الخالية من أى نوع من التنميق أو التزويق ومن المبالغة فى المشاعر والأحاسيس ومن الألفاظ الجوفاء الطنانة، استقرت شيئًا فشيئًا فى وعى الناس مثلما تستقر رمال الصحراء بعد هبوب عاصفة هوجاء عاتية: إلى الشعب المصرى... كانت هذه هى بداية البيان إن مصر التى عانت من الفساد والهوان قد عاشت سنواتها الأخيرة فترة سوداء حالكة من تاريخها. ولقد تغلغل الفاسدون وعديمو الأخلاق فى صفوف الجيش نفسه، وهى حقيقة أسفرت عنها الهزيمة فى فلسطين عام ١٩٤٨ . ولم يكن الجيش قادرًا على أن يحمى مصر ويدافع عنها: لأن طغمة فاسدة خائنة كانت تتولى أمره وتحكمه.

تلت ذلك وقفة قصيرة ولكنها كانت مثل دهر طويل، إذ جعلت القلوب تدق بسرعة أكثر وجعلت النظرات تدور وهى زاخرة بالدهشة، تفتش فى المكان مرة أخرى عن تأكيد بأن ما قيل كان حقيقيًا وليس من صنع الخيال الوثاب. ومن هنا جاء حرصنا[(١)] على أن نخلصكم من هؤلاء جميعًا. وإن جيشنا الآن فى حماية

---

(١) قام ٨٩ ضابطًا من الضباط الأحرار بزعامة البكباشى جمال عبد الناصر باحتلال مبنى القيادة العامة للجيش، وفرضوا على الملك تعيين اللواء محمد نجيب قائدًا أعلى للجيش. وبعد إعلان الجمهورية أصبح محمد نجيب رئيسًا للجمهورية، بينما أصبح عبد الناصر - الذى أبقى دوره الحقيقى خفيًا - نائبًا للرئيس. وبعد مرور عامين على ذلك أعلن عبد الناصر نفسه رئيسًا للجمهورية. (المؤلفة).

مواطنين قادرين وشرفاء يمكنكم أن تضعوا فيهم ثقتكم المطلقة. وإن مصر سوف تستقبل حركتنا برضا، كما أن الجيش هو الضامن للصالح القومى. وإننى أنتهز هذه الفرصة لكى أدعو الشعب إلى أن يكون على أهبة الاستعداد لمعاقبة أعداء الوطن، ولكى أطلب منه ألا يسمح بحدوث أى عمل من أعمال العنف أو التخريب، لأن هذه الأعمال وأمثالها سوف تضر بوطننا مصر، كما أنها سوف تعتبر أفعالاً من أفعال التمرد والعصيان؛ وسوف يعاقب المسئولون عنها بشدة بالغة. ولسوف يضمن الجيش بالتعاون مع الشرطة احترام القوانين وحمايتها. كما أود أن أطمئن الجميع وخصوصًا إخواننا الأجانب الذين يعيشون على أرضنا، وأن أؤكد لهم أن الجيش قد تولى زمام مسئولية سلامة حياتهم وأملاكهم ومصالحهم. وأناشد زملاءنا المواطنين ألا يصدقوا الشائعات المغرضة الهدامة، حيث إن الهدوء يسود كل مكان. وأبتهل إلى الله العلى القدير أن يكون فى عوننا.

وما إن انتهى إلقاء هذا البيان الجامع[١] حتى أفاق الناس من هول المفاجأة، فتوافدت الجماهير من كل صوب وحدب إلى الطرقات وإلى ضواحى مدينة القاهرة المهيبة، وهم يتصايحون ويهتفون بشعارات لمناصرة الحرية والثورة. وطفق الناس يثنون على

(١) ألقى هذا البيان فى الإذاعة رفيق جمال عبد الناصر وصديقه الحميم محمد أنور السادات الذى أصبح فيما بعد رئيسًا لجمهورية مصر. (المؤلفة).

من قاموا بهذه الحركة المباركة ويهتفون بحياتهم بلا انقطاع، ويكررون إعجابهم المتزايد المشوب بعدم التصديق من الأخبار القائلة، بأن الضباط الأحرار قد أمسكوا بزمام الجيش وبأن اللواء محمد نجيب قد عين رئيسًا أعلى لمجلس قيادة الثورة، بموافقة زملائه الذين قاموا بهذه الثورة المباركة.

عما قريب سوف تحل ساعة الملك[1]، كانوا يرددون هذا القول ويعيدونه مرارًا وتكرارًا: الذى انتهك دون حياء ولا خجل الدستور واحتقر الشعب، وأغدق الحماية والأمن على الخونة والمرتشين الذين نهبوا الوطن على حساب الشعب الفقير المضطهد. كان صدى هذه الكلمات يتردد مثل صرخة هادرة مدوية من حناجر الملايين، وكان يتوالى مثل صرخة عملاقة ليغطى أرض مصر من أقصاها إلى أقصاها.

وكان المواطنون يهرعون من كل ركن فى المدينة إلى مبنى القيادة العامة للجيش فى شارع مصر الجديدة، حيث كان الصحفيون ورجال الإعلام متجمهرين هناك بالفعل. ولقد نسى رجال الإعلام والصحافة هويتهم فانخرطوا بدورهم فى هذا الجو الصاخب السائد الذى اختلط فيه الحابل بالنابل. وكانت دهشة مراسلى

---

(١) برغم طرد الملك فاروق مع أفراد أسرته بعد ثلاثة أيام بالتمام والكمال بعد إعلان الثورة - أى يوم ٢٦ يوليو عام ١٩٥٢- فإن النظام الملكى ظل قائمًا فى مصر لمدة عام كامل بعد هذا التاريخ. (المؤلفة).

الصحافة الأجنبية أشد بكثير من دهشة مراسلى الصحافة المحلية، وكانت دهشة الرأى العام الأجنبى مماثلة لدهشة مراقبى صحافته.

ولقد ارتسمت التعبيرات ذاتها فى عيون الجميع، أو لنقل لقد انطبعت الحيرة ذاتها على ملامحهم. فهل كان من الممكن أن تحدث الأمور بمثل هذه السهولة بعد قرون من الطغيان والقهر والاستبداد والاستغلال؟ هل كان من الممكن أن تجرؤ أخيرًا حفنة من البشر، أو فئة قليلة من المواطنين على تغيير هذه الأمور كلها؟ وهل كان من الممكن أن تجسر هذه الفئة على تحقيق ما هو مستحيل فعله؟ وهل كان من الممكن أن تواتيها الجرأة على قلب التاج الملكى، الذى ظل مفروضًا على البلاد من قبل الأجانب سنوات طويلة؟ والذى ظل يؤازر الأجانب ويخدم مصالحهم طوال هذه السنوات؟ ومن ذا الذى كان يصدق أن السلطة سوف تؤول أخيرًا إلى أيدى الشعب المصرى، المعذب عذابًا مبرحًا بعد كل هذه الحقب الزمنية التى لا نهاية لها، وبعد كل هذا الاستغلال الذى دام واستشرى قرونًا عديدة؟

وأيضًا ماذا كان من الممكن أن يعنى انتهاء الاحتلال الإنجليزى إلى الأبد، وزوال تحكم الأجانب فى مقررات البلاد وسيطرتهم عليها، الأجانب الذين ظلوا سنوات طويلة يمتصون مصادر ثروة مصر باستبداد دون أدنى حق، وينتهكون كل قواعد الأخلاق وأصولها؟ ماذا كان من الممكن أن يعنيه انتهاء كل هذه الأحوال فى مصر؟

ظلت هذه التساؤلات تدور وتدور بإصرار مثل دوامات غير مرئية وتنتشر ليس فى طول البلاد وعرضها فقط، بل فى جميع أرجاء الكرة الأرضية أيضًا. فعما قريب جدًا سوف تتحدث الشعوب المنسحقة وتنطق الشفاه المعذبة وتعبر عن إعجابها. بل ربما عن حسدها، بهذه الجرأة وهذه الجسارة التى تحلى بها هؤلاء الناس.

وحتى حلول وقت الظهيرة تم توجيه رسالة قاطعة واضحة إلى جميع السفارات الأجنبية فى القاهرة، ولقد تم بث هذه الرسالة ذاتها فى الإذاعة مساء اليوم نفسه، وهى تقول ما يلى: لو أن القوات الأجنبية امتنعت عن أى تدخل، فإن النظام سوف يسود وسوف يتم إسباغ الحماية على حياة جميع الأجانب.

ولم يكن فى مقدور أى شخص أن يتخيل على أية حال - حتى ولو حاول - الشكل الذى ستسفر عنه الأمور من الآن فصاعدًا. وهل ستتغير صورة مصر الثابتة حتى تلك اللحظة الحاسمة أم لا. وإبان مساء ذلك اليوم ووسط الاحتفالات والاضطرابات والهتافات المدوية، الزاخرة بالاستحسان والحماس والفرحة التى لا توصف، ووسط مشاعر الفخر والكبرياء والدهشة، تحدثت أنجيليكى إلى منزل صديقتها أليكساندرا من هاتف دكان البقالة الموجودة فى الحى، لتخبرهم وقلبها ينفطر أن والدتها قد قضت نحبها فجر اليوم. كما قالت لهم أيضًا وسط نشيجها الذى كانت تحاول التحكم فيه، أنها سوف تنتقل عما قريب مع والدها إلى شقة أصغر حجمًا، فى حى شبرا بجوار عمة لها تمت بصلة القرابة لوالدها.

وبعد مرور يومين على هذا الذى حدث وصل صدى الصرخات والترديد الحماسى للكلمات المظفرة - قبل أن يخمد أوارها وتهدأ تمامًا - وصل لكى يغطى على صرخة يأس مرتعشة، وألم تقشعر منه الأبدان فى ضاحية أخرى ليست بعيدة عن ضاحية بولاق. وكانت هذه المرة هى صرخة أليكساندرا التى ودعت إلى الأبد حقبة البراءة وودعت معها الأمل فى أن تجد أثرًا لحبيبها الضابط الذى غاب عنها.

الجزء الثانى

الفترة الانتقالية

(٨)

وأخيرًا تولى عبد الناصر زمام السلطة الشرعية للدولة، فانتخب رئيسًا للجمهورية بأغلبية ساحقة من أفراد الشعب، وبانتخابه تم إقرار الدستور الجديد[1] ووضعه موضع التنفيذ . فى الحال. كان هذا ما أعلنه السيد كيريازوبولوس للرجل الذى كان يجلس خلف مكتبه حينما كان يضع سماعة التليفون. وكان قد تحدث لتوه مع صديقه بريكليس أثاناسياذيس بعد أن علم بالخبر

---

(١) وهو دستور عام ١٩٥٦الذى تمت مراجعته على يد جمال عبد الناصر ومجلس قيادة الثورة خلال العام السابق؛ ومن أجل تفعيله قام المجلس بتعيين اللواء محمد نجيب رئيسًا له عام ١٩٥٤وأصبح من ثَم بالتالى رئيسًا للجمهورية. ولكن عندما استقال اللواء محمد نجيب بعد ذلك بشهور قليلة، تولى جمال عبد الناصر رسميًا رئاسة جمهورية مصر، بعد أن كان بالفعل رئيسًا للوزراء ويقوم بمهام نائب رئيس الجمهورية. (المؤلفة).

من مصدره الأول، ثم اضطجع على كرسى وثير أمام مكتب صهره ثم أشعل سيجارًا، بعدها تجرع آخر جرعة من فنجان القهوة الذى كان موضوعًا فوق صينية فضية كانت بجواره. ولقد ارتسمت على وجهه الوسيم ابتسامة رضا عميقة، أو لعلها ابتسامة إعجاب حاول أن يخفيها عن محدثه لسبب ما لم يكن واضحًا تمامًا فى دخيلة نفسه.

لقد كان البكباشى[1] هو المحرك الأساسى والمنظم الأول للثورة.. لقد كان هو الرئيس الحقيقى خلف الرئيس نجيب طوال كل هذه السنوات.. إن زمام السلطة لم يفلت أبدًا من يديه وهو الآن متسق قولاً وفعلاً مع لقب وظيفته. بهذا أجاب الرجل الآخر الذى لم تبد على أساريره أمارات الدهشة ولا علامات الحماس بعد سماع الخبر، وكان أثناء حديثه يراقب عن كثب السيد كيرياكوس كيريازوبولوس بطريقة يبدو منها أنه كان يحاول أن يقرأ أفكاره. كان المتحدث شابًا فى السابعة والعشرين من عمره، وإن كان يبدو أكبر من عمره بعدة سنوات، وكان ذا قامة متوسطة وملامح جذابة رقيقة... كان على وجه التقريب مليحًا جذابًا برغم أن ملامح وجهه لم تكن تظهر أبدًا خصوصية من نوع ما، اللهم فيما عدا عظمات وجنتيه التى كانت تبدى رجولته والتى كانت تعطى للآخرين انطباعًا خاطئًا عن خشونته التى لا وجود لها.

---

(١) البكباشى لقب قديم يدل على رتبة عسكرية فى الجيش، وكان عبد الناصر فى رتبة البكباشى حينما قامت الثورة. (المؤلفة).

من الآن فصاعدًا سوف نطلق عليه رسميًا اسم الريس[1].

ضحك السيد كيريازوبولوس برقة وهو يقول هذا، حيث إنه كان معجبًا بعبد الناصر وكان يقدره ويجله بغير حدود. وكان يقارنه على وجه الخصوص بالزعماء الثوار الكبار من أمثال ماوتسى تونج وتيتو، وهو أمر كان يضايق صهره بشكل يفوق الوصف.

إنه يتحكم وحده بصورة مطلقة وبدون شريك فى الجهاز الحكومى... معتمدًا على خاتم الشعب، قهقه صهره ساخرًا وهو يقول هذا، ثم رفع بعد ذلك كتفيه بعدم اكتراث واستطرد قائلاً: إننى متشوق لأعرف كيف سيتسنى له أن ينجح فى التعامل وحده مع المشاكل الحاسمة التى تواجهها بلاده، ولن أذكر هنا مشكلة فلسطين ولا مشكلة الجماعات الإسلامية وجماعات اليسار، ولا الاتفاقية الفاترة التى وقعها مع الإنجليز[2].

فأجاب السيد كيريازوبولوس: إنها ليست مشاكل قليلة... ثم إنها فضلاً عن ذلك ليست مشاكل سهلة يمكن لأى سياسى أن يحلها إلا

---

(١) «الريس» لقب كان يطلقه الشعب المصرى على عبد الناصر وهو يعنى القائد أو «رئيس الجمهورية». (المؤلفة).

(٢) تم توقيع هذه المعاهدة عام ١٩٥٤ وبمقتضاها وافق الإنجليز على سحب معسكراتهم تدريجيًا من قناة السويس خلال مدة قوامها عشرون شهرًا بشرط إذعان عبد الناصر لـ «ميثاق تركيا». وكان = التزام عبد الناصر بهذا الميثاق إظهاره على أنه حليف للغرب، نظرًا لأن حماية تركيا كانت تعنى اندماج مصر علانية فى نظام الدفاع العام ضد الاتحاد السوفييتى. (المؤلفة).

لو كان أعظم من تشرشل. وعلى أية حال فإننى أعتقد أنه يملك قدرة فائقة ولديه عزيمة جبارة، وأنا واثق من أنه سوف ينجح. وهنا قال صهره: (ترى هل سينجح) مع وجود الإنجليز والأمريكان وهم رابضون يضغطون على عنقه، ومع وجود الآخرين وهم متربصون ينتظرون انزلاقه، ما بين لحظة إلى أخرى فى حفرة مليئة بالثعابين؟ أعتقد أن الأمر بالغ الصعوبة. قال هذا وكانت نبرة من الحقد تشوب صوته.

إننى أتفق معك، ولكن عند رؤية كل ما حققه الآن فإن المرء لا يملك سوى أن يرفع قبعته تحية له...، قال هذا السيد كيريازوبولوس. فقال صهره: ما حققه؟، فرد عليه السيد كيريازوبولوس بقوله: لقد قاد بلده إلى الاستقلال وإلى التنمية فى ظل ظروف جد معاكسة، ومع شعب لم يتعود بعد على معنى الحرية. ومن أجل هذا وحده فهو يستحق الإعجاب. قال صهره عندئذ: وهل تعتقد أن من السهل عليه أن يجد طريقه بين الغرب والشرق؟ بين هؤلاء الذين يؤازرون الاستعمار الرأسمالى وبين الآخرين الذين يعتنقون الشيوعية؟ لا ريب أنك تمزح حقًا....

برغم أن قسطنطين كان يتعاطف مع صهره ويوقره، فإنه كان يختلف معه جذريًا فى فهمه للأمور، ويرى أنه صاحب فكر رومانسى غير قابل للعلاج. على أية حال فإن لديه شجاعة وعزما شديدين، أصر السيد كيريازوبولوس على رأيه ثم أضاف قائلاً: ولا ينسى أحد أنه جرؤ خلال العام الماضى، وهو لا يزال رئيسًا للوزراء،

على توجيه إنذار لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى أن يتهمها مباشرة بأنها تسعى إلى تأكيد التفوق العسكرى لإسرائيل، بعد تلك الأحداث الدامية التى حدثت فى غزة. فمن كان ينتظر منه ذلك؟.

أيًا كان الأمر فإن التوازنات حرجة للغاية، أضاف صهره بعد أن تضايق من إصرار حميه على رأيه، ثم تذكر أمرًا بعد فترة فقال: ولكن ما يحيرنى حقًا هو: هل سيواصل مسيرته فى إطار الحفاظ على وعده فيما يخص الجاليات الأجنبية التى استقرت فى مصر، وبوجه خاص جاليتنا اليونانية؟. كانت نبرة صوته فى هذه المرة أكثر حدة وكانت لهجته أكثر جدية.

فرد عليه السيد كيريازوبولوس بثقة واضحة: إن الريس يتعاطف مع اليونانيين وهو معجب بهم، ليس ثمة قلق من هذه الناحية. كما أن الريس نفسه لم يفتأ يؤكد ذلك، فى كل وقت وحين، فى التحقيقات الصحفية التى تنشر فى جريدة السيد أثاناسياذيس، فضلاً عن تأكيده ذلك للقائمين على أمر جاليتنا. فقد أخبرنى السيد أرماذوس بذلك مرارًا وتكرارًا.....

إن الأمور ليست على هذا النحو من البساطة، قاطعه صهره وهو يتحدث بلهجة حانقة. فقال السيد كيريازوبولوس: لماذا تقول هذا؟، فقال صهره بعد أن توقف برهة من الوقت لكى يشعل سيجارته: ألم تشاهد ما حدث؟ إن الشك والريبة يسودان فى كل مكان. وما قولك فى الظروف المصاحبة لتصدير العملة التى قام بها زملاؤنا المواطنون وغيرهم؟.

استطرد صهره قائلاً ذلك وهو ينفث دخان سيجارته فى الهواء فى الوقت نفسه: ألا تعرف أنهم مدانون الآن أمام المحكمة العسكرية العليا؟. استغرق والد أليكساندرا برهة قصيرة فى التفكير، إذ كانت هذه قضية قد سببت مشاكل حادة لشريحة من المستوطنين اليونانيين، الذين كان كثير منهم يريدون العودة يومًا ما إلى وطنهم. ثم استطرد صهره قائلاً: إن هذه حقًا مشكلة خطيرة... إنها شوكة تهدد وجود كثير من اليونانيين فى مصر. فوافق السيد كيريازوبولوس وأمن على ذلك ولكنه قال: ولكن لا تنس أن..... فقاطعه صهره بقوله: وليس هذا هو وحده سبب المشكلة، فهناك القانون الجديد الخاص بتمصير الشركات وتأميمها.. فما قولك فى هذا؟ وما قولك أيضًا فى تحديد الملكية؟ أعنى فى القيود الصارمة التى تم فرضها؟ إن كل هذه الإجراءات ليست إلا قمة لجبل من الجليد. وسوف تتبعها إجراءات أخرى فتق من ذلك.

لم ينبس السيد كيريازوبولوس ببنت شفة، بل اكتفى بالنظر إلى صهره بإمعان شديد. ثم استطرد صهره قائلاً: ومن ناحية أخرى فإن أكثر ما أخشاه - عندما تؤول السلطة المطلقة إلى يد شخص واحد لا سواه - أن تتدخل العواطف والمصالح الخاصة والطموحات الشخصية فى السياسة وتلعب دورًا أساسيًا. قال السيد كيريازوبولوس: هل ينطوى كلامك على تحامل وضغينة؟، قهقه قسطنطين وقال: ضغينة؟ ولأى سبب؟ ومع ذلك ففى السياسة كل شىء يتغير. يا عزيزى، وهو أمر أظهرته لى أحداث التاريخ فى كثير من المرات.

وهنا رمقه السيد كيريازوبولوس بارتياب ثم قال: إننى أتفق معك فى وجهة نظرك، يا قسطنطين. ولكن اسمح على أية حال لى فى مثل هذا الظرف أن أعرب لك عن وجهة نظر مختلفة. وأيًا كان الأمر فلولا هذا الرجل لما تغير أى شىء فى مصر. إن تأسيس البرلمان كان واحدًا من إنجازاته الشخصية، وكذا مواجهة الأمية والفقر والإصلاحات الزراعية التى شرعت لصالح الفلاحين الذين لا يملكون أرضًا.... وهنا قاطع قسطنطين حماه بحدة قائلاً: وتصنيع البلاد وتطوير الظروف الصحية... أعرف... أعرف.. ومع ذلك فأنا على اعتقادى بأنه ليس سوى شخص حالم، أو مصلح يروم تحقيق ما لا سبيل إلى إنجازه.

قال السيد كيريازوبولوس: إنك قاس فى حكمك، يا بنى. فرد عليه صهره قائلاً: مطلقًا.. إننى واقعى فحسب. وعندما شاهد السيد كيريازوبولوس أسلوب صهره الحاد الذى لا يليق تحاشى معارضته أو الاختلاف معه. ولم يشأ أن يغضبه أكثر من ذلك خاصة الآن وهو يعلم حق العلم أحواله وظروفه، إذ إنه كان يعلم جيدًا أنه كان يواجه مشاكل اقتصادية حادة فى عمله، وأن هذه المشاكل لم تقتصر لسوء الحظ على هذا فحسب بل امتدت أيضًا إلى حياته الشخصية. فلقد أدرك الحم الفتور القائم فى الآونة الأخيرة بين ابنته وزوجها، ولكنه كان يتحاشى أن يطرق هذا الموضوع، حيث إنه كان يحترم رغبة ابنته التى طلبت منه الابتعاد عن موضوعاتها الشخصية. ولذا فإنه اكتفى بأن قال لصهره: أيًا كان الأمر، يا بنى، وكما أشرت بحكمة وروية فإن الوقت هو الذى

سوف يبين لك الحقيقة. فدعنا نأمل أن تمضى هذه الأمور على حسب أمانينا.

قطعت الحديث الدائر بين الرجلين ضحكة مجلجلة من المرأتين (السيدة كيريازوبولوس وابنتها)، انسابت مثل النسمة الرقراقة المنعشة داخل المكتب الضيق الذى كان يملكه قسطنطين فى شارع سليمان باشا، وكان الشاب يدير منه مصنع أسرته فى مدينة المحلة الكبرى. فبعد أن ترك والده إدارة هذا المصنع، أصبح الشاب هو الذى يدير شئون الأسرة فى مصر ويشرف عليها وعلى أملاكها التى مضى عليها ثلاثون عامًا. ولقد تولى قسطنطين أمور إدارة المصنع بالكامل، ووضع على كاهله مع تلك المهمة كل المشاكل المصاحبة لها والتى كانت تنبئ بالانهيار والتفسخ.

مساء الخير!، بهذا أزجت السيدة الشابة التحية للرجلين. فرد عليها والدها قائلاً: مرحبًا بكما. كيف حالكما؟. فى خير حال. من أسف أنكما لم تكونا معنا. فالطعام فى مطعم السيد نيقولا كان رائعًا كعهده دائمًا، وكان الجو غاية فى الروعة، كان هذا ما قالته الأم وهى توجه حديثها بوجه خاص لزوجها. اقتربت أليكساندرا من زوجها وطبعت على وجنته قبلة سريعة تكاد تكون فاترة دون أن تنظر إلى وجهه، ثم تركت على مكتبه ربطة صغيرة بها نصيبه من الطعام الذى أحضرته له من المطعم اليونانى روى الذى يقع على مقربة من مكتبه. ثم جلست بعد ذلك بجوار والدتها على الأريكة التى تكون إحدى قطع الصالون الجلدى المواجه للمدخل.

هل سمعتم الأخبار؟، سأل السيد كيريازوبولوس المراتين. أجل! لقد تولى البكباشى رسميًا رئاسةِ الدولة. والشعب فى الخارج يصيح ويهتف ويرقص ويغنى وكأنهم يحتفلون بالمولد النبوى. أجابت أليكساندرا التى كانت تتتبع مسيرة هذا السياسى الكبير باهتمام بالغ. منذ أن سمعت اسمه لأول مرة فى منطقة الأهرامات. وفضلاً عن ذلك فقد كان هو حلقة الوصل الوحيدة التى كانت تربطها بالأمس... ومهما حاولت النسيان فقد كانت الذكريات تصر على أن تعاود مطاردتها ما بين الحين والآخر، وتؤثر فى حياتها تأثيرًا جذريًا. كانت تؤمن أن سيرة عبد الناصر مرتبطة بطريقة لا تنفصم بمصير ذلك الشاب الذى تعرفت عليه فوق الجسر وعشقته بدون أحكام مسبقة، ووهبته نفسها بالكامل بغير شروط، وتحدت الظروف المحيطة بها وتحدت حتى والديها، وكانت النتيجة أنها جرحت جرحًا عميقًا. حقًا لقد شعرت أن الحياة يومًا ما سوف تتيح لها أن تلتقى به مرة أخرى.. أجل لقد كانت واثقة من ذلك كل الثقة، وفضلاً عن ذلك فقد كانت هناك إجابة يجب أن تحصل عليها، إجابة تعتبرها من حقها، وكانت مصممة على أن تعرف بكل طريقة ممكنة، مهما كان نصيبها وقدرها، الأسباب الكامنة وراء اختفائه المفاجئ وغيابه عنها.

إنه رجل ساحر جذاب، قالت والدة أليكساندرا ذلك بإعجاب ظاهر وهى تبتسم ابتسامة عريضة لزوجها، ثم استطردت قائلة: وإن كان يعجبنى أكثر حينما يرتدى بزته العسكرية. وهو متميز دائمًا عن الباقين فى صوره، لدرجة أنه يمكن القول بأنه ولد ليتبوأ

هذا المنصب. ضحك السيد كيريازوبولوس لأنه كان يجهل أن زوجته كانت تكن الإعجاب لشخص هذا الزعيم النشط. ولذا فإنه قال لها وهو يقصد إغاظتها - حسب ما كان معتادًا عليه منذ أن تزوجا قبل ثلاثة وعشرين عامًا خلت -: إيه يا مارينا، أنا لا أعتقد أنك تقولين كل هذه الأشياء لكى تحملينى على الغيرة؟.

ضحكت والدة أليكساندرا ضحكة تنم عن رضاها عن نفسها، فقد كانت مداعبات زوجها ورغبته فى إغاظتها تروق لها على الدوام، حتى لو كانت مداعبات ساذجة أو تافهة، وكان الأمر ذاته يصدق على تعبيراته عن غيرته الزوجية، التى كان يبديها دومًا بروحه المرحة وفكاهاته المتميزة. أحست بالإطراء خاصة اليوم، ولكن تقديرًا منها لوجود زوج ابنتها وابنتها تحاشت مسايرة زوجها، أو التعليق على مداعبته لها حتى لا تفسد عليه مزاجه الصافى. فلقد كان زوجها - لو أنها سايرته وتجاوبت معه - قادرًا على الاستمرار قدمًا فى نكاته حتى صباح اليوم التالى. لذا اكتفت بأن رمقته بنظرة حثته بها على التوقف.

وعلى الرغم من هذا كله تضايق زوج الابنة الشاب من هذه المبالغة وهذا الضحك، الذى اعتبره مظاهرة إعجاب دفين برجل سياسة كانوا يجهلون أى موقف سوف يسلك من الآن فصاعدًا . كان قسطنطين واثقًا من أن ذلك السياسى الذى يدور حوله الحديث، كان يخفى كثيرًا من أوراق الآس فى كمه... كان يؤمن بهذا إيمانًا راسخًا، ولم يتردد فى أن يعلنه مرارًا وتكرارًا على معارفه

وأصدقائه. وكان السبب فى هذا يعود إلى معتقداته الخاصة، التى تشكلت داخل بيئة مدينة كبرى نشأ فيها وترعرع إلى أن صار رجلاً، كما كان يعود أيضًا إلى تعاملات والده الاقتصادية وعلاقات الصداقة الحميمة، التى كانت تربطه بالإنجليز وبباشوات الطبقة الحاكمة السابقة، خاصة أنه كان منذ نعومة أظفاره يرتاد القصر الملكى مع والده، كما أنه هو نفسه قد عقد صلات تعارف مع أفراد البلاط الملكى الأصغر سنًا.. وفوق هذا كله كان السبب يعزى حقًا إلى شخصيته ومسلكه الشخصى، فقد كان هذا الشاب بطبيعته متشككًا مُرتَابًا منطويًا على نفسه وكان من الصعب عليه أن يثق فى أى إنسان.

كما ضايقه أيضًا وأثار ثائرته إسراف الزوجين ذوى العمر المتوسط فى التعبير عن عاطفتهما؛ إذ إنه كان يرى أن هذا التصرف أمرًا متسمًا بالمبالغة ومشوبًا بالملل. ولكنه على أية حال أبقى فمه مغلقًا لأجل خاطر زوجته، فقد كان يحبها برغم الصعاب وبرغم العراقيل التى واجهت زواجهما، خاصة منذ أن تعرضت أليكساندرا للإجهاض، وهو أمر لم يفق منه زوجها بشكل كامل حتى الآن. وخلال الأيام الأخيرة بوجه خاص عقب حدوث مشاجرة كلامية حادة، بدأت الأمور تتصاعد حدتها وتنذر بالخطر بينهما؛ من ثَم لم يكن الموقف يحتمل وقوع مشاجرات أخرى بينهما. وهنا سأل قسطنطين زوجته: وأنت، ما قولك فى هذا كله؟.

انتبهت أليكساندرا إلى غرابة لهجته ونجحت بسرعة فى أن تفك شيفرتها، وفضلاً عن ذلك فلم يكن الأمر صعبًا. لقد كان هذا هو تعبير زوجها الذى كان يسعى بلا جدوى إلى إخفائه، كما كان يحاول جاهدًا كتمان غضبه. ما قولى فى ماذا؟. سألته أليكساندرا بعد أن تكدرت من لهجة حديثه ومن البرود الذى شاب نظرته لها. إذ لم تغب عنها لهجة زوجها العدوانية غير المبررة، برغم أنه كان يسعى جاهدًا لإخفائها عن الآخرين؛ ومع ذلك فقد حاولت ألا تبدى انفعالاتها حتى لا تثير شكوك والديها، إذ كان والداها بالفعل يشعران بالقلق البالغ فيما يخص العلاقة بين الزوجين، خاصة بعد الإجهاض، ولم يكن هناك سبب يدفعها إلى أن تحملهما مزيدًا من المتاعب والهموم.

بالمناسبة... لقد قابلنا ونحن فى طريقنا إلى المطعم السيد أرماذوس الذى كان لتوه خارجًا من متجر بقالة السيد أسكوبى. قالت أليكساندرا هذا بعد أن تذكرت فجأة سكرتير الرابطة اليونانية، ومن ثم توجهت بحديثها إلى والدها. هذا ما كان ينقصنا الآن!، غمغم قسطنطين بهذه العبارة فى لهجة مشوبة بالحدة والغضب. ولكن أليكساندرا استمرت على أية حال فى حديثها وكأنها لم تسمعه: لقد أخبرنا أنه سوف يمر غدًا على المنزل لكى يعطيك تذاكر معينة. وهنا سألها والدها: أى نوع من التذاكر؟. قالت أليكساندرا: إنها تذاكر لحفل مساء السبت فى كازينو أوبرج الأهرام.. وهو حفل فائق الجاذبية وسوف يغنى فيه....؛ توقفت عن

الحديث فترة قصيرة ثم رمقت والدها وكأنها تريد مداعبته أو ممازحته وقالت: قل لى حقًا... هل بوسعك أن تخمن من ذا الذى سوف يغنى هناك، يا بابا؟. قال الأب: من؟، اتسعت حدقتا عينى الأب خلف عدسات نظارته السميكة وهو يقول هذا. قالت أليكساندرا: حبيبك! ـ حبيبى؟ ـ أجل! غوناريس!. قال الأب: رائع.. عظيم جدًا !.

هتف السيد كيريازوبولوس بهذه العبارة بحماس يفوق الحد... فقد كان غوناريس حقًا هو مطربه المفضل والمحبب إلى قلبه. وكان يعشقه ويستمع إلى أغنياته بانتظام سواء فى المنزل أو فى المكتب. وفى الوقت الذى بلغ فيه الجميع خلال العام الماضى قمة النشوة، خلال استماعهم إلى الكونشرتات الموسيقية التى قامت بعزفها صوفيا بيمبو فى مدينة الإسكندرية، وكذا فى مسرح محمد على وفى المركز اليونانى بمصر الجديدة بمدينة القاهرة لصالح تسليح مصر، كان السيد كيريازوبولوس يشعر بخيبة الأمل وكان يصر على أن يسافر إلى بلاد اليونان، من أجل أن يستمع فقط إلى مطربه المفضل الحبيب التروبادور ـ كما كان يطلق عليه ـ وهو يغنى على المسرح مباشرة أغنياته الرائعة الحبيبة. ولم ينثن أبدًا عن تحقيق رغبته هذه بالطبع، برغم المعارضة التى أبدتها زوجته احتجاجًا على إنفاقه هذه النفقات الطائلة التى لا ضرورة لها.

ماذا حدث لك، يا قسطنطين؟، سألته زوجته أليكساندرا بسرعة بمجرد أن اشتمت من ملامحه أمارات الحنق والغضب. فقال لها: لا

شىء - يبدو أنك متضايق، هذا إن لم تكن منفعلاً أو ثائرًا. قال الزوج: إن لدى فقط عمل كثير، والمشاكل فى المصنع تتراكم على كاهلى الواحدة تلو الأخرى بدون توقف.

لقد كانت هذه هى الحقيقة.. فمنذ أن تخلى والد قسطنطين نهائيًا عن إدارة مصنعه بسبب تدهور صحته، وجد ابنه قسطنطين، الابن الوحيد لأسرة خريسوستوس - نفسه مضطرًا برغم عدم خبرته، إلى مواجهة كل هذه المشاكل بمفرده. بعد ذلك استطرد قسطنطين قائلاً: وفضلاً عن ذلك فهناك القوانين التى تتغير من آن إلى آخر... وأحاول جاهدًا أن أجد لها نهاية.

وهنا سأله السيد كيريازوبولوس: هل تتحدث عن ذلك الإجراء الذى اتخذ - فيما يخص تمصير الشركات الأجنبية وتأميمها؟ أنا لا أعتقد أنه ينسحب على جميع المنشآت بشكل جذرى. حاول السيد كيريازوبولوس بهذا أن يبث فيه الحماس. ثم قال: أتصور أنه لا بد من وجود إعفاءات واستثناءات. قال هذا برغم أنه لم يكن يصدق إمكانية حدوثه. قال قسطنطين ردًا عليه: ما من استثناءات، فطالما أن الإجراء اتخذ وسرى مفعوله، فلن يجد استثناء واحداً الآن، والأحوال السائدة تدل على ذلك. لا.. لا.. إن أخشى ما أخشاه ألا يكون هناك استثناء.. أعنى أننى واثق من هذا تمام الثقة.

وهنا سألت السيدة مارينا زوجها السيد كيريازوبولوس بقولها: وأنت، يا كيرياكوس، هل علمت شيئًا من السيد أثاناسياذيس عن هذا القانون؟. قال زوجها: لقد التقطت أذناى شيئًا عن هذا

الموضوع، ولكن ليس هناك أمر مؤكد عنه. قالت زوجته: وماذا بعد؟. قال الزوج: لو سرى مفعول القانون فى خاتمة المطاف، فإن الوزارة سوف ترسل إلى المأموريات[1] بنص القانون الجديد، المتعلق بالتعديلات التى ينبغى إدخالها على الشركات الأجنبية، بحيث تتحول إلى شركات مصرية. وواضح أن السيد أثاناسياذيس لا يعتقد أنه سوف توجد استثناءات، ولكن ربما توجد فقط إعفاءات ضريبية مهمة فى هذا الصدد... ولنبتهل إلى الله أن تتأخر كل هذه الإجراءات فى التنفيذ. ولكن حتى لو حدث شىء مثل هذا فإننا سوف نتأقلم مع الأوضاع الجديدة، وسوف نطوع أنفسنا لتقبلها.. ولن تكون هذه هى نهاية العالم.

وإزاء عدم اكتراث حميه وموقفه البارد فى مواجهة كل هذه المتغيرات الخطرة التى تهدد مصالحه، نهض قسطنطين واقفًا فجأة من خلف مكتبه وأطفأ سيجارته بعصبية فى منفضة السجائر، ثم التفت إلى زوجته وإلى حماته وقال بصوت مرتفع: أرأيتن؟ إن الأمور تتغير.. والخطر كامن فى كل مكان.

فقال السيد كيريازوبولوس: لا تَستَبق الأمور، يا ولدى، فسوف نستفسر من الغرفة التجارية اليونانية عن حقيقة الأمر، ولسوف يكون فى مقدور أى شخص هناك أن يعطينا إجابات واضحة موثوقًا بها. وأعتقد أنهم سوف يخبروننا بما سيحدث فى هذا الصدد. ولكن فيما يتعلق بالوقت الحاضر....... وهنا قاطعه قسطنطين بقوله: إذن فلأى سبب يغلقون الشركات الكبرى لليونانيين الواحدة

---

(١) المأموريات هى إدارات اقتصادية إقليمية فى كل محافظة. (المؤلفة).

تلو الأخرى؟ وما عدد أصحاب الشركات الذين لم يطيقوا احتمال هذا كله وعادوا بالفعل إلى بلادهم؟.

إننا لا نعلم علم اليقين ماذا حدث. ومن ناحية أخرى فإن عدد هؤلاء ليس بالكثير: وعلى الأقل فهم لم يرحلوا بعد، قال السيد كيريازوبولوس هذا بنية تهدئة ثائرة صهره. وعندما لاحظ أن زوج ابنته كان مصرًا على انفعاله ولهجته الغاضبة، ندم على حديثه معه فى هذا الموضوع، وبادر إلى تغيير موضوع الحديث بسرعة من أجل تلطيف الجو، فقال: ولكن دعنا الآن من كل هذه الأمور... ما قولكم فى الذهاب إلى الأوبرج يوم السبت للاستماع إلى أغنيات غوناريس؟ سوف أحضر لكم جميعًا تذاكر للدخول.

قالت أليكساندرا: أشكرك يا بابا، أنا لا أريد الذهاب؛ فعندى مذاكرة لا حصر لها لامتحانات التخرج. هل نسيت أننى يجب أن أذاكر من أجل اجتياز السنة النهائية؟ ولكن إذا رغب قسطنطين فى الذهاب معكم... فالتفت قسطنطين فجأة إلى زوجته ورشقها بنظرة حادة، ثم التفت بعدها إلى حميه وقال له بصوت أرق وألطف: ولا أنا.... سوف أظل فى المنزل لكى أستريح. ولكنى على أية حال أشكرك على دعوتك.

حسن جدًا.. كما تشاءون.. ولكن لو غيرتم رأيكم..... ولكن السيد كيريازوبولوس تحاشى الاستمرار فى الحديث، إذ كان من الواضح أن مزاج صهره لم يتحسن، وكان الاستمرار فى الحديث إليه لا جدوى منه ولا طائل. فلقد تأكد السيد كيريازوبولوس من أن

حالة قسطنطين النفسية خلال الأشهر الأخيرة كانت تسوء باستمرار، وأن هناك عادة احتدادًا وتوترًا بينه وبين ابنته، وأن الخلافات بينهما تزداد بغير سبب تقريبًا. ورأى الحم أن من الأفضل له ولزوجته أن ينسحبا بلباقة وأن يتركا ابنتهما مع زوجها وحدهما.

اسمحوا لى إذن أنا وزوجتى بالانصراف، كان هذا هو ما أعلنه السيد كيريازوبولوس. وكان قد نهض بالفعل وتوجه إلى الباب وهو يومئ لزوجته إيماءة ذات مغزى؛ ثم استطرد قائلاً: لقد سعدت برؤيتكم، يا أبنائى الأعزاء. وكما قلنا آنفًا.. لو أنكم غيرتم رأيكم بشأن يوم السبت... قال هذا ثم قبل ابنته واتجه صوب الصالة. أما زوجته فقد عانقت بدورها ابنتها وقالت: لقد سعدت، يا حبيبتى، بالحديث معكما. وآمل أن أراكما بسرعة... وألا نظل وقتًا طويلاً بدون مشاهدتكما. أجابت أليكساندرا بغير حماس وهى تنظر إلى زوجها قسطنطين: لا يا ماما، أعدك بذلك.

ولم يفت السيدة مارينا أن تقبل زوج ابنتها وأن تضغط على يده برفق كما لو كانت توصيه بالهدوء. وعندما رحل الوالدان، اقتربت أليكساندرا من زوجها ووقفت أمامه على مسافة قصيرة منه، ثم رمقته لبرهة قصيرة فى عينيه. بعدها مدت يدها إليه بحركة مشوبة بالتردد ثم ربتت على وجنته فى رقة محاولة تهدئة الشكوك التى كانت تعصف بعقله وروحه. ماذا بك يا قسطنطين؟، سألته الزوجة بقلق حقيقى. قال الزوج: ماذا بى؟.. أجل.. لماذا كُنتَ

عصبيًا ومتوترًا للغاية؟.. هل تتحدثين بجدية؟، قال هذا بلهجة مشوبة بالسخرية. قالت الزوجة: أنت تعرف أننى لا أمزح فى مثل هذه الأمور. ـ ربما كنت على حق!، قال هذا وهو يؤمن على ما قالت ويهز رأسه بلطف. ـ فقالت لماذا؟.

وهنا رمقها قسطنطين بنظرة حافلة باللوم وقال: لأنك تعرفين ـ لا.. أنا لا أعرف وأتوقع أن تخبرنى أنت. وبدأت نظرته اللائمة تزداد شيئًا فشيئًا، كما لو كان يعزو إليها السبب فى حالته النفسية السيئة، ولكنه لم يقل شيئًا هذه المرة. فقالت أليكساندرا: لماذا لا تجيب؟ ـ ماذا أقول لك. لقد سئمت بالأحرى من ترديد ذلك. قال ذلك وهو يكاد يغمغم بالكلمات. ـ ولأى سبب؟ ـ لأسباب كثيرة ـ هل أنت قلق على مصير الشركة؟ ـ بالطبع.. إن الظروف ليست مواتية. كما أن الأحوال هناك قد غدت هشة وخرجت عن السيطرة بسبب التغيرات التى تحدث بكثرة فى القوانين السائدة. ثم توقف برهة عن الحديث كما لو كان يريد أن يستنشق الهواء ثم قال: وللأسف، فليس هذا هو السبب الوحيد.

ـ وماذا هناك أيضًا؟، سألت الزوجة الشابة متظاهرة بعدم الاكتراث. ـ أنت تعلمين علم اليقين، يا أليكساندرا، ماذا يسبب لى المشاكل ويزعجنى.. فلا تتظاهرى بأنك لا تعرفين هذا.. فيا ليت السبب الوحيد كان الشركة. تحدث الزوج بصوت مرتفع وتبدلت ملامح وجهه. فقالت الزوجة: ماذا تريد أن تقول؟ ـ إننى أتحدث عن الوضع فى المنزل... أعنى عنا كلينا، يا أليكساندرا... هل تتظاهرين بعدم الفهم؟.

كانت أليكساندرا تفهم جيداً ماذا كان يتحدث عنه قسطنطين، ولكن لم يكن لديها المزاج ولا القدرة على احتمال النقاش معه مرة أخرى فى هذا الموضوع. ففى الآونة الأخيرة لم يفعلا شيئًا آخر سوى إثارة الموضوعات نفسها، وسوى إنفاق الوقت فى مشادات نارية دون التوصل أبداً إلى أية نتيجة. لقد تحدثنا فى هذا واستنفدنا الحديث فيه، قالت الزوجة هذا بصوت خفيض بعد أن ابتعدت عن زوجها بمسافة، كما لو كانت لا تتحمل البقاء بالقرب منه، أو كما لو كان يضايقها غضبه واحتداده أو تؤلمها الطريقة التى كان يحدثها بها، ثم قالت: إننى فى حاجة إلى وقت خصوصًا بعد تعرضى للإجهاض... أجل إننى فى حاجة إلى بعض الوقت. ـ وقبل تعرضك للإجهاض؟ ماذا كان يحدث؟ وماذا كانت مشكلتك؟. ـ ماذا تعنى؟ ـ أعنى أنه كانت هناك مشكلات قبل إصابتك بالإجهاض... أم ترانى أختلق هذه التصورات؟ ـ إنك تبالغ ـ لا تظهرى نفسك على أنك حمامة بريئة وديعة من فضلك، فهذا لا يناسبك. ـ أنا لا تعجبنى لهجتك فى الحديث، يا قسطنطين، ولا المقارنات التى تعقدها. وبهذه الطريقة لن نصل أبداً إلى نهاية نرتضيها. ـ لو كنت تريدين الحقيقة، فإننى أخشى أن أقول إنه لم يهتز لك جفن عندما فقدنا الجنين!. ـ هذا كذب وافتراء، صرخت الزوجة.

ولكن عندما انتبهت أليكساندرا إلى حدة صوتها، استأنفت الكلام بعد أن خفضت صوتها وقالت: إنك ظالم وقاس فى حكمك. رشقها قسطنطين بنظرة تقطر غضبًا وحنقًا ثم قال: هل أنا ظالم

وقاس؟ أنا؟ لماذا إذن تزوجتنى، يا أليكساندرا؟ هذا ما أسأل به نفسى.. لماذا فعلت ذلك؟. سألها مباشرة وهو يقبض على معصم يدها بقوة وعنف قبل أن تفلح فى الابتعاد عنه. كانت تلك هى المرة الأولى التى جرؤ فيها قسطنطين على التفوه بمثل هذه الألفاظ بغير أن يتلعثم. لماذا؟، كرر السؤال والغضب يكاد يعصف به.

ولكن أليكساندرا لم تعد تصغى إليه، إذ غمرت كيانها فجأة موجة من النار المستعرة فجعلت جسمها بأسره يتلظى نارًا، وكأن هذه الحركة التى أقدم زوجها عليها قد أيقظت داخلها ذكريات قديمة... صورة كانت فى طريقها إلى أن تغدو باهتة حائلة، عاشتها قبلاً خارج متحف التماثيل الشمعية. وجعلت بدنها يقشعر بكامله.

لماذا؟ قولى لى لماذا تزوجتنى إذن؟، كرر قسطنطين هذا السؤال بعنف أشد وطأة.. ماذا قلت؟، تمتمت كما لو كانت تفيق من سطوة حلم.. ـ ألم تسمعينى وأنا أحدثك؟، صاح الزوج هذه المرة بصوت عال، ورمقته أليكساندرا بعينين مفتوحتين على اتساعهما وهى عاجزة عن أن تنبس ببنت شفة. وهنا استطرد الزوج قائلاً: إنك لا تسمعيننى إطلاقًا كلما تحدثت إليك.. هذه هى المشكلة.. إن عقلك مشتت باستمرار. تنظرين إلىّ وكأنه لا وجود لى أو كما لو كنت تنظرين عبر جسدى.. إنك لم تنظرى أبدًا إلى وجهى!.

اهدأ يا قسطنطين، من فضلك.. لقد فقدت صوابك. ـ تقولين فقدت صوابى؟. ـ أجل! وهذه هى الصراحة.. ولست على استعداد أبدًا لكى أسمع من جديد هذا الهذيان وهذا اللغو الفارغ. كانت

أليكساندرا تتحاشى كعادتها دائمًا أن تطرق هذا الموضوع. ففى كل مرة كان زوجها يريد أن يعرف مشاعرها تجاهه، وأن يقف على الأسباب التى كانت تبعدها عنه دائمًا، والتى كان من نتيجتها وجود هذا البرود السائد بينهما، كانت الزوجة تعزف عن التصدى للمشكلة وجهًا لوجه، كما كانت تتهرب من النقاش معه باستمرار.

لماذا تتهربين من النقاش معى؟. ـ أنا لا أتهرب من النقاش معك بحق الله ـ لماذا تتهربين من النقاش معى، يا أليكساندرا، كرر الزوج سؤاله بإصرار وكأنه لم يسمع إجابتها. ببساطة لأنه ليس لدى شىء.. ليس لدى شىء آخر أقوله لك. لقد تناقشنا فى هذه الأمور مرات كثيرة، قالت الزوجة. ومع ذلك فإن مشكلتى لم تنحل، قاطعها الزوج ثم استآنف حديثه قائلاً: إننى أنتظر جوابك.

ـ ماذا تنتظر؟. ـ أنتظر أن تتقبلى الحقيقة فى خاتمة المطاف لنهدأ بالاً.. ماذا أتقبل، يا قسطنطين؟، وبدا واضحًا هنا أن أليكساندرا غاضبة. قال الزوج: من الواضح أنك لم تعودى مغرمة بى.. وربما لم تحبينى قط.... قالت الزوجة: لن أظل هنا وقتًا أطول فمن الواضح أنك تستجوبنى مرة أخرى، قاطعته الزوجة بحدة ثم قالت: إن لديك مشاكل ولذا فقد صرت عصبيًا، وسوف نتحدث فى هذا الموضوع مساءً فى المنزل. ـ إلى أين تذهبين؟. ـ عندى موعد. ـ مع من؟.

كان من الواضح أن نبرة صوت قسطنطين قد علت وأن ملامحه قد اكتست بالغضب، لكن أليكساندرا نجحت برغم ذلك فى أن ترد

عليه بفتور: مع زميلة لى فى المدرسة، وسنتقابل فى محل حلوانى جروبى. - ومن زميلتك هذه؟، قال هذا بنظرة تنطوى على الاستجواب وتزخر بالشك. - لماذا تسأل؟؛ كان من الواضح أن أليكساندرا لم تعد تحتمل المزيد. قال الزوج: من زميلتك هذه؟، أصر وألحف فى القول. - إنها فيفيان، ردت عليه الزوجة ببرود.

كانت أليكساندرا تذكر الحقيقة، وإن لم يكن هناك داع يدعوها للعجلة.. كانت الساعة آنذاك الثالثة والنصف وكان الموعد الذى حددته مع زميلتها فيفيان فى الخامسة بعد الظهر. وفضلاً عن ذلك فقد كان مكتب زوجها يقع فى شارع سليمان باشا فى وسط المدينة، وكان محل الحلوانى جروبى لا يبعد عنه سوى عشرات قليلة من الأمتار. وبمجرد أن أصبح قسطنطين وحده داخل مكتبه الذى يجعلك تحس بالاختناق - إذ كان الأثاث الموجود فيه ثقيلاً ومزخرفًا وعتيقًا فى زخرفته ونحته وكان يرجع إلى عصر والده - حتى شعر أنه لا يستطيع التركيز أكثر من ذلك فى عمله. إذ كانت حالته النفسية - خاصة إبان الشهور الأخيرة - لا تساعده على أن ينذر نفسه بالكامل لحل المسائل الحاسمة الخاصة بالمصنع، والتى تراكمت على كاهله وغدت تهدد مصدر رزقه فى حياته. كان قد خسر الجزء الأكبر من عملائه الذين كانوا يتكونون فى الغالب من كبار الموظفين الإنجليز، ومن حملة الألقاب السامية السابقين فى القصر، كما خسر أيضًا فى الوقت نفسه صلته الوثيقة بالمؤسسة الحكومية للتصدير.. لقد زادت الضرائب والجمارك وقلت الصادرات وتدهورت مبيعات المصنع بصورة حادة. وهكذا فقد أوشك شبح الفقر والإفلاس أن يدق بابه ما بين لحظة وأخرى.

وبرغم هذا كله فقد كانت هناك مشكلة واحدة حاسمة تظفر منه بالأهمية الفائقة وتشغل باله باستمرار، ألا وهى علاقته بزوجته. فلقد انقضت فترة من الزمن الآن على البرود الذى أقام بينهما جدارًا لا يمكن النفاذ منه، ولم يقتصر الأمر على هذا فقط فقد وصل الجفاف العاطفى بينهما بسرعة إلى مدى لم يكن قادرًا على تخيله، ولعل هذا حدث منذ الشهور الأولى لزواجهما فى شهر أكتوبر عام ١٩٥٢ . ولكنه على أية حال كان حينئذ مفتونًا بها لدرجة كبيرة حتى إنه عجز عن أن يلاحظ هذا الفتور أو يحس به.

كان قد مر على زواجهما أربع سنوات تقريبًا، وكان قد شعر بأن البرود الذى وجد بينهما ـ منذ الشهور الأولى كما أدرك فيما بعد ـ كان يتزايد باستمرار، وأن الفجوة القائمة بينهما قد فغرت الآن فاها وغدت مثل هوة سحيقة، أو مثل صدع عميق أحدث شرخاً فى الأرض العفنة التى كانت توحد بينهما. وكان قسطنطين قد غدا خلال الآونة الأخيرة بوجه خاص متشككًا مُرتَابًا ومحبًا للسخرية، كما كان غضبه يثور وينفجر فى وجه زوجته رغمًا عنه لأن حالته النفسية كانت سيئة. ومن ناحية أخرى لم يكن فى مقدوره أن يتحكم فى أعصابه، إذ إن احتماله وطاقته كانا موجهين فى محاولات مستمرة من جانبه، بغية كسب حبها وتغيير الوضع القائم بينهما طوال تلك السنوات. وكان قسطنطين قد اعتقد مع حملها الذى حدث منذ عام تقريبًا، بعد محاولات عديدة من جانبها لكى يظل حملها سليمًا ـ أن الأمور سوف تتغير إلى الأفضل، وأن وجود طفل لهما سوف يقرب بينهما. ولكن عندما تعرضت للإجهاض فى الشهر

الخامس من حملها وانجرفت بكاملها إلى عالمها، أحس الزوج بخيبة أمل عميقة وكان من نتيجة ذلك أن اتسعت الهوة القائمة بينهما بصورة تنذر بالخطر. لقد غدت الهوة التى فغرت فاها تحت أقدامهما هوة من العسير ردمها، ومن الخطورة بحيث باتت تهدد بابتلاعهما.

فعندما عاد قسطنطين من ألمانيا إلى مصر فى صيف عام ١٩٥٢ ـ بعد مرور أيام قليلة على قيام ثورة يوليو التى غيرت الوضع السياسى فى مصر بصورة جذرية كما غيرت صورة مصر كلها بوجه عام ـ وضع نصب عينيه أن يرحل مجدداً إلى الخارج لاستكمال دراسته، بعد أن يعلن رسميًا خطبته لأليكساندرا. وفى الحق إن الفرصة لم تتح لكليهما أبدًا لكى يعلنا مشاعرهما أو أن يعبرا عنها ـ وبوجه خاص الفتاة نظرًا لصغر سنها ولطبيعة العلاقة الخاصة بها ـ حيث كانا دائمًا تحت سمع والدى أليكساندرا وبصرهما. ولكن تلك القبلة التى منحها لها فى شرفة منزلها المظلمة قبل سفره بقليل، قد محت إلى درجة كبيرة كل شك فى نفسه، وأوجدت داخله آمالاً وتطلعات حافلة بالتفاؤل من أجل مستقبل مشترك يوحد بينهما.

كان يعلم حق العلم أنه مهما حدث ومهما تعرف على أية امرأة أخرى أن أليكساندرا هى صنوه ورفيق حياته.. فقد عرفها منذ عهد الصبا وكان يذاكر لها دروسها، حينما كانت تلميذة فى الصف الأول من المدرسة الثانوية، بعد أن أنهى دراسته للمرحلة الثانوية.

كان يراها وهى تشب عن الطوق ويتشكل قوامها شيئًا فشيئًا، منذ طفولتها حتى صارت فتاة يافعة فاتنة جذابة. وكانت هذه المزية - وأعنى بها مراقبته لنموها وتطور ظهور مفاتنها منذ الصغر - هى التى تحرك مشاعره تجاهها بصورة تفوق الخيال. وكان يعتقد على الدوام أن الزمن الذى نتقاسمه مع الآخرين هو العامل الأهم فى أية علاقة للحب أو للعشق - وفى حالتهما فقد كان ما جمع بينهما هو الحب والعشق معًا - كما أنه العامل الذى يدعم العلاقة ويقويها ويضع لها الأساس المتين.

إن الزمن يحصن البشر بطريقة فريدة لا يمكن فصمها، ويؤمن حياتهم مثل درع لا سبيل إلى تحطيمه مصنوع من ذهب صلب فولاذى، كما يقوم بحمايتهم من البوار ومن الذبول. ولم يقتصر الأمر على هذا وحده.. فقد كان يعتقد أيضًا أنه عندما يعود إلى مصر سيجد فتاته فى انتظاره هناك لكى توفر له الدفء العائلى الذى كان يحلم به، حيث إنه كان قد تشرب السكينة ونعم بالهدوء وسط أسرته.

وكان قسطنطين قد عقد فى الحق علاقات عشق مع الفتيات أثناء فترة دراسته فى ألمانيا، ولكن لم تتمكن واحدة منهن أن تحرك مكامن مشاعره وتفوز بقلبه أو تمتلكه قلبًا وقالبًا، إذ كان عقله طوال هذه العلاقات العابرة يهرع دومًا نحو أليكساندرا. لقد انطبعت صورة وجهها الفاتن فى وعيه، وطفقت توقظ مشاعره وتدفعه إلى الإحساس بالحنين إلى العودة، تمامًا مثلما استولت

الأماكن الساحرة فى مصر على لبه وعلى فكره. فقد كان يعشق هذا البلد، وكان يؤمن بأن هؤلاء الذين يعيشون فيه أو فى أمثال هذه الأحوال والظروف، هم وحدهم القادرون على فهم مشاعره تجاه أرض الفراعنة.

كانت خصوصية حياة اليونانيين فى مصر خصوصية فريدة، ولم يكن هناك سوى القلائل الذى يظفرون بمزية معايشتها. وكانت أليكساندرا واحدة من هؤلاء المصطَفَين الذين كانوا يعايشون الحياة بهذه الطريقة الفريدة المتميزة. وكانت ـ مثلها فى ذلك مثل قسطنطين ـ قد ولدت وشبت عن الطوق فى مصر، واكتسبت خبرات مثل التى اكتسبها هو تقريبًا. وكان قسطنطين يتساءل حقًا فى كثير من المرات عما إذا كانت الفتاة قد أحست بالأحاسيس ذاتها، التى أحس هو بها تجاهها على المستوى الشخصى؛ وكان يجيب على تساؤله هذا بأنها لم تكن لتستجيب قط لقبلته تلك، لو لم تكن تحس تجاهه بشىء أزيد من مجرد القبلات. ثم كان يسأل نفسه هذا السؤال من جديد مرارًا وتكرارًا كلما خلا إلى نفسه، وكلما تجسد طيفها بإصرار أمام ناظريه.

وهكذا، فعندما عاد من ألمانيا إبان ذلك الصيف أفضى إلى والده بمكنون قلبه ـ خلال حديث له مع والده عن مستقبله ـ وأعرب له عن رغبته فى خطبة أليكساندرا، حيث إنه كان يشعر بميل طبيعى قوى تجاهها. فانتهز والده الفرصة آنذاك وطلب منه أن يؤجل دراسته للدكتوراه وأن يجعل اهتمامه منصبًا على المصنع، فقد

كان والده يواجه مشاكل صحية خطيرة ولم يكن قادراً على الوفاء بالتزام عمله.. ولهذا ناشده أن يظل معه ولا يرحل. ولقد وافق الشاب على ذلك دون أدنى تردد، من ناحية لأنه كان يحس بالضعف تجاه والده ولم يكن يريد مضايقته بحال من الأحوال، ومن ناحية أخرى لأنه لم يكن يرغب فى المخاطرة فيفقد حبيبة قلبه أليكساندرا. ولكن الأمور لم تسر على النحو الذى كان يتخيله أو يتمناه أو يحلم به باستمرار، وكانت هذه حقيقة أدركها بسرعة منذ اللحظة الأولى التى قابل فيها حبيبة قلبه عند عودته إلى القاهرة خلال ذلك الصيف.

فلقد وجد أن الفتاة قد غدت جد مختلفة لدرجة أنه كاد ألا يعرفها.. بدت له فجأة يافعة ناضجة كما لو كانت قد انصرمت أعوام طويلة وليس بضعة أشهر منذ أن رآها آخر مرة... لقد بدت فى عينيه حقًا جذابة ساحرة أخاذة. لم يتسن له أبدًا أن ينجح فى البقاء بدون أن تتحرك مشاعر، أمام جمالها الأخاذ الذى كانت تؤكده تعبيراتها الحلوة المتسمة تقريبًا ببراءة الطفولة.. ومع ذلك فقد صار من الجلى الواضح الآن أنها تغيرت بصورة جذرية وبصورة كاملة وأصبحت شخصًا آخر مختلفًا جد الاختلاف.

وبرغم هذا كله فقد أغمض قسطنطين عينيه عن هذه الحقيقة الجديدة وتجاهلها، وأقنع نفسه بأن الموضوع فقط هو موضوع نضج وامتلاء ولا شىء غير ذلك... ببساطة لقد كبرت أليكساندرا ولم تعد تلك البنت الصغيرة التى عرفها، منذ أن كان غلامًا صغيرًا فى

سنوات دراسته الابتدائية، وبات لزامًا عليه أن يدرك أنها غدت نسخة ناضجة من بنت الأمس الصغيرة. أما الحزن الدائم الذى كان يرتسم منذ ذاك الحين على وجهها الجذاب الفاتن، فلم ينجح قط فى أن يفهمه أو أن يطرد صورته من خياله مهما حاول وسعى.

وأثناء سيرهما على كورنيش الإسكندرية فى مصر إبان شهر أغسطس من فصل الصيف ذاته باحت له أليكساندرا - فى نوبة من نوبات الصراحة - بسرها الدفين وبمغامرتها العابرة نكدة الطالع - على حد وصفها - التى انتهت بنهاية مؤسفة وتركت آثارها على روحها. وعندما سمع قسطنطين ذلك ارتجف فى البداية من الرعب وذعر ذعرًا شديدًا، ولكنه عندما أعاد التفكير قرر أنه يجب عليه أن يتقبل الوضع وأن يتغاضى عما حدث. ثم إنه أقنع نفسه بوجه خاص أن فتاته لم تكن مسئولة عندما اختار السفر بعيدًا عنها، لإكمال دراسته وتركها فى هذه السن الحساسة التى يسهل فيها إغواءها عاطفيًا، بغير أن يفاتحها مرة واحدة برغباته ومراميه.

لقد تغيرت الأزمان ولم يعد قسطنطين قادرًا أبدًا على المضى قدمًا ضد التيار الجارف الكاسح، وكان يعتقد بوجه خاص أن تجربتها هذه - تمامًا مثل تجاربه مع الفتيات اللائى عرفهن فى ألمانيا - سوف تكسبها مزيدًا من النضج، فضلاً عن أنها سوف تدعم قرارها بالزواج منه. وفضلاً عن ذلك فإن غالبية رفاقه من الطلاب ورفيقاته من الطالبات، اللاتى عرفهن هناك كانوا قد حطموا التابوه والتقاليد البالية العتيقة - على حد وصفهم - وتمردوا على النزعة المحافظة السائدة بين الحربين العالميتين،

وتشربوا بمظاهر التحرر الاجتماعى فعقدوا أواصر علاقات عشق جسدية قبل الزواج.

وهكذا فعندما شاهد شجنها وهو ينعكس على مقلتى عينيها، بادر إلى احتضانها ومعانقتها وقام بمواساتها على غرار ما اعتاد فعله منذ طفولته، عندما كانت تصطدم بشىء يؤلمها أو تقع من فوق دراجتها. ثم قام قسطنطين بتهدئة روعها وحدثها عن مشاعره التى كان يكنها تجاهها منذ مطلع شبابه وربما قبل ذلك بكثير، ثم ذكر لها فى النهاية خططه ومشروعاته لمستقبلهما المشترك. ولدهشته ـ كما اعترف فيما بعد بينه وبين نفسه ـ قبلت أليكساندرا عرضه للزواج بدون أدنى تردد.

* * *

وعندما خرجت أليكساندرا إلى الطريق غشى بصرها بفعل ضوء الشمس الساطع، ومع ذلك فقد بدا لها أن هذا النور ينقلها إلى مرحلة أخرى من مراحل حياتها، مرحلة أكثر إشراقًا وحبورًا، مرحلة مفعمة بالسرور والتفاؤل. تنفست بعمق كما لو كانت قد كتمت أنفاسها لردح طويل من الزمن، ربما منذ اللحظة التى ولجت فيها قدماها مكتب قسطنطين، وأحست بالارتياح والنشوة.

وفى الحق إنها كانت كلما التقت بقسطنطين ـ خاصة خلال الشهور الأخيرة بعد الإجهاض الذى تعرضت له والذى كاد يكلفها حياتها ثمنًا له ـ شعرت بأنها تختنق وبأن مزاجها كان يهبط إلى درجة الصفر، وكأن وجوده إلى جوارها كان يخنقها... وكانت

أليكساندرا تجد سرورًا غامرًا فى وحدتها أكثر مما تجده فى التقائها بزوجها أو جلوسها معه. كما كانت تشعر بالبهجة والحبور حينما كانت تعيش بمفردها بعيدًا عنه، وإن كانت تصبح حينئذ عرضة لوخزات مؤلمة من الذكريات.. ومع ذلك فلم يكن بوسعها التصرف بطريقة أخرى ولم يكن هذا فى متناول يدها. وفى كل مرة حاولت الاقتراب منه كانت قوة جبارة كامنة داخلها تبعدها عنه باستمرار بصورة أزيد، وكأنها كانت تدفعها أو تطوح بها بعيدًا جاعلة إياها تسأل نفسها: ترى ما ذنب هذا المسكين؟ ترى هل كانت العلاقة القديمة التى جرحتها بصورة جد ظالمة هى التى كانت لا تزال تؤثر فيها؟ وكلما سألت نفسها هذه الأسئلة وأمثالها لم يكن بوسعها أن تعثر على إجابة شافية لها، رغم أن صورة الضابط الشاب الوسيم كانت لا تفتأ تقفز أمام ناظريها وتقتحم عليها فكرها وكأنها حلية براقة عتيقة الطراز.

اختلطت أليكساندرا بالجموع الغفيرة المفعمة بالحيوية والسرور التى كانت ماضية فى الاحتفال الحار الصاخب بحماس لا مثيل له... عربات مزينة بشرائط ملونة وأكاليل من الزهور فى موكب لا نهاية له، تحمل النساء والأطفال الذين كانوا يصيحون ويهتفون. وكان بجوارهم رجال أصغر أو أكبر سنًا يهتفون بحياة زعيمهم المحبوب ويعبرون عن فرحتهم الغامرة بتوليه زمام السلطة ورئاسته للجمهورية، ويرقصون على نغمات متنوعة وإن كانت رتيبة تنساب من الدفوف والطبول. لوحات ولافتات لا حصر لها بعضها دونت

عليه آيات من القرآن الكريم وأخرى صورت عليها صور الرئيس كانوا يرفعونها ويسيرون بها وكأنهم موجات بحر متدفقة.

افتر ثغرها عن ابتسامة من هذا المشهد الغريب الذى كانت تراه، برغم أنه كان مشهدًا معتادًا، وقالت لنفسها كم يبدو شعب مصر مسرورًا فرحًا رائق المزاج! وكم هو ينسى بسرعة عذابه وكم يبتسم فى تفاؤل بالغد الذى يشرق عليه محملاً بالوعود التى تعلن عن مقدم أيام أكثر إشراقًا! كانت هذه هى النعم التى حبا بها الله طبيعة المصريين، جنبًا إلى جنب مع الصبر والتحمل والتسامح والقدرة على احتمال المكاره بلا حدود... أجل! كانت هذه هى المزايا التى يتمتع بها الشعب المصرى وحده، وهى التى جعلته مختلفًا عن جميع شعوب الأرض الأخرى، كما أنها المزايا التى أحبتها هى بوجه خاص فيه. وفضلاً عن ذلك فقد كان شعبها المفضل هو الشعب المصرى، وأناسه هم الأناس المفضلين عندها. ولقد أحست بهذا الإحساس منذ نعومة أظفارها. ومنذ أن بدأت تدرك ما يدور حولها وتشارك فى أنشطة الحياة المختلفة... لقد شبت عن الطوق وسط ضحكات الناس فى مصر ووسط أصواتهم ورضعت أمثالهم وحكاياتهم وحكمتهم الفطرية كما يرضع الطفل الوليد لبن الأم، وكانت تمرح وتلهو فى احتفالاتهم وتشاطرهم الأحزان فى المهم وأساهم.

يا إلهى!... كم كانت تعشق هذا البلد! لم تكن تريد أن ترحل أبدًا عن هذه الأرض الطيبة وكانت تتمنى ذلك من أعماقها، كما كانت

تبتهل أن تهدأ شكوك قسطنطين ومخاوفه سريعًا من أجل ذلك.
كانت بالفعل قد نسيت مشاكلها التى كانت تعذبها، أو ربما كانت بالأحرى قد امتنعت عن التفكير فيها أو الانشغال بها. وكانت شمس يوليو الصيفية تدغدغ برقة مشاعرها، كما كانت النسمات الرقيقة الناعمة تهب على وجهها وتنفث فيه نفثة من التفاؤل. كان الهواء دومًا يعمل على تحريرها وتخليصها من الألم خلال لحظات حياتها القاسية.

أفسحت أليكساندرا الطريق لكى تمر مجموعة من الأطفال الصغار، وطفقت ترمق وجوههم الجميلة المرحة السمراء، وارتسمت على شفتيها ابتسامة مريرة. ولكن لا! إنها لن تدع أى تفكير سلبى يبدد الأمل الذى ولد فجأة داخلها... فعاجلاً أو آجلاً كانت تشعر أن الحياة كانت تدخر لها مفاجأة سارة كانت تستحقها بل هى أهل لها مع ذلك.

وبينما كانت تمر أمام سينما مترو لاحظت أنها كانت تعرض فيلمًا فرنسيًا كانت تنوى أن تشاهده منذ أسبوعين... ولم تكن قد ذهبت إلى السينما بصحبة قسطنطين منذ وقت طويل.. لقد أزف الوقت... وعلى أية حال، ففيما عدا اللقاءات الأسرية فى المركز اليونانى، أو وجبات الغذاء الخاصة بالعمل والتى كانت مضطرة لحضورها، كانت أليكساندرا تتحاشى الخروج مع زوجها، لأن لقاءاتهما كانت فى معظم المرات تنتهى باحتكاكات غاضبة بينهما.

ربما عَنّ لها أن تطلب من فيفيان زميلتها فى المدرسة - وهى يونانية كاثوليكية من أصل سورى - أن تصحبها لرؤية هذا الفيلم. اللهم إلا إذا تعللت صديقتها هذه بأنها مخطوبة. ولعلها فى هذه الحالة ستقرر أن تذهب إلى السينما بمفردها.

(٩)

وكانت أليكساندرا معتادة على زيارة السيدة بيلا بين الفينة والأخرى فى حى الموسكى، وهى منطقة فى قلب القاهرة من أكثر المناطق ازدحامًا بالسكان، وكانت غاصة دومًا بالناس وزاخرة بالضجيج وبالحركة والزحام، حيث إنها كانت مركزًا تجاريًا شعبيًا يحب الناس ارتياده ويقبلون على التسوق منه. وكانت السيدة بيلا سليلة أسرة أرستقراطية من تجار القطن، ترجع أصولها إلى مدينة الزقازيق بمحافظة الشرقية؛ وكانت أرستقراطية حتى النخاع كما كان يصفها زملاؤها عادة، ولكنها حرمت من أن ترث تركة والدها لسبب لم تفصح عنه أبدًا لأى مخلوق كان. وحيث إنه لم تتح لها وسائل للعيش تحيا بها، فقد وفدت إلى مدينة القاهرة عام ١٩٣٢وعملت بها مدرسة فى مدرسة أخيلوبولوس، وكانت آنذاك فى سن متقدمة نسبيًا. وبرغم ذلك فقد تقاعدت عن العمل بعد مرور سنوات قليلة، عندما تدهورت صحتها التى ساءت بالفعل خاصة بسبب إدمان الشراب. وكانت معاناتها من هذا الداء معروفة فى الأوساط المدرسية، ولكن لم يجسر أحد قط على أن يمس هذا الموضوع من قريب أو من بعيد أو أن يحادثها بصدده علانية، برغم

أنه كان موضوعًا أساسيًا للحديث المعتاد فى دوائر المعلمين خلال أوقات التوقف عن التدريس.

وكانت هذه السيدة الأرستقراطية القديمة مدرسة لأليكساندرا فى الصفوف النهائية للمدرسة الابتدائية، وكانت مدرسة ذات حديث طلى جذاب وامرأة ذات قدرة على التفاهم مع التلميذات، ولذا كانت البنت الصغيرة تعشقها بصورة كبيرة، وتحافظ على علاقتها بها وتحرص على الالتقاء بها كلما سمحت بذلك الظروف، برغم أن السيدة بيلا - إضافة إلى تدهور صحتها - كانت قد أشرفت على الثمانين من عمرها. كانت تعيش بمفردها تمامًا ولم تتزوج قط كما كانت تصرح هى نفسها، وكانت أليكساندرا هى الوحيدة من بين تلميذاتها التى كانت تداوم على زيارتها: وفى الحقيقة كانت أليكساندرا هى الصديقة الوحيدة التى تصلها بالعالم إبان العامين الأخيرين، حيث إن مُدَرِّستها السابقة لم يكن لها أى أقارب يهتمون لها، وحيث إنها بعد أن تدهورت صحتها كانت تتحاشى الخروج من المنزل.

وكان الرباط الذى لا تنفصم عراه بين المدرسة وتلميذتها قد ازداد على نحو أوفر، خلال ذلك الصيف الذى أنهت فيه أليكساندرا دراستها بالمدرسة قبل أعوام أربعة. وكانت الفتاة آنذاك قد أدركت بغريزتها أن السيدة بيلا ربما كانت هى الإنسان الوحيد الذى كان بوسعه أن يفهمها وأن يساعدها، ولذا فقد اتجهت إليها ووضعت على كاهلها حملها الثقيل وأسرت إليها بمكنون نفسها. ولقد تقبلت

السيدة العجوز ذلك منها بصبر واحتمال، برغم أنها لم تكن تملك ما يكفى من رصيد القوة وما يكفى من رصيد الروح.

وحينما كانت أليكساندرا تحاول اختراق ذلك التيار البشرى الذى كان يسد تقريبًا مدخل الطريق الضيق، الذى كان يؤدى إلى الزقاق المسدود الذى كان يوجد فيه منزل السيدة بيلا، وبالتحديد فى آخره، استلفت نظرها مشهد غريب برغم كونه ليس نادرًا، وبدا واضحًا أنه بدأ فى الحدوث منذ وقت مبكر. كان هناك رجل يرتدى جلبابًا فى حوالى الأربعين من عمره يضرب امرأة ـ ربما كانت زوجته ـ أمام حشد تجمع لرؤية هذا المشهد، وكان الحشد يسعى جاهدًا فى يأس لحماية المرأة من الضربات واللكمات المجنونة ـ وكانت المرأة تمطره باللعنات وتسبه بأقذع الصور وتصرخ صراخًا عاليًا. بينما كان هناك طفلان صغيران يقفان على مقربة من الزوجين المتشاجرين، وهما يبكيان وينتحبان بحرقة.

تضايقت أليكساندرا بصورة تفوق الخيال من مشهد الزوجين المتشاحنين، وكذا من مشهد الطفلين الباكيين بلا إنسان يسرى عنهما... فلم تكن تعرف حقًا ماذا حدث، وهل كان أمرًا خطيرًا ذلك الذى أثار ثائرة الرجل وأحنقه بحيث دفعه إلى الغضب، وجعله يهجم على زوجته التعسة بمثل هذه القسوة البالغة، فى وسط الطريق وأمام الأعين المندهشة للمارة العابرين الحافلة بالفضول. أما الطفلان فما ذنبهما؟ وكيف أصبحا شاهدين على هذا المشهد الذى تقشعر منه الأبدان؟

احترسى، يا سيدتى!... حذرتها امرأة مسنة ذات نظرة شفوقة كانت تلتف بحرص بملاءة - وهى ذلك الزى الشعبى الذى يغلف الجسم كله - كانت تغطى جسمها الممتلئ. ثم استمرت قائلة بابتسامة وهى تنحنى تجاهها: لا تقتربى أكثر حتى لا تصيبك لطمة تسبب لك كدمة؛ وايم الله لقد جن الرجل. فها أنت ترين أنه قد غدا مثل الثور الهائج المجنون، وليس هناك أحد بمقدوره أن يهدئ ثائرته.

شكرتها أليكساندرا وانطلقت مبتعدة لا من أجل ألا تصيبها كدمة - على حد تعبير السيدة العجوز - بل لأنها كانت قد ارتعبت من هذا المشهد القاسى المحزن. تذكرت لهجة قسطنطين وصراخه الحاد الليلة الماضية فداهمها شعور أشد بالاكتئاب، فى حين انقبض قلبها وفكرت أنه ليس من العدل أن يتصرف تجاهها بهذه الطريقة. بينما كانت تجاهد لكى تشق طريقها وسط الحشد المتجمهر الذى كان يحتشد حولها أكثر فأكثر وكاد أن يسبب لها الذعر.

كانت حالة قسطنطين النفسية قد تغيرت إلى الأسوأ خلال الآونة الأخيرة. فصار جافًا حادًا كثير الشجار بعد أن فقد صبره ولم يعد يحتملها. ولم يعد ذلك الإنسان الرقيق الزاخر بالتفهم الذى عرفته. خاصة أمس حينما كف عن تدليلها ومداعبتها وثارت ثائرته أكثر عندما ارتجفت أليكساندرا من رد فعله العنيف. فلقد أفزعها التغير المفاجئ فى سلوكه وتصرفاته التى غدت أشد عنفًا وقسوة.

وبرغم هذا كله فقد كانت تلتمس العذر لتصرفاته خاصة حينما ألمحت إلى حدود خشونته، حيث إنها كانت فى أعماقها تعرف السبب ـ فلقد عزت ذلك بطريقة حصرية إلى عدم مبالاتها وإهمالها له وإلى غياب شعلة العشق منذ الأيام الأولى لزواجهما: وعلى الرغم من طبع زوجها الثائر الغاضب فقد كان إنسانًا طيبًا كريم النفس. لم يكن من حقها أن تتصرف معه بمثل هذا البرود ـ كانت تدرك ذلك ـ ولكن كان من المستحيل أن تتحكم فى نفسها أو أن تسيطر على مشاعرها أو أن تضبط مسار سلوكها.

وعندما عاد قسطنطين من ألمانيا فى ذلك الصيف الحافل بالأحداث، كان إصراره على البقاء باستمرار بقربها قد هز مشاعرها، ولكنه فى الوقت نفسه قد أثار رعبها. فلم تكن قد أفاقت بعد تمامًا من خيبة أملها، وكانت تشعر بالقلق من أن يفضح إرهاقها ووجهها الممتقع مكنون سرها. ولكن عندما عادت إلى صوابها بعد ذلك بقليل وسافرت مع والديها إلى الإسكندرية، استعادت شجاعتها وتغيرت حالتها النفسية: وأمضت معه هناك أوقاتًا رائعة وهى حقيقة كانت توافق عليها وتقر بها، إذ ساعدتها صحبته وهدوءه على أن تستجمع شتات نفسها، وأن تعثر على نفسها من جديد، وأن يعود إليها احترامها لنفسها وثقتها بنفسها بعد أن داستها الأقدام بقسوة وفظاظة. لقد شعرت برغبة جارفة فى مرات عديدة فى أن تحدثه عن علاقتها بعادل، لكى تتخلص بصورة أكثر فعالية من ذكرى الضابط الشاب التى لم تتركها ثانية واحدة تهجع للراحة، ولكنها كانت تندم على هذا الخاطر فى

اللحظة الأخيرة وتصرف النظر عنه... فلم تكن واثقة من أن قسطنطين سوف يتفهم الأمر. برغم أنها كانت تعرف أنه إنسان عصرى صاحب مفاهيم حديثة وأفكار تقدمية، فإنها كانت تخشى أنه فى الأمور التى تمس الدين والعقيدة والمنشأ والعرق سيكون بالأحرى متشددًا بلا شفقة ولا رحمة.

وعندما نجحت فى خاتمة المطاف فى إماطة اللثام عن سرها وحدثته عن العلاقة (الآثمة) التى أصابتها بمرارة كبيرة، وجعلتها تحس بالهوان كإنسان وكامرأة ـ دون أن تشير ولو من طرف خفى إلى التفاصيل الخطرة والمؤلمة ـ فإن قسطنطين بادر إلى مساعدتها والوقوف بجانبها. لقد نحى جانبًا أنانيته وابتلع كبرياءه وأنصت إليها بصبر بالغ حتى النهاية، ثم احتضنها فى صدره واعدًا إياها ببداية جديدة، وأكد لها أنه سوف ينسيها كل شىء. ولم يكتف بهذا وحده ولكنه ألقى المسئولية فيما حدث على كاهله وحده، ألقاها على جبنه وتقاعسه عن أن يبوح لها بمشاعره، وعن أن يمنحها وعدًا واضحًا صريحًا قبل سفره إلى ألمانيا فى المرة الأخيرة.. لقد أظهر تفهمه الكامل. وكرمه البالغ. ولقد جعلتها شهامته والطريقة التى عالج بها مثل هذه القضية الحساسة. ورد فعله تجاه كل ما باحت به من مكنون سرها، جعلتها كل هذه الأشياء تحس بالتزام وواجب نحوه، فاعتبرت امتناعه عن انتقاد مسلكها فعلاً خيرًا يستحق الإشادة منها.

فماذا يمكن أن تتوقعه أكثر من ذلك من جانب رجل؟ وماذا كان فى مقدورها أن تمنحه بدورها أكثر من أن تقبل عرضه للزواج؟

وهكذا فعندما عرض عليها قسطنطين الزواج قبلته من فورها، قبل أن تبحث الأمر فى داخلها وقبل أن تفرز رغباتها وتستشير مشاعرها. التمست منه بوجه خاص أن يبادر كلاهما لعقد الزواج، وأخذت هى على نفسها عهدًا بأنها ستحاول أن تكسب قلبه وأن تمنحه حبها. ومنذ ذلك الحين انصرمت أربع سنوات، ولكنها لم تحافظ أبدًا على الوعد الذى قطعته على نفسها، نظرًا لأنه لم يتغير شىء بداخلها تغيرًا جوهريًا. بل على العكس من ذلك فقد ساءت الأحوال أكثر، وصار الصدع القائم بينهما وكذا الفجوة التى بينهما أكثر عمقًا، صار الأمر ينذر بالخطر، وصارت أليكساندرا تطرح على نفسها سؤالاً مهمًا: ترى هل تسرعت فى الزواج؟

وربما كانت تتألم آنذاك كثيرًا لدرجة أن عقلها صار عاطلاً ولم يعد يفكر تفكيرًا سويًا. لا! لا! لقد غدت الآن واثقة من أن فكرها قد بات مشوشًا... فبعد أن جرحت جرحًا لا براء منه، كانت تحس بالحاجة إلى أن تجد مؤازرة تعيد لها ثقتها بنفسها وحبها لذاتها: ولقد قبل قسطنطين بفرحة غامرة أن يلعب هذا الدور. ولم يكن ما تخاف منه وتخشاه هو الألم الناجم عن الانفصال غير المبرر وعواقبه الوخيمة... بل كان ما يخيفها هو إحساسها بالمهانة الذى كان يطاردها مثل عدو قاس لا يرحم، جنبًا إلى جنب مع نظرات والديها المرتابة، كلما حاولا أن يقفا على سر تغير مسلكها وتصرفاتها ـ حيث كان أحدهما يهمس فى أذن الآخر ـ وأن يدركا سر لهجتها اليائسة على الدوام. كم كانت تشعر بالرعب من أن يكتشفا شيئًا بصددها!.. لسوف يموت والدها بالتأكيد من فرط خجله وشعوره بالعار.

ولكن عندما كان يقر فى روعها أنها تسرعت وأن هذا التسرع كان ينطوى على ظلم لقسطنطين، كانت تندم ولكن هيهات فقد تأخر الوقت جدًا على الندم.. لقد تزوجته وانتهى الأمر. ومنذ ذلك الوقت بدأت الأعذار والتبريرات: فى البداية كانت تتعلل بثقل حمل البرنامج الدراسى فى الجامعة وصعوبة الامتحانات، ثم من بعد ذلك كانت تتذرع بآلام الحمل المبرحة، وبعدها كانت تتحجج بالإجهاض الذى حدث لها رغمًا عنها وهدد حياتها من جديد بالخطر. وعلى أية حال فإنه بعد صدمة الإجهاض لم تجد أليكساندرا أعذارًا أخرى ولم يعد فى جعبتها المزيد منها، فلقد انطفأت بالفعل الشعلة الذابلة، التى كان نورها يتذبذب، تاركة الزوجين يعانيان بشدة من البرودة التى حلت بسبب غياب هذا البصيص من النار. وفى الحقيقة لقد كانت هذه الشعلة الخافتة - التى تبقى على العلاقة بين الزوجين- غائبة على الدوام، ولكن مع مرور الوقت فإن غيابها، قد غدا دائمًا محسوسًا على نحو أكبر وأشد. ولم تعد أليكساندرا قادرة على أن تخفى غيابها ولا على أن تقدم مزيدًا من المبررات. فلقد نضبت المبررات بالفعل وبات عليها أن تواجه الحقيقة سافرة. فهل كانت قادرة يا ترى على فعل هذا؟

لا! إن أليكساندرا لم تجد لديها القوة على أن تبوح له بمكنون سرها... إن مواجهة الحقيقة أمر كان يرعبها كلما مر بخاطرها أو جال بعقلها. ومن ناحية أخرى فإن قسطنطين ليس مسئولاً عن تقلب مشاعرها وأحاسيسها، كما أنه ليس مسئولاً عن زلتها التى ارتكبتها. فلماذا إذن يدفع ثمنها؟ لا! إنها لن ترتكب الخطأ نفسه

مرة ثانية، بمعنى أنها ينبغى أن تصغى لصوت المنطق وأن تتبع غريزتها الداخلية... حسبها أنها فعلت ذلك مرة واحدة نتج عنها ما نتج. ومن جديد قطعت على نفسها عهدًا، بأنها ستحاول الاقتراب مرة أخرى من زوجها وأن تروض نفسها على حبه. ولكن ألم يكن هذا العهد هو العهد رقم ألف الذى حنثت به بطريقة منتظمة، دون أن تسعى للوفاء به طالما أن صورة شخص آخر كانت تهيمن على أعماقها؟.

نظرت حولها وأدركت أنها لابد أن تكون قد ضلت طريقها تمامًا فى هذه المنطقة. التى تشبه المتاهة بأزقتها الكثيرة التى كانت تتماثل مع بعضها، كما لو كانت نسخًا طبق الأصل من كارت بوستال قديم باهت حالت صورته. لم تكن تدرى أى طريق تسلك ولا من أى طريق تخرج من هذه النقطة المركزية، التى كان بوسعها أن تنطلق منها إلى خارجها بسهولة. وفى تلك الأثناء كانت وجوه كثيرة تمر بها وتنظر إليها، وجوه خمرية سمراء ذات نظرات صافية، وجوه وسيمة متألقة رغم رقة حال أصحابها.

وعندما انعطفت يمينًا وجدت نفسها أمام مدخل كوخ آيل للسقوط مكون من طابقين، ولمحت باب المدخل العتيق ذى اللون الأخضر الداكن ومقبضه المكسور، الذى اعتراه الصدأ والذى لا يزال معلقًا بعد كل هذا الزمن فكاد قلبها ينخلع من فرط وجيبه المخبول، وتردد فى أذنيها صدى زفرة حارة كأنها منبعثة من اللامكان، وصوت صليل غير منتظم كان يتزايد ويقوى باستمرار،

كما لو كان يريد أن يوقظ ذكرى غابرة حزينة، كانت مطوية فى غياهب النسيان ومطمورة داخل أغشية مخها. وسرعان ما بزغت فى ذاكرتها ذكرى قاتمة مزقت أحشاءها إربًا، مثلما كان يحدث فى كل مرة جراء حادثة أو جراء أمر عارض كان يوقظها بوحشية، وكان يجلب وراءه أحداثًا أخرى كانت تظل كامنة وهى متحفزة يعوزها الصبر، إلى أن تجد متنفسًا لها فى ثورة يغلب عليها الجنون. تذكرت حينئذ تلك الغرفة الرطبة المرعبة التى كانت موجودة تحت الأرض يغمرها الظلام، وتذكرت سقفها الذى تساقط طلاؤه ورائحة العفونة النفاذة، والقطرات التى كانت تتساقط من الرطوبة من خلال أحد الأركان غير المرئية فى الجدار، كانت هذه القطرات تتساقط فى بطء ورتابة فتعذبها وتجعل بدنها يقشعر، وكانت تتناغم تقريبًا فى تنافس مع صرير رنين الأقراط المذهبة الآتى من بعيد... تذكرت الوجه المبقع العابس للقابلة (الداية) التى كانت فى أواسط العمر، كان وجه القابلة صامتًا لا ينبس ببنت شفة، حيث كان منهمكًا فى إجراء عملية الإجهاض وإنزال الجنين. ثم من بعد ذلك ما إن انكسر ألم الجسد الذى كان فظيعًا ومبرحًا حتى غطى على صرخاتها، فلقد كانت الصرخات تبدو وكأنها حوصرت داخلها ولم تعد تسمعها، ولكنها كانت تشعر فقط بصدى حديثهما الذى يصم الآذان داخل جدران عقلها، وفى أعماق أذنيها اللتين صارتا بمثابة سد مكون من صخور غير مرئية... تذكرت أيضًا وجه السيدة بيلا المتقع وابتهالاتها الهامسة كى يتدخل أحد القديسين لإنقاذها، وتذكرت أيضًا الإناء الذى كان بجوارها والملاءات التى

اصطبغت بلون الدم الأحمر القاتم... وتذكرت خناجر الألم والندم الذى أسدل أستاره على أجفانها بعدها. ليحررها من عذابها وكأنه بلسم شاف حلو، أنجع وأكثر شفاء من سائر الأدوية والعقاقير على بكرة أبيها. كان ألمٌ بدنى وآخر نفسى يستوليان على أليكساندرا منذ ذلك الوقت مصحوبين بشعور حاد بالخجل.

هرعت فى طريقها بكل قوتها لا تلوى على شىء، بغية الابتعاد عن هذا المكان، ولكى تتخلص من الإحساس بالرعب والفزع الذى كان يتضخم كالمارد داخلها. كان المارة العابرون يتفحصونها بفضول بينما كان الدم قد غاض فجأة من محياها؛ ولم تعرف أليكساندرا كم من الوقت ظلت تجرى إلى أن اعتراها التعب، فتوقفت عن العدو وهى تلهث عند أحد المقاهى التى صادفتها فى طريقها. وكان صوت المغنية الشهيرة أم كلثوم ينساب من المذياع الموجود فى صالة المقهى مع تصاعد الدخان، وكان زبائن المقهى يستمعون فى نشوة إلى النغمات الساحرة وهم يدخنون النرجيلة. وواتت الجرأة أليكساندرا لكى تسأل بعض الزبائن القليلين، الذين كانوا يجلسون على مائدة صغيرة خارج المقهى عن الطريق. وعندما لاحظ رجل متوسط العمر يرتدى جلبابًا شعبيًا طويلاً وطربوشًا مائلاً على رأسه امتقاع وجهها. نهض بأريحية من على كرسيه لكى يدلها على الطريق، تاركًا على كرسيه المصنوع من الخيزران مبسم الشيشة التى كان يدخنها، حيث دلها على ممر ضيق كان يفضى إلى طريق رئيسى. ومن هناك لو أنها انعطفت يسارًا ثم يمينًا ـ كما قال لها ـ سوف تجد نفسها فى ميدان الأوبرا.

وما إن وصلت أليكساندرا إلى الميدان الرئيسى حتى زفرت زفرة ارتياح، وغطت وجهها الذى بلله العرق بظهر يدها ثم تنهدت بعمق. وكان الشىء الذى هى بحاجة إليه الآن هو أن تهدأ أفكارها الثائرة، وأن تهجع الوخزات المؤلمة التى كانت تعذبها. ولسوف يقدر لها أن تعود إلى حى الموسكى وإلى منزل مدرستها القديمة مرة أخرى، عندما تحس بأنها فى حالة أفضل. فها هى الآن موجودة بالفعل فى مكان مألوف لديها، على بعد قليل من القصر الملكى السابق فى عابدين ـ هذا المبنى الكبير الجليل الذى كان يرتفع شامخًا فى كبرياء فى قلب المدينة الصاخبة، والذى أصبح الآن مقرًا للرئاسة، حيث حدائق الأزبكية الغناء الجميلة وأشجارها دائمة الخضرة ونخيلها الباسق فى شموخ، وما تمنحه من ظلال ونسمات عليلة مريحة لزوارها.

قررت أليكساندرا أن تتمشى برهة من الوقت داخل هذه الحدائق لكى تغدو هادئة وتغشاها السكينة، ولكنها ندمت على ذلك الخاطر فى اللحظة الأخيرة. وبدلاً من أن تفعل ذلك فضلت أن تسير وسط المدينة وآثرت أن تكون فى وسط الحشود المتنافرة للناس، الذين كانوا يطنون مثل النحل، وأن تضيع داخل الضجة (المألوفة) التى كانت تحس أنها تلطف مشاعرها وتخفف من ثائرتها.

فلقد كان يروق لها دومًا أن تتجول فى شوارع القاهرة وأن تهيم وسط الألوان ووسط المتناقضات، وأن ترقب عن كثب الناس

المحيطين بها.. لابسى الجلابيب بجوار التجار ذوى الزى الفخيم، والسيدات الجميلات الأنيقات بجوار الفلاحات الغامضات المتبلات. اللائى يرمقن الأخريات بإعجاب من أجل جمالهن الأخاذ الذى لا تشوبه شائبة ومن أجل ملابسهن الأنيقة الجميلة، واللائى كن يصوبن تجاههن نظرات خالية من أى أثر للغيرة أو الحسد. كانت أليكساندرا تبحث دائمًا عن شىء فى هذه الوجوه، برغم أنها لم تكن تعرف ماذا كان بالضبط هذا الشىء الذى تسعى إليه وتبحث عنه. غير أنها لم تستطع أبدًا أن تجده أو تعثر عليه. ولكنها على أية حال استمرت فى التفرس فى وجوه الناس وفى البحث عنه فيها، كما لو كانت هذه عادة قديمة لا طائل من ورائها، حتى لو اعترفت بأنها غدت غير لازمة تمامًا، فإنها مع مرور الوقت بدت وكأنها تسيطر على فكرها أكثر وأكثر.

وبينما كانت مستغرقة فى أفكارها أحست بنفس خلفها يداعب شعرها، فتفكرت فى أمره والتفتت خلفها فجأة. ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى تحس فيها بهذا الإحساس القوى النفاذ، الذى يخيل إليها فيه أن شخصًا يتبعها ويقتفى أثر خطاها. ففى الآونة الأخيرة عندما كانت تسير بمفردها، شعرت تقريبًا على الدوام بأن هناك شخصًا موجودًا على مسافة قريبة منها يقتفى أثر خطاها... كانت تحس به وكأنه ظل أو خيال أو كأنه زفرة نفس خلفها تعبث بشعرها وتحركه حركة خفيفة.

أدارت رأسها بغتة مثلما كانت تفعل دائمًا عندما ينتابها هذا الإحساس، كى تشاهد من كان هذا الشخص المجهول الذى يسير فى أعقابها ليأخذها على حين غرة ولكى تباغته، ولكنها لم تر سوى أسراب المارة المحتشدة اللاهية التى كانت تذرع الطريق جيئة وذهابًا.

(١٠)

استدارت هذه المرة وهى مصممة على أن تكشف أمر هذا الشخص المجهول، إذ إن إصراره على أن يتبعها قد سبب لها الضيق بصورة لا يمكن تخيلها. وشعرت أن رصيد صبرها كله قد نفد. ولكنها كانت فى أعماقها تتمنى حقًا أن يكون ذلك الشخص المجهول، الذى تحس بأنه خلفها مثل النسمة اللطيفة المداعبة هو عادل. وبمجرد أن وصلت إلى الطوار المقابل صوبت أنظارها بحرص خلفها ولكنها لم تر شيئًا... وتفحصت وجوه المارة ولكن لم يبد لها أى وجه فيهم مألوفًا. ومع ذلك فقد كانت واثقة من أن هناك شخصًا ما كان موجودًا هناك وأنه كان يتبعها.

واصلت السير فى طريقها وهى مستغرقة مرة أخرى فى أفكارها وفى ذكرياتها، التى كانت تنبعث دائمًا بمجرد أن تكون وحدها. ولعلها كانت تنشد الوحدة حيث إن فيها فقط كانت الذكريات تنطلق من عقالها وتقفز من أعماق ذاكرتها، حتى إنه ليخيل إليك أنها كانت تنتظر انفرادها بنفسها، لكى تبزغ وتصبح من جديد حية بلا أدنى تغيير. وفى معظم الأحيان كانت تحاول أن

تطردها، ولكنها فى أحيان أخرى كانت تنشد من جديد أن تلفها فى عباءتها، حيث إنه على الرغم من أنها كانت تؤلمها فإنها كانت تحس كأنها ترياق، يحصنها ضد الحماقة وضد حياتها الخافتة المملة الخالية حقاً من النشاط والفاعلية. وعندئذ طفقت تسأل نفسها: ترى هل كانت غير راغبة تمامًا فى التخلص من هذه الذكريات؟ ففيما خلا آخر ذكرى لها داخل ذلك الكوخ...

أليكساندرا!!، تردد فى أذنيها صدى صوت مألوف لديها فشدها من أفكارها.. إذ تعرفت هذه المرة على وجه من الماضى القريب. لا سيما أنه وجه تحبه أكثر من سواه. أنجيليكى!، صاحت بأعلى صوتها فى وسط الطريق، فالتفتت رءوس المارة العابرين إلى النقطة التى انطلق منها الصوت. ألم يكن علينا أن نلتقى منذ عهد بعيد؟، ابتدرتها أليكساندرا بسؤالها هذا، بمجرد أن اقتربت الشابتان من بعضهما وتعانقتا بحرارة واشتياق. لقد مضت أربع سنوات تقريبًا منذ جنازة والدتى، قالت أنجيليكى. ـ أجل! لديك حق... أجل منذ ذلك الحين... أجابتها أليكساندرا بحزن وهى تقطب ما بين حاجبيها، بيد أنها ما لبثت أن غيرت بسرعة مزاجها النفسى وأضافت قائلة: كم أنا مسرورة برؤيتك!.

- وأنا أيضًا مسرورة جدًا، يا أليكساندرا، كان تعبيرها مشوبًا بالصراحة والتأثر.

- لماذا اختفيت؟

- أنا لم أختف

جذبت أليكساندرا صديقتها إلى موضع منعزل من الطريق. فقد كانت الضجة المنبعثة من السيارات تبعث على الضيق الشديد. وكانت كلتاهما لديها الكثير لكى تقوله لزميلتها. لقد فقدت آثارك منذ أن انتقلت إلى منزل آخر، وانتظرت أن تتصلى بى ولكنك لم تمنحينى ما يدل على أنك لا زلت على قيد الحياة، قالت لها أليكساندرا هذا بلهجة مازحة والدهشة تغمر صوتها.

ـ عندك حق. أجابتها أنجيليكى بابتسامة تدل على الندم ثم استطردت قائلة: كان يجب أن أتصل بك تليفونيًا ولكننى لم أكن فى حال طيبة.. فلقد واجهت مشاكل كثيرة. ـ ورغم مرور كل هذا الوقت لم تأت لزيارتى، أليس كذلك؟ ولا حتى حادثتنى تليفونيًا، شاكستها أليكساندرا بعطف ورقة ثم قالت: بما أننى لا أعرف عنوانك الجديد فقد حاولت أن أجدك، فسألت زميلاتنا من التلميذات القدامى. ولكن لم أجد واحدة منهن تعرف شيئًا عنك ولاعن ماذا حل بك. كأن الأرض انشقت وابتلعتك!.

ـ هذه هى الحقيقة.. لقد انعزلت وتقوقعت على نفسى. لقد كلفنى موت والدتى الكثير، وكأن هذا الأمر لم يكن كافيًا...، توقفت أنجيليكى عن الكلام ثم ابتسمت فى مرارة واستطردت قائلة: فبعد شهور من وفاتها فقدت والدى أيضًا. ـ والدك؟... ماذا تقولين؟.. إننى فى أشد الحزن لذلك.

ـ عندئذ وجدت نفسى فجأة وحدى تمامًا. وشعرت كما لو كانت الأرض قد زلزلت تحت قدمى، أو كما لو كانت جذورى التى تصلنى بها قد انقطعت. وفى ظرف عام واحد تغيرت كل أحوال حياتى.

- كان عليك أن تتصلى بى تليفونيًا.

- لقد رغبت فى فعل هذا، ولكن حالتى النفسية لم تسمح لى بذلك. لقد غمرنى اليأس وتملكنى القنوط. يا أليكساندرا، ولم تعد عندى أية رغبة فى أى شىء، وكأننى فقدت ثقتى فى الحياة نفسها.....

لم تقل أليكساندرا شيئًا بل تركتها فقط تستمر فى الكلام، برغم أن كلماتها الأخيرة قد مست شغاف قلبها وأثرت فى أحاسيسها.. - وعندئذ ظهر زوجى... - هل تزوجت؟. صاحت أليكساندرا بحماس ظاهر. تهانئى!. ولكن أنجيليكى أجابتها تقريبًا بغير حماس: شكرًا. يا عزيزتى....

- ومن سعيد الحظ؟ هل هو شخص أعرفه؟.

- لا! لا! إنك لا تعرفينه، أجابت أنجيليكى بسرعة وهى تخفض ناظريها. ثم من بعد ذلك تلعثمت لبرهة من الوقت ورمقت صديقها مرة أخرى ثم أردفت قائلة: إنه ليس منا.. أعنى أنه ليس يونانيًا.. إنه مصرى، ثم تطلعت إليها وقد تملكتها الحيرة، وكأنها كانت تشعر بالخجل أو كأنها تستجدى موافقتها.

أثارت هذه المعلومة غير المتوقعة دهشة أليكساندرا بصورة بالغة، فقد كان آخر أمر تنتظره هو أن تسمع من فم صديقتها أنها تزوجت من شخص مصرى. لقد كانت تعرف وجهات نظر أنجيليكى التى كانت تنتقد زميلاتها. اللائى كن يباهين بأن لديهن علاقات عابرة مع شبان مصريين: أما بخصوص الزواج بين يونانية ومصرى فقد

كانت تعارضه تمامًا... كان آخر شىء تنتظره إذن هو أن تسمع منها هذا. ولكنها عندما شاهدت حيرتها البادية حرصت على أن تهدئ روعها فقالت: ثم ماذا؟ وما الضير فى هذا؟.

- فى وسط يأسى الغامر وآلامى ووحدتى كان هذا هو أفضل شىء حدث لى، قالت أنجيليكى هذا وهى تحاول أن تبرر به سبب اختيارها، ثم أردفت قائلة: لقد شعرت بالامتنان تجاه هذا الشخص. أثارت كلمات صديقتها الأخيرة دهشتها الغامرة... كم هو غريب صداها فى آذانها.. هل قالت الامتنان؟ ولكن ألم تفعل هى نفسها الشىء ذاته؟ لقد تزوجت من قسطنطين لكى ترد له فحسب حسن صنيعه. وكان هذا إقرارًا منها بالتفهم الذى أبداه تجاه حالتها.. لا شىء أكثر من ذلك. فهل أصبح الامتنان يشكل فى آخر الأمر عنصرًا مهمًا فى بدء علاقة محفوفة بالمخاطر وبالمشاكل؟

- يكفى أنك سعيدة، قالت لها هذا أليكساندرا وهى تبتسم لكى تقوى عزيمتها، فى حين كانت لا تزال تفكر فى أمر قسطنطين ثم قالت: أليس كذلك. يا أنجيليكى؟. لكن أنجيليكى لم تجب على سؤالها بسرعة. وعندما تكلمت كانت نبرة صوتها ثابتة راسخة خالية من أى أثر للرياء أو للشك: وتردد صداها فى أذن صديقتها بما يجعلها توحى بثقة كبيرة لدرجة أن أليكساندرا حسدتها على هذه الثقة الغامرة. ثم قالت أنجيليكى: أجل إنه لكذلك.

- هذا هو ما يهم...، قالت لها هذا أليكساندرا وكأنها توجه الكلام أكثر إلى نفسها.

ضحكت آنجيليكى مرة أخرى وهى تحنى رأسها قليلاً، ثم قالت: ولكن دعينا الآن من أحوالى، وحدثينى عن نفسك. ماذا حدث لك؟ لقد تزوجت أخيرًا من قسطنطين، أليس كذلك؟ هزت أليكساندرا رأسها موافقة. فقالت صديقتها: كنت أعرف ذلك، بل كنت واثقة منه تمام الثقة. وأعتقد أنك ظفرت بأفضل شاب فى الجالية كلها. وفى الحقيقة أنا سعيدة جدًا من أجلك.

نظرت إليها أليكساندرا وهى فى حيرة بالغة، بعد أن تسربلت نبرة صديقتها المرحة قبل قليل بغلالة رقيقة من الحزن. ولكنها ابتدرتها بقولها: ماذا حدث؟ لقد قلت منذ قليل إنك سعيدة. ـ أجل! أنا سعيدة فى الحقيقة.... ولكن الأمر فقط......، تلعثمت أنجيليكى وهى تتحدث ولكنها استمرت قائلة: لقد غدت الأمور جد مختلفة الآن، فأنا أعيش فى منزل والدى كما ترين، وفق المسلك الذى علمته إياى والدتى الراحلة... والآن حماتى تعيش معى.. لقد تبدلت الأمور بالنسبة لى.

لم تقل أليكساندرا شيئًا، ولكن صديقتها أحست أنه كان ينبغى عليها أن تقدم لها تفسيرات أكثر، لكى تنتزعها من حيرتها البادية فقالت: فى البداية كانت الأمور أكثر صعوبة، ولكنها الآن صارت أفضل بكثير. ثم ضحكت، و لعلها كانت بالأحرى تشجع بذلك نفسها على الاسترسال فى الحديث: إن حماتى إنسانة طيبة وذات قلب كبير، فهى تساعدنى فى أعمال المنزل حتى لا أصاب بالتعب، كما أنها تعتنى أيضًا بالطفل.... بهذا أنهت حديثها تاركة على محياها ضحكة رقيقة مبتورة لكى تلطف بها الجو.

ـ هل أصبح لديك طفل؟، كان حماس صديقتها أليكساندرا ظاهرًا. كم أنا مسرورة من أجلك! هذه أخبار مدهشة!: ردت عليها أنجيليكى: شكرًا جزيلاً... لقد بلغ عمرها عامين ونصفًا.. فهى بنت. وأنت؟.

ـ أنا؟، ضحكت أليكساندرا بعصبية ثم أردفت قائلة: وأنا. ماذا؟

- هل لديك طفل من قسطنطين؟.

برغم أنها كانت تتوقع منها مثل هذا السؤال فإنها شعرت بعدم الارتياح، ومع ذلك فقد نجحت فى إخفاء حيرتها خلف ابتسامة متكلفة وقالت: لا! لا حتى الآن... ـ ولماذا؟ ـ لقد أعطيت الأسبقية لدراستى فى الجامعة، ولم أشأ أن أطيل مدتها ـ هل ما زلت تدرسين حتى الآن؟ ـ سوف أتخرج بعد زمن قصير، ولكننى أفكر فى استكمال دراستى العليا؟. ـ ألا تريدين إذن أن تنجبى طفلاً؟ ـ أجل! هذا ضمن خططى، وآمل أن أحققه قريبًا إلا إذا... ـ إلا إذا ماذا؟ ـ إلا إذا حدث لنا شىء....، ضحكت من جديد ولكن ضحكتها هذه المرة كانت مليئة بالمرارة.

وفجأة أدركت الشابتان أن أعين المارة العابرين كانت تتركز عليهما وهما واقفتان فى هذا الركن الهادئ من الطريق. فقالت أليكساندرا: انظرى... إن لدى فسحة قصيرة من الوقت إلى أن يرجع قسطنطين إلى المنزل. فهو عادة يعمل فى مكتبه حتى ساعة متأخرة. فما قولك؟ ما رأيك أن نذهب إلى الحلوانى اليونانى توماس لنأكل على حسابى قطعتى جاتوه معًا، فالمحل قريب من

هنا؟ إن هذا المحل يصنع حلويات رائعة ممتازة من أحسن الأنواع، ولدينا الكثير مما نقوله. عرضت عليها أليكساندرا هذا العرض بابتسامة عريضة.

- كنت أتمنى ذلك بصراحة، ولكن الطفلة مع حماتى وأنا غائبة عن المنزل منذ الصباح. ولو أننى تأخرت أكثر من ذلك لسوف ينتابها القلق. رمقتها أليكساندرا وكأنها تستعطفها فى صمت. ولكن صديقتها أصرت على الاعتذار، فقالت أليكساندرا: وهو كذلك! كما تشائين. ولكن على أن تعدينى بأن نلتقى مرة أخرى.

تصافحتا بالأيدى وكأنهما تصدقان على الوعد المتبادل بينهما باللقاء مرة أخرى. كتبت لها أنجيليكى عنوانها على قصاصة ورق أخرجتها من جيبها. ووعدتها أليكساندرا بأنها ستزورها عن قريب فى منزلها لكى ترى طفلتها. وبرغم أن أنجيليكى ترددت فى مبدأ الأمر. فإنها سرعان ما استسلمت عندما رأت ملامح صديقتها التى بدا منها أنها تستحثها على القبول. ثم تبادلت الشابتان القبلات وجددتا وعودهما.

وعندما ابتعدت أنجيليكى، راحت أليكساندرا تتفكر فى ملامح صديقتها.. فبرغم أن وجهها قد فقد شيئًا من نضارته الأولى. فإنه كان يشع بلمعان غريب وبريق، لا بد أنهما كانا منبعثين من منطقة ما فى أعماقها. وأدركت أنه على الرغم من جميع المشاكل التى واجهتها أنجيليكى، فإنها كانت مستقرة هادئة البال وكانت فى الحقيقة سعيدة فى زواجها. وتذكرت المناقشات التى دارت بينهما

فى الماضى عن قيام الفتيات اليونانيات بعقد العلاقات مع الشبان المصريين.. لقد كانت أنجيليكى تُدِينُ على الدوام مثل هذه العلاقات وكانت قاطعة ومتطرفة فى وجهات نظرها، كما كانت فخورة جداً بمنبتها اليونانى، لدرجة أنها اعتقدت اعتقاداً راسخًا أن تلك العلاقات لن يقدر لها النجاح أبدًا، فما بالنا بالزواج من أجنبى؟ والآن فها هى قد وصلت إلى الحد الأقصى فى التفريط، أعنى لقد فعلت ما هو مناقض تمامًا لما كانت تؤمن به. وجدت أليكساندرا نفسها رغمًا عن إرادتها تحسد جسارة صديقتها وشجاعتها، التى حدت بها إلى أن تتحدى معتقدات بنى جلدتها، وأن تتنكر لوجهات نظرها هى نفسها التى كانت تؤمن بها مثل العقيدة الراسخة. ولكنها مع ذلك تذكرت أن الزواج المختلط بين يونانية وأجنبى، كان خليقًا بأن يدان على نحو أشد فى الطبقات الاجتماعية العليا، حيث كان الناس يَصِمُون هؤلاء الذين يتخذون مثل هذا القرار الجسور المثير للحنق بوصمة دامغة، ثم يقومون بإدانتهم ويضطرونهم إلى الانعزال التام عن مجموع الجالية اليونانية. وربما لم تجد أنجيليكى صعوبة كبيرة فى أن تنتهى إلى اتخاذ قرارها، حيث إنها فى واقع الأمر كانت وحيدة فى هذا العالم ولم تكن مسئولة أمام أى شخص كائنًا من كان.

وفى هذه اللحظة احتلت هيئة الضابط المصرى كل ركن من أركان عقل أليكساندرا وكأنها طيف أو خيال، على النحو الذى أخبرتها به أنجيليكى وحدثتها فيه عن ترقيته. وفكرت مرة أخرى فى حبيبها الضابط الشاب الوسيم، فكرت فى جاذبيته وغموضه.

وأحست مرة أخرى بذلك الألم النفاذ وأحست بتلك الطعنة الدامية التى أصابتها جراء خيانته لها، واستمرت تخزها فى كل مرة كانت ذكراه تتردد على مخيلتها. لم تهدأ حدة هذه الطعنة مع مرور الوقت. بل على العكس من ذلك تمامًا كانت تضنيها أكثر طوال الوقت: ولقد اقترن هذا الألم المحض بالتساؤلات التى كانت لا تزال تعذبها. فكلما سألت نفسها عن الذنب الذى اقترفته لم تفلح فى تلقى إجابة مرضية شافية... حقًا إن الحياة تسخر منك بسهولة بالغة عندما يكون من السهل جرحك وقهرك....

لقد مرت أعوام أربعة منذ اليوم الذى أخبرتها فيه صديقتها أنجيليكى أن عادلا قد رحل عن مدينة القاهرة، ومنذ هذه اللحظة لم تستطع أن تنتزع صورته من مخيلتها حتى لو حاولت ذلك... ويشهد الله أنها حاولت ذلك مرارًا وتكرارًا، ثم سألت نفسها على أى نحو كانت ستكون حياتها، لو لم يختف حبيبها بمثل هذه الطريقة الغريبة غير المفهومة، ولو لم يتصرف معها على هذا النحو من الظلم والمهانة. ترى هل كانت ستواتيها القوة حينئذ أن تتصرف على هذا النحو المتطرف مثلما فعلت أنجيليكى؟ وترى هل كانت ستحظى بالشجاعة التى تجعلها تتحدى المجتمع المحيط بها؟ أو تجعلها لا تلقى بالاً أو تأبه بالتعليقات الحادة الصادرة عن أفواه الأرستقراطيين المتغطرسين؟ أو للاحتقار الذى سوف تراه فى جميع الوجوه الأرستقراطية فى دائرة مجتمعها؟ ترى هل كانت ستواتيها القوة على تجاهل هذا كله والارتباط إلى الأبد بالرجل الذى أحبته؟

ثم استدعت إلى ذاكرتها من جديد ذكرى الأيام الصعبة للفراق، عندما اختفى عادل فجأة على هذا النحو من حياتها دون أن تهتز فى جسمه شعرة واحدة، وبغير أن يؤنبه ضميره، فجعلها تتجرع كأس المهانة وتذل كبرياءها، وتركها فريسة للارتياب والشك بسبب زلتها وخطيئتها. ولكنها حاولت مع ذلك أن تمحو من ذاكرتها كل شىء وأن تطرد منها صورته. لقد أرهقها تدخله كل وقت ـ برغم غيابه ـ فى حياتها، وهو تدخل لم تكن تستطيع التحكم فيه أو درأه طوال السنوات الماضية. فمتى سوف تنتهى هذه المعاناة؟ ومتى سوف تفلح فى تخليص نفسها من الماضى؟ فربما أمكنها حينئذ فقط أن تنذر نفسها بالكامل فى خاتمة المطاف لزواجها وأن تحب قسطنطين. وفضلاً عن ذلك فقد كان مستحيلاً أن تتخيل أن حياتها ستظل مستمرة بجوار شخص مصرى، وعلى الأخص، ضابط فى الجيش، إبان تلك الفترة الزمنية التى تشكلت فيها طائفة جديدة من الأمور وأسفرت عن حالة هشة تنذر بالخطورة... ترى هل كان هذا بمثابة عذر أو مبرر تقوله لنفسها؟

(١١)

كان الأفراد الستة لمجموعة الرفاق يجلسون على مائدة رئيسة فى النادى البحرى اليونانى، وهو عبارة عن سفينة مشدودة إلى المرسى على ضفاف نهر النيل فى موقع بالغ الروعة بجوار مساحة خضراء جميلة، وكان يرتاده فى الغالب الأعم اليونانيون. وكان هذا النادى بمثابة واحة رقراقة من النسيم لمن كانوا يمضون فصل

الصيف فى مدينة القاهرة. بسبب أعمالهم ومهنهم أو بسبب التزامات أخرى لهم: كما كان كثير من الشبان يمارسون فيه أنشطتهم حيث إنه كان يحتوى على أفضل زوارق التجديف وأحدثها. ولقد اشتهر كثير من هؤلاء الشبان لكونهم ظفروا ببطولة مصر فى رياضة التجديف، وكان قسطنطين منذ أن كان تلميذًا واحدًا من هؤلاء الشبان.

كان الرفاق الستة قد فرغوا لتوهم من تناول وجبة العشاء وطفقوا يستمتعون بالحوار الذى كان قد دار منذ وقت مبكر فيما بينهم: ومن حولهم كانت تسود ضجة صاخبة من الرواد، وعلى المائدة المجاورة لهم كانت هناك ثلة من الأعضاء الشبان الذين يترنمون بأغنيات يونانية معروفة بمصاحبة آلة الهارمونيكا وآلة القيثارة. وكانت مجموعة الرفاق الستة تحتفل بعيد الميلاد الرابع والخمسين للسيد كيرياكوس كيريازوبولوس الذى كان يجلس فى زهو وفخار بين زوجته وابنته. بينما كان يجلس قبالته تمامًا زوج ابنته وبجواره الصحفى بيريكليس أثاناسياذيس، يليهما سكرتير الجالية السيد أرماذوس الذى كان يصر عادة على البقاء صامتًا.

والآن.. فلقد قررت الولايات المتحدة الأمريكية رفض القرض الذى طلبته مصر من البنك الدولى لبناء السد العالى فى أسوان، أعلن هذا الصحفى بنبرة صوته المعروفة على باقى أفراد المجموعة. بينما كانوا يحتسون الجعة. وكانوا قد فرغوا توًا من عشائهم وشرعوا فى الاستمتاع بالنسيم الذى بدأ يهب بوفرة، فأراحهم فى

خاتمة المطاف من القيظ الذى كان قد أرهقهم طوال النهار. كما أن وزارة الخارجية الأمريكية قد سلمت رسالة بذلك إلى البنك الدولى من خلال دالاس[١]، مفادها أنها ترفض الآن المشاركة فى تمويل القرض، واصل الصحفى حديثه وهو ينظر بتركيز تجاه صديقه الذى كان ضيف الشرف المكرم فى هذا الاحتفال.

هز السيد كيرياكوس كيريازوبولوس رأسه هزة بتأن ورزانة وهو يقطب ما بين حاجبيه، وكأنه كان يقدر هذه المعلومات حق قدرها أو كأنه يتفكر فى مغزاها وهو صامت. أما قسطنطين الجالس بجواره فكان يحتفظ بملامحه الخالية من التعبير والدالة على عدم المبالاة، فكان يدلل بذلك على عدم اكتراثه إزاء كل هذا الذى قيل. ولم تكن لديه فى واقع الأمر أية رغبة فى أن يصحبهم اليوم إلى النادى البحرى مع سيطرة كل تلك المشاكل على عقله، بيد أنه لم ينجح فى اختراع مبرر معقول لغيابه. وفضلاً عن ذلك فقد أصرت أليكساندرا على حضوره، لأنها لم تشأ تكدير صفو والدها من ناحية، ولأنها من ناحية أخرى لم ترد أن يحاصرها قسطنطين بسيل من الأسئلة التى كانت تكدرها وتضايقها كثيرًا.

ولكن هذا ليس هو الأسوأ، استطرد الصحفى السيد بيريكليس أثاناسياذيس قائلاً، بعد أن أدرك من ملامح وجه صديقه أنه كان يطرب لصحبته وللحوار معه: فهذه هى الأسباب التى ساقوها.

() هو جون فوستر دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية فى حكومة الرئيس أيزنهاور. (المؤلفة).

وليس عندى أدنى شك فى أنهم سوف يغضبون بذلك الرئيس (عبد الناصر) وسوف يجعلونه يتجه مرة أخرى فى طريق مضادة للغرب.

وما الأسباب التى ساقوها هذه المرة؟، سأل السيد كيريازوبولوس وهو يختلس نظرة متسائلة عابرة إلى صهره.

ضعف اقتصاد البلاد وعدم استقرار النظام الحاكم فيها، أجاب قسطنطين فجأة بلهجة ساخرة، كاسرًا للمرة الأولى صمته. وهنا علق الصحفى بقوله: إن التحدى هذه المرة كبير من جانب دول الغرب. وأخشى ما أخشاه أن العواقب لن تكون هينة أو بسيطة. وبرغم أن أليكساندرا قد أصيبت بالملل من سماع مثل هذا النوع من المناقشات، فإنها تدخلت فى الحوار قائلة: لقد احتاطوا وأخذوا حذرهم من هذا الأمر.

فاستطرد الصحفى قائلاً: لقد استبد الغضب والحنق بكل من لندن وباريس، بسبب سياسة الرئيس (عبد الناصر) وبسبب خطبه النارية ضد سياسة أوروبا التوسعية وضد الإمبريالية. ثم من بعد ذلك نجد الوداع المهين المخزى للجنود الإنجليز عند انسحابهم من قناة السويس. إذ لم يتم إقامة احتفال رسمى بهذه المناسبة، وهو الأمر الذى ألمحت إليه الصحف فى العالم كله. فقال السيد كيريازوبولوس: ماذا كانوا ينتظرون؟ هل كانوا يتوقعون أن يتم وداعهم بالأبواق والطبول والمهرجانات؟. فرد عليه السيد أثاناسياذيس قائلاً: على أية حال فلا شىء من هذا كله يمكن مقارنته بمغازلته لزعماء دول اليسار. ولم يكن ممكنًا أن يغيب هذا

بالضرورة عن نظر واشنطن فى فترة حافلة بالمواجهات وبجو الحرب الباردة.

فقال السيد كيريازوبولوس: ولا تنس المعلومة الأخيرة التى انتشرت وأثارت حنق الفرنسيين، فلا ريب أنك تعرفها... فهى التى كانت بمثابة تحد لفرنسا. تقول تحد؟ - تقول الشائعات إن الكوماندوز الجزائريين يتدربون هنا فى مصر. - إنه اتهام لا أساس له من الصحة. - بالضبط... ولكن بينو [1] يضخم هذه الشائعة دون أن يطرف له جفن.

كان كل واحد من الرفاق فى المجموعة يصوغ وجهة نظره ثم يعلنها أو يقوم بعرض المعلومة التى بحوزته، بحيث يكمل كل منهم الآخرين. من يدرى الآن كيف سيكون رد فعل الرئيس إزاء هذا التصرف المهين من جانب الولايات المتحدة الأمريكية؟ . تساءل السيد أرماذوس بصوت عال، بعد أن تخلى جزئيًا عن تحفظه وصمته ليعبر علانية عن وجهة نظره للمرة الأولى. إذ لم يشأ أن يكون هو الوحيد فى المجموعة الذى ظل دون مشاركة فى النقاش.

إننى واثق من أن الرئيس لن يدع هذا الأمر يمر على هذا النحو... فلا بد أنه سيقوم بتصرف ما لكى يحافظ على هيبته السياسية ومكانته القومية. كان هذا هو ما أكده الصحفى الذى استطرد قائلاً: وعلاوة على ذلك فهناك شائعات تقول إن الرئيس

---

(١) كريستيان بينو هو وزير خارجية فرنسا عام ١٩٥٦(المؤلفة).

سوف يقدم على تأميم قناة السويس. مستحيل!، صاح أفراد المجموعة. أما قسطنطين فعندما لاحظ نظرات الجميع المندهشة قهقه ضاحكًا من هذا الموضوع غير المعقول حسبما اعتبره. أما الباقون فقد أخذوا يكررون معًا العبارة التالية: إن هذا أمر غير معقول!.

كان رد فعل المسئولين عن شركة قناة السويس بالطريقة ذاتها تمامًا. حينما قام المراسلون الأجانب بتحذيرهم بخصوص هذا الموضوع، أعلن السيد بيريكليس أثاناسياذيس هذا والزهو يغمره استنادًا إلى مهنته الصحفية، ثم استطرد قائلا: سرعان ما تتضح الحقيقة ويماط عنها اللثام... ولكن هناك أمرًا واحدًا مؤكدًا هو أن الرئيس سيجعل المستحيل ممكنًا لكى يحافظ على هيبته. كان الصحفى يتحدث بثقة كبيرة، الأمر الذى حدا بالسيد كيريازوبولوس إلى هز رأسه من جديد دليلاً على موافقته.

فليمد الله لنا يده بالمعونة!، تمتم السيد أرماذوس بهذه العبارة وهو مستغرق فى التفكير. وهنا غدت عصبية قسطنطين واضحة لزوجته على مائدة العشاء، كما تكشف لها بجلاء امتعاضه الذى كان يجعله يزداد توترًا كل دقيقة. ولذا فقد أومأت أليكساندرا إيماءة خفيفة برأسها لزوجها، ثم نهضت من مقعدها مذكرة الحاضرين بسفر زوجها فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى، ثم أعلنت على الجماعة: أرجو أن تسامحونا، ولكن قسطنطين يجب أن يرحل فى الصباح الباكر إلى مدينة المحلة الكبرى حيث سيوالى

الإشراف على مصنعه. إذ مضت ثلاثة أسابيع منذ سفره آخر مرة، كما أن السيد نسيم يحتاج حتمًا إلى وجوده هناك.

ألن ترافقيه فى هذه السفرة؟، سألتها والدتها التى كانت تفكر مليًا فى علاقة ابنتها بزوجها، دون أن تتدخل بأية صورة من الصور فى حياتهما، نظرًا لأنها كانت تخاف من تفاقم المشاكل بينهما لو أنها فعلت ذلك. يبدو أن أليكساندرا تريد أن تكون بمفردها لفترة من الوقت، انبرى قسطنطين للتفسير توًا بلهجة تنم عن رغبته فى مضايقة زوجته، ثم نهض بعدها من كرسيه واستمر فى الحديث قائلا: كما يبدو أنها مصممة على أخذ فترة راحة من صحبتى المملة.

لقد رَافَقتُه فى المرة السالفة، انبرت الزوجة الشابة للتفسير متجاهلة كلمات زوجها المنطوية على التورية، ثم أردفت قائلة: ومن ناحية أخرى فإن قسطنطين سوف يمكث هناك لمدة أسبوع كامل. أما أنا فيجب علىّ أن أنهمك فى الاستعدادات المتعلقة بامتحانات التخرج. انحنت وقبلت والدها على جبهته وعبرت عن أمنياتها بقولها: تصبح على خير وكل عام أنت بسعادة وصحة. يا بابا.

أشكرك، يا عزيزتى أليكساندرا، وأتمنى أن نجتمع العام القادم كلنا هنا مرة أخرى ومعنا طفل..... ابتسمت أليكساندرا ابتسامة فاترة ولم تنبس ببنت شفة. وفضلاً عن ذلك فقد كانت هذه الأمنية التى قيلت آلاف المرات، قد فقدت تقريبًا معناها من كثرة تكرارها والتعبير عنها بطريقة آلية. أما قسطنطين فقد حيا بدوره

الموجودين بلهجة أكثر امتعاضًا عن ذى قبل، ثم عبر عن أمنياته بالصحة الموفورة والعمر المديد لحميه مرة أخرى. فرد الحم على أمانيه بمثلها وقال: صحبتك السلامة وأرجو لك رحلة موفقة.

وعندما خرج قسطنطين وأليكساندرا إلى الطريق لكى يستقبلا السيارة، سأل الزوج زوجته مرة أخرى: ألست راغبة حقًا فى أن تسافرى معى؟ ـ لا! ليس هذه المرة.. فالرحلة طويلة ومرهقة.. وفضلاً عن ذلك فإنها فرصة جيدة لكى تكون وحدك ترتب أفكارك. اكتفى قسطنطين بالنظر إليها دون أن يقول شيئًا. فاستطردت أليكساندرا قائلة: ربما كان هذا مفيدًا لك...، فقال الزوج: هل تظنين أن مزيدًا من التباعد والهجران من جانبك سوف يكون ذا فائدة لى؟.

صوبت أليكساندرا نحوه نظرة زاخرة بالانتقاد وتحاشت من جديد أن تعلق على كلماته... فلقد غدت حدة طباعه ولهجته الساخرة بمثابة الاعتياد اليومى، الأمر الذى انتهى بها إلى أن تصبح عصبية وغير قادرة على الاحتمال. وكلما حاولت أن تقترب منه بين الفينة والأخرى كان الزوج يصر على موقفه الخشن الباحث عن المضايقة. وفى الحقيقة لم تكن محاولاتها نابعة من مشاعرها أو عن حبها لزوجها، بل كانت نابعة من إحساسها بالواجب الذى كانت تحثها عليه أفكارها المنطقية وشعورها على الأرجح بأنها مذنبة... لقد كانت ذكية بما فيه الكفاية لكى تفهم هذا. وكان الشىء الوحيد الذى لم تتمكن من حسابه بدقة هو درجة التزامها تجاهه.

كانت فى أعماقها تحس بالفرحة لأن قسطنطين سوف يرحل بعيدًا عنها لأيام قليلة، حيث إن غيابه سوف يمنحها الفرصة لكى تهدأ وتفكر فى نهاية مناسبة لمثل هذه العلاقة الباعثة على الملل والخالية من الاهتمام.

(١٢)

كانت تمسك فى يدها ورقة صغيرة كانت قد دونت عليها على عجل عنوان صديقتها أنجيليكى، وكانت منذ فترة من الزمن تعتزم زيارتها ولكن مشكلاتها مع قسطنطين ومشاجراتهما المستمرة، قد محت رغبتها فأجلت هذه الزيارة باستمرار. ولكنها على أية حال استيقظت هذا الصباح ومزاجها رائق فقررت أن الوقت قد حان لمقابلة صديقتها. ارتدت ملابسها وتركت لخادمتها قائمة بالمشتريات الضرورية، ثم وضعت المفتاح تحت دواسة الباب كما اعتادت أن تفعل كلما خرجت قبل وصول الخادمة الشابة.

كان الطريق بالسيارة إلى ضاحية المعادى يبعث على الارتياح وكان النهار كالعهد به دائمًا مشرقًا، وإن كان الجو حارًا كما هى العادة فى فصل الصيف. تطلعت إلى المنطقة المكسوة بالخضرة والزاخرة بالمبانى الجديدة باحثة عن الميدان الرئيس، فمن هناك كان يمكنها أن تجد طريقها بسهولة ويسر على النحو الذى شرحته لها صديقتها.

وعندما وصلت إلى الميدان توقفت أمام رجل كان يرتدى جلبابًا طويلاً رمادى اللون كان يصل إلى كعبيه، وكان هذا الرجل يقوم

بكنس الطريق بمكنسة بالية من القش: فحيته برقة وسألته عما إذا كان يعرف أين يوجد شارع حلمى. فمد الرجل يده تجاه الناحية اليسرى وهو يخبرها بأنه قريب جداً، وعليها فقط أن تلف جهة اليمين من أول شارع يقابلها ثم تلف بعد ذلك إلى جهة اليسار، وستجد شارع حلمى على يسارها.

شكرته أليكساندرا واتبعت إرشاداته، وبمجرد أن انعطفت فى طريقها وولجت الشارع حتى بحثت عن المنزل رقم ١٥ بعدها أوقفت سيارتها بجوار الرصيف ثم هبطت منها. كان المنزل رقم ١٥بشارع حلمى مكونًا من ثلاثة طوابق، وكانت له شرفات طويلة وضيقة تطل على الشارع. وفى شرفة من هذه الشرفات فى الطابق الأول كانت هناك امرأة شابة تقوم بنشر الغسيل. فقالت لها أليكساندرا باللغة العربية: من فضلك! هل تسكن هنا السيدة أنجيليكى؟. ـ اليونانية؟. سألتها السيدة بابتسامة عريضة بعد أن انحنت على سور الشرفة الحديدى. ـ أجل! اليونانية. أجابتها أليكساندرا وهى ترد على ابتسامتها بابتسامة مماثلة. ـ إنها تقيم فى الطابق الثالث، ويمكنك أن تصعدى إلى شقتها بالسلم فليس هناك مصعد.

شكرت أليكساندرا السيدة ودخلت من بوابة المنزل، ثم صعدت السلالم وهى تجرى جريًا، فقد كانت مشتاقة للقاء صديقتها ومشتاقة أكثر لرؤية طفلتها الصغيرة. تخيلتها وهى تحمل صغيرتها بين أحضانها فابتسمت لتفكيرها فى هذا المشهد الحنون الرقيق. وبعدها تساءلت بأية لغة سوف تتحدث إلى صديقتها أنجيليكى

احترامًا منها لوجود حماتها بالمنزل. دقت الجرس ثم انتظرت، ولكنها لم تسمع أى ضجة بالداخل، إذ كان يخيم على المنزل هدوء مثير للفضول. وفكرت أنه ربما لا يوجد أحد بالداخل، فدقت الجرس مرة أخرى ولكنها لم تتلق أية إجابة. وعندما تهيأت للانصراف سمعت صرير مفتاح يدور فى باب الشقة المجاورة.

من تريدين؟، سألتها سيدة فى منتصف العمر برقة بعد أن ظهرت فى مدخل الشقة المجاورة. فقالت لها أليكساندرا: السيدة أنجيليكى. - اليونانية؟. - أجل! اليونانية!، أجابت وهى تبتسم لتعبير السيدة الصريح الذى يبعث على الابتسام، وهو ما ذكرها بالسيدة التى كانت تطل من الشرفة. إن ثلاثتهم غائبون اليوم، أخبرتها السيدة بذلك فى لهجة آسفة، كما لو كانت هى المسئولة عن غيابهم؛ فشعرت أليكساندرا بخيبة الأمل.

هل كانوا يعرفون أنك سوف تحضرين؟، سألتها السيدة وهى تفتح الباب على مصراعيه، فانبعثت رائحة كسبرة محروقة من داخل الشقة وغطت المدخل. وهزت أليكساندرا رأسها بالنفى. فقالت السيدة: كان يجب أن تخبريهم بحضورك... هناك هاتف عند البقال الذى يقع محله بالقرب من هنا. وسأعطيك رقمه إذا شئت. قالت أليكساندرا: لا! شكرًا، فسوف آتى مرة أخرى. فقالت لها السيدة: لا أظن أنهم سيعودون اليوم، يا حلوتى، فقد رحلوا منذ الصباح الباكر لزيارة الزوج. فسألت أليكساندرا: الزوج؟. فأجابتها المرأة: أجل! زوج السيدة أنجيليكى، فهم يقومون بزيارته من آن لآخر لكى يرى الطفلة.

وعندما رأت السيدة أن حيرة أليكساندرا لم تتبدد، انبرت لتشرح لها الموقف قائلة: إن زوجها ضابط بالجيش، وهو يعمل قرب قناة السويس. صدمتها هذه المعلومة مثل الصاعقة فزاغت أبصارها. وأحست أن الأرض تميد فجأة تحت قدميها. وعندما انساقت وراء هذا الإحساس الكاذب مدت يدها بحركة غريزية إلى سور السلم لترتكز عليه... إن أنجيليكى لم تخبرها مطلقًا بمهنة زوجها، فهل كان صمتها هذا متعمدًا؟

كانت تتحرق شوقًا للحصول على معلومات أخرى عن زوج صديقتها ولكنها عدلت عن ذلك فى اللحظة الأخيرة... فلم يكن من الحصافة أو من الكياسة أن تسأل سيدة أجنبية عن زوج صديقتها، وحتى لو واتتها الجسارة على أن تطرح مثل هذا السؤال المفتقر إلى الكياسة، فقد كانت تخشى للغاية أن تنجح فى هذا. جف حلقها حينما أشار عليها حدسها بأن هذا الضابط لا يمكن أن يكون غريبًا عنها تمامًا، وبأن ارتباك أنجيليكى الحاد فى ذلك اليوم الذى قابلتها فيه مصادفة فى الطريق ربما لم يكن نابعًا فقط من حقيقة أن زوجها مصرى، ولكن من كونه كذلك هو نفسه جارها عادلاً، الذى كانت تتظاهر آنذاك بأنها غير مهتمة له.

غمرها عرق بارد وقررت أن ترحل عن المكان بأسرع وقت ممكن، فلو أنها مكثت أطول من ذلك، فإن أخشى ما تخشاه أن تنكشف أفكارها أمام السيدة الأجنبية. لو أذنتِ لى، ماذا أقول لهم عن شخصية الذى حضر؟، سألت الجارة برقة برغم أنه كان يبدو عليها أنها تتفكر مليًا فى لهجة الزائرة وفى التبدل المفاجئ الذى طرأ على مزاجها.

لا أحد... لا أحد... أجابتها أليكساندرا بعد فترة توقف قصيرة انقطعت فيها أنفاسها، ثم استطردت قائلة: أعنى أننى سوف أحضر فى وقت آخر. وخالص الشكر لك... ولما أدركت الجارة الاضطراب الذى اعترى أليكساندرا، قالت لها بنبرة نابعة من القلب: لا تقلقى، يا فتاتى. فهم تقريبًا لا يمكثون (أكثر) من يوم أو يومين هناك. وغدًا أو ربما بعد غد على أكثر تقدير سيكونون هنا.. فهلم لتحضرى مرة أخرى. فالسيدة أنجيليكى ستحزن جدًا لو عرفت أن......

شكرًا جزيلاً، قاطعتها أليكساندرا وهبطت على الدرج مسرعة. هل أقول لهم شيئًا عندما أراهم؟، صاحت السيدة بصوت عال ولكنها لم تتلق إجابة من أليكساندرا التى كانت قد ابتعدت بالفعل عن المنزل وتوجهت بخطى سريعة نحو سيارتها.

أدارت محرك السيارة بيد ترتعد، ثم أدركت أنه محال أن تقود السيارة وهى على هذه الحال، فأوقفت المحرك وأحنت رأسها فوق المقود. بعدها حاولت أن تهدأ وأن تستجمع قواها ولكن اضطرابها بدأ يزداد بدلاً من ذلك، كلما برزت صور من الماضى إلى مخيلتها، ولكن الصور هذه المرة كانت تقترن بصور أخرى حديثة كان يوجدها خيالها. وقررت آنذاك أنها لن تحاول زيارة صديقتها أبدًا مرة أخرى، إذ كان الرعب قد استولى عليها بدرجة جعلتها غير راغبة فى أن تضع نفسها فى مثل هذه التجربة المؤلمة. فلو أن عادلاً هجرها لكى يتزوج أنجيليكى، فإن هذا سيكون اكتشافًا كانت تخشى جدًا عدم تحمله.

وفى تلك الليلة لم يغمض لها جفن، إذ كانت كلمات جارة صديقتها تلف وتدور فى مخيلتها، ومن بعدها كانت كلمات صديقتها أنجيليكى تدور كالدوامة فى رأسها، وذلك عندما زارتها فى منزلها فى بولاق بعد اختفاء عادل... فلقد استدعت إلى ذاكرتها ـ على الرغم من مرور أربعة أعوام على ذلك ـ النبأ الذى أنبأتها به صديقتها عن زيارة والدة عادل، التى كانت قد حضرت إليهم للاطمئنان على صحة والدتها التى كانت مريضة آنذاك. وفى الوقت نفسه لإحضار هدايا لهم بمناسبة ترقية ابنها عادل فى الجيش، فليس من المستبعد أن تكون والدة عادل قد زارتها فى شبرا مرة من المرات أثناء إجازته التى كان يمضيها فى القاهرة. يا إلهى! كيف لم يتسن لها أن تفكر فى ذلك من قبل؟ ربما كان هذا بعيداً عن الاحتمال، ولكن هناك شيئًا كان يبدو فى ملامح أنجيليكى خلال المرة الأخيرة التى التقيا فيها مصادفة فى الطريق، شيئًا كان يبدو فى ملامحها وكأنها تسخر منها. ترى هل عرفت أخيرًا شيئًا عن علاقتها بعادل؟ ترى هل قادها خيالها المريض وعشقها الذى لا برء منه لهذا الشاب ـ وهو العشق الذى لم تنجح أبدًا فى التخلص منه برغم كل ما حدث لها ـ ترى هل قاداها كلاهما، أعنى الخيال والعشق، إلى هذه الاستنتاجات غير المعقولة؟ هل من الممكن أن يكون هذا هو حال الدنيا معها وأن يكون عادل قد تزوج أنجيليكى؟ ألم يكن هذا كله سوى مظهر شيطانى للوقائع؟ ألم يكن هذا كله سوى ارتباط عشوائى للأحداث؟ كانت شكوك كثيرة تلتهم عقلها وروحها مثلما تلتهم دودة القز أوراق الشجر! أما آن لها أن تتحرر من عذابها وأن تهدأ مخاوفها فى خاتمة المطاف؟...

لم يكن بوسعها أن تشاهد أنجيليكى لو كان عادل هو حقًا زوجها، ولم تكن لديها الشجاعة لكى تبحث عن الحقيقة. ولو أنها اكتشفت فى خاتمة المطاف أن هذا كان واقع الأمر، فإن هذه الحقيقة كانت كفيلة بتحطيمها. أم تراها كانت ستحررها إلى الأبد من الأشباح التى كانت تطاردها طيلة أعوام أربعة، وتؤدى بها إلى التطهر والتحرر لكى تبدأ من البداية وتكرس نفسها لزواجها ولحياتها مع قسطنطين؟

ظلت غارقة فى أفكارها طيلة يومين، دأبت فيهما على رسم سيناريوهات مختلفة، قوضت أركان سكينتها وأعادت إلى مخيلتها الذكريات القديمة. انصرم يومان كان الشىء الوحيد الذى فعلته فيهما هو اختلاق الحكايات والتفكير فى الأحداث الماضية. وفى اليوم الثانى دق جرس الهاتف فجعلها تستيقظ من نومها، وعندما رفعت سماعة الهاتف بعزيمة هابطة تجمدت. ففى الناحية الأخرى من الخط سمعت صوت أنجيليكى الحلو الخالى من القلق وهى تقول: أليكساندرا؟.

انفرجت شفتاها ولكنها لم تسمع أى صوت يصدر منهما. فقالت أنجيليكى: أليكساندرا، أهذا أنت؟. ضغطت على نفسها لتجيب قائلة: نعم! ـ هل أتيت أول أمس إلى منزلى. كم أنا آسفة لأنى لم أكن موجودة، يا عزيزتى..... فتحت أليكساندرا فمها مرة أخرى، ولكنها عجزت هذه المرة أيضًا عن أن تنطق بكلمة من بين شفتيها.

فلقد ألقت الغيرة والألم فى أعماقها بشباكهما المسمومة. وسببا لها الاختناق. فقالت صديقتها: ألم تكونى أنت التى قمت بزيارتى؟. ولكن أليكساندرا أصرت على صمتها. فقالت أنجيليكى: أليكساندرا، هل تسمعيننى؟ - أجل! أسمعك...، قالت أليكساندرا هذا وقد فقدت أنفاسها. فعاودت أنجيليكى السؤال: ألم تكونى أنت؟ - أجل!، أجابت هذه المرة بصوت أعلى. فقالت صديقتها: ماذا دهاك؟ هل أنت غاضبة منى؟ إنك لم تخبرينى بأنك سوف تزورينى، يا حلوتى. لو كنت قد علمت... وعندما لم تتلق منها أية إجابة استمرت تتحدث باللهجة نفسها: ومع ذلك فقد سررت كثيرًا عندما أخبرتنى جارتى... لم أكن أتوقع لو شئتِ الصراحة. خسارة أننى لم أكن فى المنزل.

هل تريدين مقابلتى؟، تهربت منها فجأة بقولها هذا، برغم أنها كانت قد قررت ألا تفعل ذلك. فلقد كان لزامًا عليها أن تعرف الحقيقة بأية وسيلة وإلا فلن يهدأ روعها أبدًا. قالت أنجيليكى: بالتأكيد.. إننى أريد ذلك بشدة - أين؟ - لا أدرى.. فى المكان الذى ترغبين فيه أنت - إذن فى حلوانى جروبى أليكساندرا؟ - نعم؟ - أنا لا أسمعك جيدًا.. ماذا حدث لك؟ هل؟... - غدًا فى الخامسة والنصف مساءً، قاطعتها أليكساندرا بحسم ثم استأنفت حديثها ببرود أشد: أرجو أن يناسبك هذا الميعاد. - أجل إنه يناسبنى جدًا. ولكن ألن يكون الجو حارًا فى هذه الساعة؟، سألت أنجيليكى فى ارتياب، ولما لم تتلق أية إجابة قالت: اتفقنا.. اتفقنا... لا توجد أى

مشكلة، وسوف يكون لنا حديث لا شك فى ذلك. فأنا مشتاقة جدًا لرؤيتك، يا حلوتى.

لقد جعلتها كلمات أنجيليكى الأخيرة، ولهجة صوتها التى كانت تنبض بالحرارة، تحس ببرودها وموقفها الظالم تجاه صديقتها وتشعر بالخجل من نفسها. فحتى لو اتضح أن عادلاً كان زوجها، فإن أنجيليكى ليست مسئولة عن هذا. فمن الواضح أنها لم تكن تعرف شيئًا عن علاقتهما، ومن الواضح أن كلماتها كانت بريئة وصريحة. أجل! لقد كانت أليكساندرا واثقة ثقة مطلقة من هذا الأمر.

ومع ذلك فلو أن عادل كان حقًا زوجًا لصديقتها، فلسوف تواتيها الشجاعة لكى تواجه هذه الحقيقة المفزعة.

(١٣)

جلست أمام مائدة صغيرة فى أحد أركان الصالة الداخلية لمحل حلوانى جروبى وانتظرت، برغم أنها كانت قد قررت الليلة الماضية عدم الذهاب لكى لا تثير آلامها القديمة، ولكى لا تضع نفسها فى هذا الموقف المهين الذى يحط من قدرها.. فقد كانت أنانيتها وكرامتها تأبيان عليها أن تفعل ذلك وتمنعانها من الذهاب. ولكنها حينما استيقظت من نومها فى الصباح التالى ـ كما لو كانت تفعل ذلك بطريقة آلية تمامًا أو كما لو كان فعلها نتاج تفكير ناضج ـ وجدت نفسها ترتدى ملابسها بسرعة وتستعد للخروج.

إذ إن المهانة توجد عادة مع الضعف البشرى الذى يدفع الإنسان إلى الوقوع تحت سيطرة عواطفه الرخيصة، خاصة حينما تتعلق

هذه العواطف بالعشق أو بالانتقام. ثم إن هذه المهانة تولد وتنمو بشكل لا إرادى، مثلها فى ذلك مثل الدودة حينما تلتهم من العاشق كل ذرة من ذرات المقاومة، فيقدم على أن يتجرع حتى النخاع هذا الرحيق السام، حتى ينتهى به المآل إلى أن ينحى جانبًا أنانيته وكبرياءه بصورة تامة.

وكان الشىء الوحيد الذى تذكرت أن تفعله هو أن تترك المال لخادمتها لشراء ما يلزم للمنزل، ثم رحلت دون أن تنتظرها كما هى عادتها. لم تعد تطيق البقاء فى المنزل بعد أن نفد صبرها، وكان كربها يتناقص بقدر ما تتزايد ضربات قلبها المجنونة. وصلت إلى محل الحلوانى قبل الساعة المحددة لميعادها مع صديقتها، فطلبت كأسًا من الجيلاتى وطفقت تطالع بصبر نافد مدخل المحل.. فقد كانت ترغب فى أن تعاين هى ببصرها أولاً صديقتها أنجيليكى.

وكانت ما بين الفينة والأخرى تصوب نظراتها إلى الموائد المجاورة لتتطلع إلى الأزواج من العشاق الذين يتحلقون حولها، وكان معظمهم يشى بأنهم عشاق متدلهون فى الحب. فشرعت تقرأ وجوههم جميعًا وتختلق لكل زوج منهم قصة مختلفة تتخيل بها حياتهم، تصوغها بخيالها، وفكرت مرة أخرى فى صديقتها. ترى ماذا ستقول لها؟ وكيف ستمس مثل هذا الموضوع الحساس؟ ولو أن صديقتها فهمت شيئًا فكيف يمكن أن تعذرها وتقدر موقفها بعد مرور كل هذا الوقت؟ يا إلهى، كم ينتابنى الخجل!

كانت هذه الأفكار التى تتصارع فى جنون داخل عقلها، تطيل من أمد حالتها النفسية السيئة ومن عصبيتها ومن نفاد صبرها. أحضر لها النادل كأس الجيلاتى فشرعت فى تناوله آليًا وهى تتطلع إلى ساعتها.. فقد كانت تريد الانتهاء من هذا الموضوع بأسرع ما يمكن وأن تفرغ منه إلى الأبد. وتساءلت للمرة الألف عن الكيفية التى سيتسنى لها بها أن تفتح الموضوع مع صديقتها أنجيليكى، وعن الطريقة التى ستدير بها الحديث معها. وربما كان من الأصوب أن توجه لها سؤالاً مباشرًا لكى تضع نهاية لبلبلتها التى تعذبها. ولكن ما السؤال الذى يمكن أن توجهه إليها؟ هل هو: ما اسم زوجك؟ وهل هو جارك الذى كنت تتحدثين عنه بعدم اهتمام وبطريقة تنطوى على الكياسة؟ ثم ماذا بعد ذلك؟ ماذا يتعين عليها أن تفعل لو أنها علمت فى خاتمة المطاف أن الأمور كانت فعلاً كما تخيلت؟ وماذا سيكون رد فعلها؟

شعرت بالغيرة من صديقتها دون أن تعرف السبب بالضبط وقبل أن تتأكد من شكوكها، ثم سألت نفسها: كيف استطاعت أنجيليكى أن تنحى جانبًا شكوكها وتتخلى عن معتقداتها، حتى لو لم يكن زوجها هو عادل؟ كيف أمكنها أن تتخطى العقبات والموانع التى كانت تؤمن بأنها عقبات لا يمكن اجتيازها، وذلك عند عقد قران شخصين لا ينتميان إلى العرق نفسه أو الطبقة الاجتماعية ذاتها؟ وما يا ترى مقدار الحب اللازم لها لكى تقيم مثل هذه العلاقة التى وحدت بينهما؟

وتذكرت كتابًا كان قد وقع فى يديها منذ أمد قصير فى مكتبة الجامعة، وكان هذا الكتاب يتعلق بموضوع كان يشغلها ويهمها منذ أن كانت صبية صغيرة، وقرأت فيه أن هناك ديانات معينة كانت تضطهد اتحاد زوجين من أصول مختلفة، وتقف بالمرصاد للتآلف بين الزيجات المختلفة. إذ كانوا يقولون إن الامتزاج المتآلف بين الأصول المختلفة كان محرمًا فى الطبيعة، حيث إنه فى هذا الامتزاج القائم بين الأصول المختلفة كانت تكمن المغامرة والتحدى فى الخفاء... ولو قدر لهذا الامتزاج أن يفشل فإنه يخلف وراءه الإحساس بالخسارة والشعور بالذنب، أما لو قدر له النجاح فإنه يكفل للزوجين اتحادًا طيبًا، ولكن هذا النجاح يكون خطرًا لأنه يدعم التكبر والغرور والتعالى إزاء الأرباب، الذين قدروا الحدود التى جعلت الكائنات مختلفة عن بعضها.

كانت هذه الأفكار قد هزت أعماقها ولم تتوقف أبدًا عن ترديدها على عقلها، فى كل مرة كانت تفكر فيها فى حياتها، أو فى الماضى الذى كان حتى اليوم يسيطر عليها بصورة طاغية. ثم تساءلت بعدها عن ماذا كان يمكن أن يحدث لو لم تفقد أثر عادل... ترى هل كان باستطاعتها أن تجد فى نفسها القوة أن تتحدى الدائرة التى تحيط بها مباشرة من الناس، وأن تتحدى الأفكار المسبقة للأشخاص الذين يعيشون معها وأن تقترن به إلى الأبد؟ كانت تلوم نفسها مرات كثيرة حاملة على كاهلها بالكامل عبء مسئولية اختفائه من حياتها. ترى هل كانت فى حقيقة الأمر تواجه علاقتهما من بعد فى كبرياء وتعالٍ وبمشاعر مترفعة دون أن

تدرك؟ ترى هل كانت قد قررت دون أن تعى أو تدرك إنهاء علاقتها به؟ ولكن كلا! وهنا هزت رأسها بالنفى لتبعد عن مخيلتها تلك الفكرة الأخيرة... فلا ينبغى عليها أن تظلم نفسها، فلقد منحت نفسها لذلك الرجل بدون شروط وبلا حدود وبدون قيود، ودفعت ثمنًا باهظًا لقاء ذلك.

مساء الخير، يا أليكساندرا، تناهى إلى سمعها صوت أنجيليكى الودود الدافئ ليقطع عليها حبل أفكارها، التى كانت تعصف بها والتى كانت قد اجتاحت كيانها، ثم أردفت صديقتها قائلة: هل تأخرت عليك؟. استدارت أليكساندرا ثم نظرت إلى صديقتها، فتبين لها أن ابتسامتها الحلوة كانت تؤكد براءة تعبيراتها.. كانت تبدو لها سعيدة وناضجة مكتملة، ومرة أخرى بدأت خناجر الغيرة تخز روحها بعنف بالغ. ولم تتخيل أليكساندرا أنه ستأتى عليها لحظة تحسد فيها مثل هذه الصديقة الحبيبة.. ولكن لا! لا ينبغى أن تدع هذا الإحساس الذى لا سبيل إلى التحكم فيه يجرها إلى مثل هذه اللعبة الخطرة؛ ولكن الفضول كان برغم ذلك ينهشها، بل كان يطحن بالفعل أعماقها أكثر من ذى قبل.

كلا! على الإطلاق. لقد وصلت مبكرة قليلاً عن موعدى، أفلحت فى النهاية أن تجيب على صديقتها وهى تتظاهر بعدم الاكتراث. - لكى أكون صريحة معك، لم أصدق أنك سوف تحضرين لزيارتى بهذه السرعة، إذ اعتقدت أنك سترحلين إلى الإسكندرية وأننا ربما لن نجد فرصة للقاء بعضنا حتى حلول فصل الخريف، قالت لها

هذا أنجيليكى باللهجة الحاسمة ذاتها. ـ فى السنوات الأخيرة تضاءلت عطلاتنا إلى أدنى حد ممكن، أعنى أنها اقتصرت على أيام معدودة من شهر أغسطس ولا شيء أكثر من ذلك، شرحت لها أليكساندرا ما تعنيه وهى تتظاهر بالبرود الذى لم تدرك كيف انتابها.

ـ حقًا! ولماذا؟ ـ لقد مضت الأيام السعيدة الخالية من الهموم، قالت أليكساندرا هذا وهى تطلق تنهيدة كان من الواضح أنها تريد أن تطلقها منذ فترة، ثم أردفت قائلة: فمع كثرة الالتزامات أصبحت الأمور أكثر صعوبة، فضلاً عن أن قسطنطين يواجه الآن مشاكل كثيرة فى أعماله. كانت تتحدث بسرعة وعصبية، وكأنها كانت تريد أن تستنفد كل سؤال يمكن أن توجهه إليها صديقتها، وذلك من أجل أن تركز على الحديث فى الموضوع الذى كان يقض مضجعها ويحرقها بناره منذ أعوام أربعة.

ـ أرجو أن تكون هذه المشكلات عابرة. قالت لها أنجيليكى هذا باهتمام حقيقى. ـ وأنت، يا أنجيليكى، ألا تقومين بقضاء إجازاتك فى مكان ما؟ قالت أليكساندرا هذا وتبين لها أثناء حديثها لصديقتها مدى حدة أسلوبها. وهنا نظرت إليها أنجيليكى وهى مندهشة.. فقد كانت نبرة أليكساندرا ولهجتها مختلفتين جدًا عن المرة التى قابلتها فيها مصادفة فى الطريق: ولكن ترى هل عساها لم تنتبه إلى التغيير الذى حدث لها؟ ثم حدجتها بنظرها مرة أخرى كما لو كانت تحاول أن تغوص فى مغازى كلماتها وأن تستجلى

أعماقها، ثم أردفت قائلة: أنت تعرفين أننى لم أقم بإجازات أبدًا فى حياتى. فلقد كانت العطلات بالنسبة لأسرتى تعتبر نوعًا من الترف، ثم ضحكت بفتور وأضافت قائلة: أما الآن فقد زاد الطين بلة. ولكن أليكساندرا لم تفهم ماذا كانت تعنيه صديقتها بالضبط، فقالت: هل تعنين أن هذا بسبب زوجك؟.

فردت عليها أنجيليكى بقولها: هذا حقيقى.. فعمله يضطرنا إلى البقاء دائمًا هنا.. أعنى أننى أمكث هنا مع طفلتى بينما يعمل هو طوال العامين الأخيرين فى قناة السويس. لم تتحدث أليكساندرا، إذ اعتقدت على أية حال كلما اقتربت من الحقيقة أن قلبها كان يدق على نحو أسرع وبطريقة أشد إيلامًا. وربما كانت فى خاتمة المطاف لا تحتمل صديقتها، وتساءلت لماذا سعت فى طلبها بهذا الإصرار... لقد وصل فضولها إلى أقصاه وصار ينذر بالخطر. كان لزامًا عليها أن تعرف فى نهاية الأمر وأن تجد إجابة مؤكدة شافية لكى يهدأ روعها وتعثر على السكينة الدائمة. ولكن كيف تهدأ؟ وأنى لها أن تهدأ؟ فلو أن عادلاً كان حقًا زوج أنجيليكى، فماذا يتعين عليها أن تقول لها؟ وكيف ستواجهها؟

وهنا قالت أليكساندرا فجأة: ومن عساه أن يكون فى خاتمة المطاف؟ ـ ماذا قلت؟. وهنا تبينت أليكساندرا غياب الكياسة واللباقة من جانبها ولكنها لم تتراجع عن موقفها، فلا شىء سوف يوقفها عن هذه النقطة التى وصلت إليها، فاستطردت قائلة: من الشخص الذى تزوجته؟ ترى هل هو الضابط الجذاب، جارك

القديم فى حى بولاق؟، قالت أليكساندرا هذه العبارة وهى تضحك ضحكة حافلة بالعصبية. وحيث إنها لم تتلق إجابة عن سؤالها، أردفت قائلة: أتتذكرين عمن أتحدث؟.

مرت لحظات قليلة قبل أن تجيبها أنجيليكى، ولكنها على أية حال كانت لحظات كافية لكى تجعل أعصاب صديقتها مهلهلة. كانت إجابتها على النحو التالى: أتعنين عادلاً؟ كيف تذكرتِه؟، قالت هذا وهى تبتسم ابتسامة بريئة مثل ابتسامة الأطفال وأردفت قائلة: لا! لا! إنه ليس هذا الشخص. وفضلاً عن ذلك فمن المستحيل أن يحدث مثل هذا الزواج معه.

كانت كلماتها الأخيرة مثل يد غير منظورة أزاحت فى النهاية الصخرة التى كانت تجثم على صدرها منذ يومين كاملين... فشعرت بالارتياح والتحرر من الانفعالات التى كانت تتصارع داخلها وأدت إلى إرهاقها وسحق كيانها، وأفلحت فى النهاية أن تهمس قائلة: سامحينى، فقد اعتقدت أن زوجك هو هذا الشخص.

رمقتها أنجيليكى وهى فى حيرة من أمرها وطفقت تحاول أن تفهم ماذا تعنيه صديقتها. ولكنها بدت كما لو كانت قد عدلت عن موقفها فاستطردت بسرعة لتباغتها مرة أخرى: ولكن العالم صغير جدًا. يا أليكساندرا، صغير وبالغ الغرابة. فالضابط... أعنى عادلاً كان على معرفة قديمة بزوجى كما كان معلمه. لاحظت أنجيليكى الدهشة التى اعترت ملامح صديقتها. ولكنها لم تلق بالاً ولم تعلق أهمية أكثر على ذلك. بل استطردت قائلة: إنه سوف يوصى بنقل

زوجى إلى القاهرة بعد وقت قصير جدًا، أعنى أتمنى وآمل أن يفعل هذا. فهذا الضابط نفسه يعمل فى الرئاسة العامة للجيش، وهو من أهل الحل والربط، كما أنه يشغل موقعًا رفيعًا. وعندما حدثته تليفونيًا تذكرنى على الفور.

حاولت أليكساندرا أن تهدئ ضربات قلبها، ولكنها سألتها بعدم اكتراث باد: هل حدثته؟ - أجل! فإن أحمد.. أحمد هو اسم زوجى.. طلب منى أن أحادثه تليفونيًا وأن أحدثه فى أمر النقل. كما أخبرنى زوجى أن كونه كان يومًا ما جارًا لنا ربما سوف يساعد على موافقته. فلقد كان زوجى يعلم أننى كنت أسكن فى حى بولاق قبل أن نتعارف، وعندما عرف أننا كنا وعادل جيرانًا قدماء وأن والدتى كانت صديقة والدته، طلب منى أن أحادثه فى هذا الموضوع شخصيًا.

- وهل سوف تقابلينه؟، سألتها أليكساندرا بعد أن أحست أن كربها قد وصل إلى ذروته. فقالت صديقتها: بالأحرى.. فلقد حادثته تليفونيًا وطلبت مقابلته فى مكتبه، وذكرته بشخصى وبدا لى أنه قد سر كثيرًا. لم تكن أليكساندرا قد أفاقت من المفاجأة الأولى، فداهمتها هذه المفاجأة الثانية التى أثارت لديها تساؤلات عديدة. ثم استأنفت أنجيليكى حديثها قائلة: وعلى الرغم من أنه قد تخطى بالكاد الثلاثين من عمره فقد تمت ترقيته إلى رتبة رائد. هل تتخيلين هذا؟، استأنفت أنجيليكى حديثها بهذه العبارة.

ضغطت صديقتها على نفسها لكى تضحك متظاهرة بأنها تجد صعوبة كبيرة فى تصديق هذا. - إنه يحرك بالفعل الخيوط فى

القيادة العليا. وله سلطة كبيرة والكل يخافونه ويحترمونه، استمرت آنجيليكى فى الحديث بغير تحفظ، بيد أن أليكساندرا لم تجرؤ على مقاطعتها لأنها كانت متشوقة لمعرفة المزيد. - إن نفوذه عظيم. فأنت تعرفين أنه كان واحدًا من رجال ثورة يوليو عام ١٩٥٢، وأنه كان مندوب جماعة الضباط الأحرار، خاصة أنه كان واحدًا من المجموعة التى تم اختيارها لاحتلال القيادة العامة للجيش واحتلال محطة الإذاعة فجر يوم الثورة.

- ترى هل اختفى لهذا السبب؟، تساءلت أليكساندرا فيما بينها وبين نفسها. وأمعنت فكرها بعد أن استنشقت نسمة هواء منعشة فى صدرها للمرة الأولى منذ سنوات عديدة. فقالت لها أنجيليكى: حتى أمه نفسها لم تعرف تحركاته.. هذا هو ما قاله لى زوجى. قالت أليكساندرا: ألم يتم نقله إذن؟: نقله؟، رددت صديقتها هذه الكلمة ولكنها سرعان ما توقفت لتفكر برهة ثم قالت: آه! لا!... لقد كان يريد بكل بساطة أن يعتقد الآخرون ذلك، أجابت عليها أنجيليكى بعد فترة من الوقت، وهى تنظر إلى صديقتها بعمق فى عينيها وكأنها تبحث داخلهما عن شىء لتجده.

وبدا لها أمر صديقتها غريبًا، فهى لا تزال تتذكر بعد مرور أربعة أعوام كاملة - وربما كانت الفترة أكثر من أربعة أعوام - تفصيلات دقيقة كهذه عن شخص لم تربطها به أبدًا أية علاقة من نوع ما. واستأنفت أنجيليكى حديثها قائلة: وعلى نحو ما أوضح فإن هذه القصة لم تكن سوى مبرر لغيابه الذى دام طويلاً. - آه! هكذا

إذن، تمتمت أليكساندرا التى كانت غارقة فى العشق بينما كان عقلها يهيم مرة أخرى ليستعيد لقاءها معه عند الأهرامات، فلقد أثارها الحماس الذى استولى عليه عندما كان يتكلم عن ذلك اليوم الذى ستحصل فيه بلاده أخيرًا على استقلالها، وعن استغراقه فى هذه الفكرة بكل كيانه.

ولكنه اليوم تغير كثيرًا حقًا، استمرت أنجيليكى فى حديثها وهى تقطب ما بين حاجبيها: فليس هو هذا الشخص بعينه. وهنا حثتها نظرة صديقتها المتسائلة على الاستمرار فى الشرح: أقصد لقد غدا متمحورًا حول ذاته ومتكبرًا ومغرورًا، والسبب فى ذلك كما ترين هو قوة السلطة كما يقول زوجى. فلو لم يكن يعرفه منذ زمن قديم، أعنى منذ زمن دراستهما فى الأكاديمية، لقال إنه ليس هو بل شخص آخر. فقد كان آنذاك شابًا دمث المعشر رقيقًا طيبًا ومثقفًا وصاحب أفكار ديمقراطية. ولكنه مع ذلك أصبح اليوم متكبرًا متعاليًا وعابدًا للسلطة، وكثيرون يصفونه بوجه خاص بأنه قاس وبلا مبادئ... ولكننى أجد صعوبة فى تصديق هذه الصفة الأخيرة. كذلك فإنهم يقولون أيضًا إنه لولا صغر سنه لأصبح عضوًا فى الحكومة الجديدة. ويعتقد زوجى أحمد أيضًا أن الأشخاص الذين على غراره هم نتاج التغيير ذاته، وأنه لا يوجد تغيير جوهرى بدون تشويه وتدهور. كما أن التيار الجارف للتغييرات يمكن أن يسفر عن تدهور فى الأخلاق وعن انحراف الهدف الرئيسى. وفى مثل هذه الأحوال فإن الفضيلة والحكمة يصبحان عرضة للزيف والاختلاق ويفقدان مغزاهما الأساسى بمضى الزمن......

لقد أدهشت كلمات أنجيليكى أليكساندرا بصورة تفوق التصور. فلقد أظهرت صديقتها أن لديها معرفة بالوضع الراهن، و أن لديها حكمة وحكمًا صائبًا على الأمور، برغم أنها لم تكمل دراستها المتوسطة. وفجأة تبدلت حالتها النفسية تجاهها وبدأت تنظر إليها بالفعل كما كانت تنظر إليها منذ عهد مضى، عندما كانت البراءة والثقة تسيطران على علاقتهما. ثم استأنفت أنجيليكى حديثها قائلة: ... ولكن أخشى ما يخشاه أحمد هو تلك الخلية التى كانت تنمو فى أحضان السلطة، بين هؤلاء الأشخاص أنفسهم الذين كدوا وتعبوا سنوات طويلة ليضعوا نهاية للفساد. فهو يخشى من خلق طبقة جديدة مساوية فى خطورتها لتلك الطبقة التى كافح رفاقه أعوامًا طويلة من أجل الإطاحة بها.

فقالت أليكساندرا: برغم أننى أتفق معك، يا أنجيليكى، فإن مرامى أن أعتقد أن لب الموضوع لا يكمن إطلاقًا فى التغيير الجوهرى. فقالت صديقتها: ربما كنت على حق، ولكن أيًا كان الأمر فإننى آمل أن يبذل كل ما هو ضرورى من مساع لكى يرجع أحمد إلى منزلنا. فالوضع فى المكان الذى يعمل فيه الآن أصبح بالغ الصعوبة، وطبقًا لبعض الشائعات فإن الحالة تنذر بالخطر.. فالهجمات تتكرر كل وقت والضحايا تسقط وتزداد بصورة مرعبة، ولن يكون فى مقدورى أن أتحمل بحال من الأحوال فقد زوجى، فليس لى أحد سواه فى الدنيا، يا أليكساندرا.

* * *

وقفت أمام النافذة العريضة فى الصالون المطل على نهر النيل من أعلى... كم تصغر الأشياء كلها وتصبح تافهة بلا معنى بجوار هذا النهر ـ الإله... أجل، إنها تصبح متواضعة لو قارناها بجماله الساحر وعظمته... كما إنها تصبح فانية أمام قوته التى لا تفنى. وبرغم ذلك كله فإن هذه الأشياء الصغيرة المتواضعة هى التى تحدد مسار الحياة، وهى التى ترعاها وترشدها فى الغالب، بعد أن تدفع الناس إلى طرق مربكة متشعبة وفى معظم الأحيان إلى طرق زاخرة بالعقبات أو مسدودة.

كانت كلمات أنجيليكى تتردد على مسامعها باستمرار ولم تدعها تهجع للراحة أو تركن للسكينة. فبرغم أنها كانت تتمنى من أعماق قلبها وتبتهل إلى السماء أن يحدث هذا الأمر، فإنها لم تتخيل أنه بعد أربع سنوات كاملة أنها ستعرف كل هذه التفاصيل عن حياة عادل. إذ إنها علمت تمامًا بطريقة غير متوقعة أين يوجد الرجل الذى شغل فكرها وأقض مضجعها وعذبها طوال هذه الفترة، الرجل الذى حدد مسار حياتها الراهنة وأثر فيها بصورة حاسمة: وكان أكثر ما تخشاه بوجه خاص هو أن يتوقف مستقبلها أيضًا على هذا الرجل. فهل كان من الحكمة والحصافة أن تستمر فى البحث عنه؟ وهنا أغمضت عينيها وأطلقت العقال لزفرة عميقة حارة مكبوتة منذ وقت طويل لكى تخرج من صدرها.

ولكن لا! لا ينبغى لها أن تمضى فى هذا الاتجاه، فلقد صار الوقت متأخرًا جدًا على ذلك، كان هذا ما فكرت فيه.. فلم يكن

لديها الحق فى أن تفعل هذا بنفسها. فلقد أهانها ذلك الرجل وجرحها جرحًا لا شفاء منه، ولو لم يظهر قسطنطين تفهمًا واهتمامًا عند رجوعه من ألمانيا صيف عام ١٩٥٢، لما تسنى لها أن تعرف فى أية حالة نفسية كان مقدرًا لها أن تكون الآن. وعلى أية حال فهناك سؤال كان يلف مثل الأنشوطة حول عنقها ويخنقها، وكان يجب عليها أن تجد له إجابة يومًا ما. وإلا لأمكن لها أن تتحرر من هذا العناد وتكرس نفسها لزواجها، أعنى لليوم الراهن ولقسطنطين: ترى هل هجرها أم أنه اضطر للاختفاء بسبب قوة عليا؟

وفى الواقع فإن أنجيليكى قد أخبرتها بأنه يضطلع بمهمة رفيعة الشأن وبأنه حتى والدته لا تعرف شيئًا عنه، حيث إنه لم يكاشفها بأبسط الأمور، وربما لهذا كان معذورًا ولا تثريب عليه ولكن الظروف كانت هى السبب، وربما كان فى الواقع صريحًا معها. فلماذا إذن لم يحاول أن يجدها عندما انتهت جميع أشغاله؟ ولماذا تركها تهوى فى براثن الشك التى أشبه ما تكون بالكوابيس؟

ووسط حالة الإثارة التى استولت عليها كانت تحاول أن تعاين ببصرها من بعد ذلك القارب الراسى على ضفة النيل الغربية، والذى كان يبدو مثل نقطة صغيرة غير مرئية فوق حافة النهر العظيم الزاخرة بالخضرة؛ وهكذا واصلت التفكير مرة أخرى: ترى كم عدد قصص الحب غير المكتملة التى سعت إلى إيجاد مرفأ لها هناك؟ - ترى كم عدد مغامرات العشق المحرمة التى وجدت ملاذًا

آمنًا هناك؟ وتذكرت المرة الأخيرة التى كانا فيها معًا، وأحست مرة أخرى بلمسات يديه على جسدها... كانت لمسات ناعمة رقيقة ولكنها كانت فى الوقت نفسه تطالب بحقها المطلق.. ولم يبارحها هذا الإحساس أبدًا، إذ إنها لم تشعر أبدًا بإحساس مماثل له على هذه الصورة، ولم تحس إطلاقًا بشعور مماثل له فى عناقها أو علاقتها الزوجية مع قسطنطين. وحتى بعد مرور أربعة أعوام على ذلك فإن ذكرياتها وحدها كانت كفيلة بإيقاظ الرغبات، التى كانت نائمة داخلها دون أن يقدر لها أن تكتمل. وكان عليها أن تقبل هذه الحقيقة: فمنذ ذلك الحين لم تشعر أبدًا مرة أخرى بهذه الحيوية وبهذا التكامل الرائع. وكان هذا فى حد ذاته بمثابة لعنة ثقيلة جاثمة على صدرها.

(١٤)

وقف وقفة انتباه أمام مكتب الرائد وأدى التحية العسكرية. كان جنديًا شابًا أما الرجل الذى كان قبالته فكان الرائد عادلاً محيى الدين، أحد رجال ثورة يوليو عام ١٩٥٢، وكان يشغل حينئذ منصب رئيس الشرطة، وكان الجميع يحترمونه وكانوا أيضًا يهابونه. كان الرائد يجلس خلف مكتبه الفخم ويدخن سيجارته، وهى عادة اكتسبها منذ سنوات قليلة، وكان يحدق فى نقطة غير محددة فوق الملفات التى كان يقوم بدراستها والتى يبدو أنها كانت تظفر باهتمامه لأهميتها. وكانت ترتفع خلفه صورة الرئيس (عبد الناصر) بنظرته الشامخة التى تشبه نظرة النسر كما كان الجميع يقولون

وبابتسامته الغامضة الملغزة. وكانت صورة الرئيس تقع بين لوحتين مذهبتين نقشت عليهما آيات من القرآن الكريم مطبوعة ببنط أخضر اللون. وفوق مكتبه ـ فضلاً عن المظاريف التى كان معظمها سريًا ـ كان هناك كتاب متميز لرئيسه المحبوب، وهو الكتاب الذى كان يحتوى على المانيفستو الذى يتضمن مذكراته، أعنى كتاب فلسفة الثورة الذى لم يكن يفارقه أبدًا.

- سيدى القائد، نطق الجندى بهذه العبارة دون أن ينظر إلى عينى الرائد ثم قال: إن هناك سيدة بالخارج ترغب فى رؤيتك ـ سيدة؟ نظر الضابط إلى الجندى نظرة حافلة بالتساؤل: فقال الجندى: تقول إنها قد تحادثت معك تليفونيًا وأكدت لى أنك تنتظرها - تليفونيًا؟، قطب الضابط جبينه محاولاً التذكر ثم أحنى رأسه قليلاً إلى الأمام - إنها أجنبية، يا سيدى الرائد، ولكنها متزوجة من أحد مواطنينا، وهو ضابط يخدم فى منطقة قناة السويس. ـ أجل! أجل! دعها تدخل.

حياه الجندى التحية العسكرية مرة أخرى وخرج من المكتب، وبعد لحظات قليلة انفتح الباب من جديد وتقدمت أنجيليكى على استحياء داخل الحجرة؛ لم يتبعها الجندى إلى الداخل ولكنه أغلق الباب خلفه بهدوء. وما إن تبين الرائد وجود زوجة مرؤوسه التى كانت جارته قديمًا حتى نهض ومد يده نحوها مصافحًا ليحييها... ضغط بمودة قلبية على كف يدها ثم قال لها: اجلسى من فضلك، يا أنجيليكى، أيمكننى أن أناديك باسم أنجيليكى؟ ـ بالطبع!، أجابته

بدون خوف ولا وجل. وبرغم أنها كانت تعرفه منذ عهد الصبا فإن منظره المهيب ونفوذه وسلطته قد جعلوها تحس بالرعب منه. ـ وفضلاً عن ذلك فإننا نعرف بعضنا بعضًا منذ عهد الصبا، أليس كذلك؟. استأنف الرائد حديثه بابتسامته الجذابة الآسرة التى لم تتغير وسط دوامة فعاليات الأحداث التى شارك فيها من أجل وطنه مصر.

أجل! هذا حقيقى...، أجابته أنجيليكى وهى تحاول أن تجلس بطريقة مريحة على المقعد المواجه لمكتبه. إذ لم تكن تحس بالارتياح فى هذا المكان. وكان الصرير المنبعث من دوران المروحة المعدنية التى كانت تحرك الهواء الراكد فوقهما، كان هذا الصرير قد دفعها إلى أن تصوب أنظارها إلى السقف ثم تبتسم. وكان الرائد يغوص فى مقعده الوثير ويدفع بظهره إلى الخلف، وكان يعقد يديه المتشابكتين فوق مكتبه ويحدق فى السيدة الشابة باهتمام؛ ثم بادرها قائلاً: والآن... كيف يمكننى أن أقدم لك خدماتى؟.

سعلت أنجيليكى من فرط العصبية. ولكنها ما لبثت بعد ذلك أن صوبت نظراتها هذه المرة إلى الرائد وقالت له: إننى آسفة جدًا لأننى جرؤت على الحضور إلى هنا، فأنا أعرف أن هذا ليس مناسبًا. ولكنك أخبرتنى أن...... ـ أعرف.. أعرف.. ومن ناحية أخرى فأنا الذى عرضت هذا عليك. إن زوجك صديق لى وسوف أعمل ما بوسعى من أجله.. واليوم بوجه خاص عندى لك أخبار سارة. ـ أية أخبار؟، اتسعت حدقتا عينيها وطفق قلبها يدق بعنف.

ـ كان بودى اليوم أن أكون أول من ينهى إليك نبأ نقله ـ حقًا؟ ـ إن الضرورات فى القيادة العامة قد تغيرت كما تفهمين، ويعتبر زوجك بعد التدريب رفيع المستوى الذى حظى به هو أنسب شخص لهذا المنصب. ولذا فقد أوصيت بنقله إلى هنا، أقصد إلى القيادة العامة.

ولما شاهد أن الفضول الذى اعترى أنجيليكى قد ازداد وأن حماسها قد بدا واضحًا، استأنف حديثه قائلاً: لا تقلقى، فالنقل مؤكد تقريبًا وسيكون مصحوبًا أيضًا بالترقية. ـ الترقية؟ شكرًا لك، لم......، فقاطعها الرائد قائلاً: لا تتسرعى، فأنت تعرفين أننى أتعاطف معك، وفضلاً عن ذلك فإن هذا المنصب سيكون من نصيبه. ما فى ذلك شك. وليس بوسعى أن أعين فيه شخصًا آخر أنسب منه. ثم توقف برهة وقال: ومع ذلك فهناك مشكلة قائمة، وهنا رمقته السيدة وهى متحيرة. فاستأنف حديثه قائلاً: إن النقل لن يتحقق بسرعة. فهذا سوف يتم بعد فترة زمنية قصيرة. وفضلاً عن ذلك فإن الوطن لا يزال بحاجة إليه لفترة أخرى محدودة. ولكن الإجراء سوف يتحقق بأسرع وقت ممكن بمجرد أن تهدأ الأنفس، وبعد أن يكون قد أكمل أيضًا شطرًا من الوقت المناسب فى وحدته. وعندئذ كونى على ثقة من أننى سوف أعينه فى المنصب الذى تؤهله له مؤهلاته.

وصل حماس أنجيليكى فى هذه اللحظة إلى أقصاه. وارتسمت خيبة الأمل بوضوح على محياها. لا ينبغى أن تقلقى، شرع الرائد

فى تهدئة روعها وهو ينحنى إلى الأمام ثم قال: وفضلاً عن ذلك فقد وعدتك ويجب عليك أن تعرفى أننى لست معتادًا على أن أخلف وعودى أبدًا. وعندما كان الضابط يتلفظ بهذه الكلمات الأخيرة تبدلت ملامحه فغدا وجهه متجهمًا عابسًا وبدت عيناه شاردتين تنظران إلى بعيد، وهو الأمر الذى جعل قلقها يزداد وتوترها يشتد.

همت حينئذ بالوقوف لتنصرف، فلم يكن هناك سبب لبقائها هناك بعد ذلك. وكان الشىء الوحيد الذى كانت تفكر فيه كيف ستعلن هذه الأخبار على حماتها ثم على زوجها حينما تراه من جديد. ولكن الرائد استوقفها قائلاً: لماذا أنت فى عجلة من أمرك؟ اجلسى من فضلك لكى أقدم لك مشروبًا ـ لا.. شكرًا لك، أنا لا أريد شيئًا: هكذا اعتذرت أنجيليكى برقة عن عرضه فقال لها: ولا حتى من أجل الأيام الخوالى؟

ـ إذن أريد قدحًا من الماء. نادى الرائد على الجندى وطلب منه كوب ماء للسيدة، وبمجرد أن انطلق الجندى لينفذ أمره أخذ الضابط يرمق أنجيليكى بنظرة فاحصة، برغم أنه جاهد كثيرًا لكى يخفى هذه النظرة خلف ابتسامة ودودة تظاهر برسمها على وجهه. ثم قال: خبرينى إذن هل لا تزال لديك علاقات بأصدقائك القدامى أم أنهم جافوك بسبب زوجك؟، قال لها هذا وهو يضحك بشدة كما لو كان قد قص عليها طرفة مليحة.

نظرت إليه أنجيليكى بعينين متسعتين زاخرتين بالدهشة، ترى ماذا كان يقصده بهذه الكلمات؟ ثم سألته: لأى سبب يجافينى أصدقائى، يا سيدى الرائد، فأنا لا أفهم، وما شأن زوجى فى هذا الأمر؟، سألت السيدة باستياء واضح، فبادر هذا إلى القول: إنسى الأمر. فليس هناك سبب ما. إننى فقط كنت أتساءل عما إذا كانت الأمور أصعب بعد زواجك من شخص ذى ثقافة مختلفة ووطن مختلف. قالت أنجيليكى: ربما وجدت بعض المشكلات البسيطة، ولكن الحب أقوى، يا سيدى، وهو يساعدنا على تجاوزها.

كانت إجابة أنجيليكى قاطعة واضحة، وضعت حدًا لرغبته فى التنقيب أزيد من ذلك فى حياتها الشخصية. وبالتأكيد فإن كلماته كانت تنطوى على شىء مقصود، ولكنها على أية حال لم تتمكن من تبين ما كان ينتويه بالضبط. رائع! جميل! ولكننى أريد أن تساعدينى فى أمر ما، يا أنجيليكى...... دق الباب فى هذه اللحظة فقطع حديثه لها، ودخل الجندى وترك كوب الماء أمام الزائرة ثم ذهب لحال سبيله وأغلق الباب خلفه مرة أخرى. واستأنف الرائد حديثه قائلاً: هناك أشخاص خارج هذا المكان يملأهم الجحود ويريدون إنزال الضرر بالوطن. وبودى أن أحصل منك على معلومات عن هؤلاء. لو أن هذا حقًا كان فى مقدورك... إلا إذا كنت تعتبرين نفسك مواطنة أجنبية....

ماذا تقول، يا سيدى، مواطنة أجنبية؟ إننى أنتمى لهذا البلد، يا سيدى، اعترضت عليه أنجيليكى والغضب يكسو ملامحها، ثم أردفت قائلة: وفى الحق إننى لا أريد أن أرحل أبدًا عن هذا البلد. ففيه أسرتى وفيه حياتى - رائع.. اتفقنا إذن - اتفقنا على ماذا؟ -

على أنك من ناحيتك سوف تساعدينني، وعلى أنه لو وقع شيء تحت بصرك سوف تخبريني - أي شيء بخصوص ماذا؟. تردد الرائد برهة من الوقت ثم استطرد قائلاً: على سبيل المثال، لو كان هناك أشخاص لهم رأى مخالف أو أناس يقومون بدعاية مضادة للبلاد.. أو أي أمر من شأنه أن يضر أمن الوطن وسلامته... أنت بلا ريب تفهمين هذا....

نهضت أنجيليكي من مقعدها وهمت بالانصراف. فقال لها الرائد: أنت بالتأكيد تريدين حضور زوجك هنا في أقصر وقت ممكن، أليس كذلك؟، سألها هذا السؤال الذي ينطوي على مغزى واضح ثم قال: أنا لا أعتقد أنني قد ابتعدت عما هو منشود.... رمقته أنجيليكي بدهشة غامرة، فقد كان آخر شيء تنتظر سماعه هو مثل هذا العرض. - فكري في الأمر على نحو أفضل ثم ردي علي.. فأنا أنتظر ردك، أصر الرائد على موقفه. وقبل أن تصل أنجيليكي إلى الباب قال لها الرائد فجأة وكأنه تذكر شيئًا: وبالمناسبة، كيف حال تلك الفتاة؟ أعني تلك الفتاة التي كانت تأتي لزيارتك باستمرار في عمارتنا بحي بولاق؟. شعرت برجفة تجتاح كيانها مرة أخرى... فماذا عساه يا ترى يريد (الضابط الكبير) عضو الحكومة من صديقتها؟ - أتعني أليكساندرا؟ - أجل! أجل! إنها هي.. أتذكر أن اسمها كان صعبًا عليّ. - إنها متزوجة. يا سيدي. - أنا أعرف ذلك.... وهنا اتسعت حدقتا عيني أنجيليكي دهشة، فقال الرائد: أعني لقد خمنت ذلك... فلم يكن ممكنًا أن تظل فتاة جميلة مثلها بغير زواج زمنًا طويلاً. بلغيها تحياتي من فضلك عندما ترينها... أتصور أنك ترينها - أجل! أنا أراها، فبرغم أنني فقدت أثرها لفترة قليلة من الزمن فإنني.......

توقفت أنجيليكى فجأة، إذ أدركت أنه لا ينبغى أن تصارحه بما بينها وبين صديقتها، وأنها لا تملك الحق فى أن تتحدث عنها أمامه. ولكن شيئًا فى نظرته جعلها تشعر بالرعب منذ اللحظة الأولى التى التقت فيها عيناها بعينيه. ما هذا الاهتمام البادى من جانبه الذى تجدد؟ ترى ماذا عساه يعنى؟ إنها أمور غامضة. ولكن السيدة قالت فى خاتمة المطاف: أشكرك، ثم فتحت الباب وهرعت مسرعة خلال الممشى. لقد انصرفت قبل أن يتمكن الضابط من أن يبدى لها ملاحظة أخرى.

وعندما قابلت أنجيليكى أليكساندرا مرة أخرى لم تذكر كلمة واحدة من مقابلتها مع الرائد ولا عن أسئلته الغريبة لها، فقد كانت فى واقع الأمر تتحاشى أن تقول لها إنها قابلته. فهناك شىء فى ملامحه وعلاوة على ذلك فى الكلمات التى تبادلتها معه، قد أثار اضطرابها وجعلها أكثر تحرزًا واحتراسًا. كذلك فإن نبرة حديثه وما ارتسم على ملامح وجهه فجأة عندما سألها عن أليكساندرا كانا يتسمان بالغرابة ولا يمكن لها أن تستجليهما، كما أن نظراته بدت كما لو كانت هناك سحابة سوداء غريبة تظللها. ولم تتمكن - على أية حال - من أن تفهم بالضبط مرامه ولا الكلام الذى اختلقه لكى يسألها عن صديقتها. وهكذا أخبرت صديقتها أن الموضوع الوحيد الذى تحدث معها فيه هو نقل زوجها الحبيب، وهو الموضوع الذى أبلغها رسميًا أنه سوف يتأخر قليلاً من الوقت.

كما أكدت لصديقتها أن الأحوال هناك تتفاقم باستمرار، وأن من كانوا يقومون بالخدمة فى المناطق الموجودة على الحدود أو فى

المناطق ذات الخطورة العالية، سوف يظلون فى أماكنهم ومواقعهم لفترة أطول. كذلك قالت لها أيضًا وعيونها مغرورقة من فرط التأثر أن زوجها أحمد قد حادثها تليفونيًا فى اليوم السابق ليخبرها أنه لن يتمكن من الرحيل والقدوم إلى القاهرة، برغم أنه كان يشتاق إلى ذلك بشدة، وذلك نظرًا لأن جميع الإجازات قد ألغيت.. ومن ثَم فإن عليها أن تسافر بسرعة مرة أخرى لكى تزوره مع طفلتها ومع حماتها. فالحق أن زوجها يحتاج إلى التسرية والسلوى كما يحتاج إلى المؤازرة والتعضيد، فضلاً عن أنها كانت مشتاقة إليه بشدة.

(١٥)

عندما عاد قسطنطين من رحلته حاولت أليكساندرا - بسبب تأثرها بأسلوب أنجيليكى فى حب زوجها وبكلماتها الزاخرة بالحنان عنه - حاولت الاقتراب من زوجها وفتح صفحة جديدة من التواصل بينهما... فلو أنها حاولت مرة أخرى الاقتراب منه فربما تسنى لهما إنشاء بداية جديدة. وبعد ساعات لا نهاية لها من المصادمات بينهما وبعد صراع عنيف بين المنطق والعاطفة، انتهت إلى نتيجة مؤداها أن الوقت قد صار متأخرًا جدًا على إحياء الماضى، أو على إيجاد رابطة من نوع ما تربطها به، خاصة فى علاقة مثل هذه لا رجاء منها ولا قدرة لهما على احتمالها.

لقد كانت تعرف ذلك منذ البدء، وفضلاً عن ذلك لم تكن لها قوة إرادة أنجيليكى، إذ كانت إرادتها قد انثنت وتبخرت مع مرور الوقت. وفكرت فى أنها لو حاولت أن تشتاق (إلى حبيبها الضابط)، وحتى

لو حاول هو أن يبرر لها سر غيابه واختفائه، فإن شيئًا ما لا يمكن أن يحدث بينهما. فهل يتسنى للمرء أن يغير ماضيه أو يحييه من جديد، أو أن ينفث روحًا فى شىء مات ويستحيل إرجاعه؟ ومن ناحية أخرى فإن كل شىء قد اتخذ شكلاً مختلفًا وطريقًا آخر.. كذلك فإن هذا الشخص لم يعد هو الإنسان ذاته حسبما قالت صديقتها، وصَدّقَتها هى بدورها لسبب يتعذر تفسيره.

دق جرس الباب وعندما فتحته أليكساندرا شاهدت والدها. - صباح الخير، يا أليكساندرا. - صباح الخير، يا بابا. أليس الوقت مبكرًا جدًا؟. - أين قسطنطين؟ - لقد ذهب لتوه إلى مكتبه. أجابته وقد غمرها القلق من ملامح والدها التى يبدو فيها الخوف ونفاد الصبر، فقالت: هل حدث شىء ولا تريد أن تخبرنى به؟ - ألم تسمعى الأخبار، يا بنيتى؟ إن العالم بالخارج يطن.

رمقته أليكساندرا بخوف وقالت: ماذا علىّ أن أسمع؟ ماذا حدث؟ أخبرنى من فضلك! - منذ قليل أعلن الرئيس (عبد الناصر) تأميم شركة قناة السويس العالمية. - تأميم؟ - أجل! لقد نشرت جريدة الحكومة اليوم القانون الذى سيتم بمقتضاه تأميم القناة من أجل تدبير نفقات بناء السد العالى، قال لها هذا ليشرح الموقف. صمتت أليكساندرا وعندما استردت رباطة جأشها سألت: كيف ومتى حدث هذا كله؟ - مساء أمس قامت جماعة من الكوماندوز باقتحام مكاتب إدارة الشركة واحتلتها ثم قامت بتحريز جميع الوثائق الخاصة بالشركة. - وماذا حدث بعد هذا؟ - إن أشد ما

أخشاه هو أننا الآن فى بداية طريق ملىء بالأشواك ـ لماذا؟ ـ إن شركة قناة السويس هى أكبر مشروع موجود فى مصر، ولديها رؤوس أموال تقدر بمئات الملايين من الدولارات، سواء داخل مصر أو فى إنجلترا وفرنسا. وتأميمها سوف يتسبب فى صراع لا نهاية له وفى نكء جراح منذ البدء.

إذن فقد تأكدت الشائعات أخيرًا ـ لقد شرع فى مضايقة دول الغرب بتهور. كان الحوار يدور هذه المرة بين السيد كيريازوبولوس وصديقه الصحفى فى مكتب الأخير مساء اليوم نفسه. قال السيد كيريازوبولوس: لقد واتته الجرأة مرة أخرى ونجح فى مسعاه. فقال السيد بيريكليس أثانا سياذيس وهو يرده إلى الواقع: ومع ذلك فإن الأمور ليست سهلة على هذا النحو... فدول الغرب قد استشاطت غضبًا وتنمرت، وباتت قاب قوسين أو أدنى من تمزيقه إربًا. ـ سوف يخرج من المعمة ظافرًا فإنه مقدام جسور. ـ إننى أخشى عليه من الانتقام ـ هل ترى هذا؟ ـ بالطبع، فإن التحدى كبير. هل تعتقد أن من السهل عليه أن يدفع تعويضات لكل ملاك الأسهم؟ إن قيمة هذه التعويضات باهظة، يا صديقى، إنها تفوق الحصر. وبوجه خاص فإن متطلبات الشركاء الإنجليز والفرنسيين تصل إلى أرقام فلكية. وحتى لو أفلح فى أن يدفع التعويضات لهم، فإنهم لن يهضموه أو يقبلوا تصرفه بسهولة، حيث إن هيبتهم قد أهدرت بصورة لا يمكن إصلاحها.

أخذ السيد كيريازوبولوس يرمق صديقه باهتمام أشد، فى حين واصل الآخر حديثه قائلاً: إن أشد ما أخشاه هو احتمال إقدام أحد

الجانبين على القيام بمناورات مراوغة أو خطرة - ماذا تعنى؟ - أنا لا أستبعد الغزو. - تقصد الحرب؟ - هذا هو المرجح - هذا ما كان ينقصنا الآن... - فليكن الله فى عوننا - دعنا نأمل أن الأمور كلها ستمر بهدوء - أجل... دعنا نأمل فى ذلك، ولكن الأمور ليست مواتية على الإطلاق، أكد الصحفى قوله بثقة، الأمر الذى أزعج صديقه على نحو أشد، ثم ختم حديثه بقوله: ينبغى علينا أن نستعد لما هو أسوأ.

(١٦)

لكن مخاوف السيد أثاناسياذيس لم تتحقق على الأقل بطريقة سريعة. ذلك أن وصاياه التنبؤية - كما يصف أصدقاؤه تنبؤاته عادة وهم يمازحونه - قد غدت لحسن الحظ كاذبة، على الأقل فى الوقت الحاضر. وهكذا فقد مر فصل الصيف بهدوء، كما بدأت حدة القلق البالغ والتخوف من الانتقام من جانب الأوروبيين أو غيرهم ممن كان يمسهم الأمر. بدأت تخف وتضعف شيئًا فشيئًا، مثلها فى ذلك مثل قطرات الندى فى الصباح قبل فترة قصيرة من تربع الشمس على عرشها فى كبد السماء، وقت الظهيرة خلال يوم قائظ من أيام شهر أغسطس.

كان الناس يبحرون فى بحار من السعادة ووصل فخارهم إلى ذروته. وهم مفعمون بالأمل والأحلام نشدانًا لمستقبل باهر. وكانت مياه نهر النيل قد بدأت مرة أخرى فى الفيضان، ولكن شعب مصر كان يبدو هادئًا قرير العين، إذ كانت الأعمال التى تقام فى إنشاء

السد العالى بأسوان تنمو وتتطور وكان كل شىء يبشر بالرخاء والتقدم.

كذلك كان مصنع قسطنطين يشهد انتعاشًا وتحسنًا بعد الأزمة التى واجهها خلال الفترة الأخيرة، كما بدأ قسطنطين يتطلع إلى المستقبل بنظرة مفعمة بالأمل، بعد أن تسلح بالشجاعة من حقيقة مفادها أنه لم يتلق أى تحذير من الغرفة التجارية اليونانية، عن وجود تغيير جوهرى محتمل فى مجال عمله. ومن ناحية أخرى فإن علاقته بزوجته - برغم أنها لم تتحسن بشكل محسوس - بدت كأن هناك نسمة من التفاؤل تداعبها وتهب عليها على استحياء من آن لآخر، وهو أمر كان يبشر بنوع من التعايش الهادئ الذى كان ينبئ بتوقعات أفضل للمستقبل. وكان قسطنطين قد عرض على زوجته التى كانت قد أنهت لتوها دراستها الجامعية أن تعمل معه فى مكتبه، ولكنها رفضت هذا العرض بلطف قائلة له إنها تفضل العمل بالتدريس. وكان التدريس حلمًا من أحلامها كانت تحافظ عليه منذ صباها منذ أن كانت تلميذة فى المدرسة الابتدائية، وكانت ترغب فى أن تحققه يومًا ما.

وفى بداية العام الدراسى الجديد تم تعيين أليكساندرا مدرسة فى المدرسة الجديدة، أعنى مدرسة (أمبيتيوس) التى تم بناؤها خلال العام السابق، وكانت تضم فى جنباتها ما يربو على ألف وخمسمائة تلميذ وتلميذة من أبناء الجالية اليونانية. وكانت هذه المدرسة مدرسة حديثة تقع فى حى الدمرداش. الذى هو ضاحية

من ضواحى مدينة القاهرة، وكانت مساحتها تشغل أرضًا شاسعة مؤلفة من ١٧٠٠٠ فدان، وتحتوى على مبان لا نظير لها كانت تغطى تقريبًا خمس هذه المساحة.

ولقد بلغ اضطرابها أقصاه عندما شاهدت فى حفل التدشين الطلاب الذين هم على وشك التخرج، يجلسون فى الصفوف الأولى للمصطفين وفقًا لفصولهم الدراسية، إذ لاحظت أنهم يبدون أصغر سنًا منها وأنضر شبابًا. وفى الوقت نفسه انتفخت أوداجها وامتلأ قلبها فخرًا، وأيقنت أنه فى هذا المكان سوف تسنح لها الفرصة لكى تحلم ولكى يراودها الأمل، ولكى تحس من جديد بنداء الحياة ينبعث داخلها. وفى اليوم التالى، فى ساعة مبكرة من الصباح قبل أن تتحرك للذهاب إلى المدرسة، تلقت مكالمة تليفونية من أنجيليكى التى كانت تريد أن تتمنى لها خالص الأمانى القلبية بالتقدم والرقى فى وظيفتها. ثم من بعد ذلك أنهت إليها بسرور بالغ أن زوجها سوف ينقل إلى مدينة القاهرة قريبًا، ودعتها لحضور حفل عيد الميلاد الثالث لابنتها الصغيرة.

وفى مساء هذا اليوم ذاته قبل أن يحل الغروب قامت أليكساندرا بزيارة السيدة بيلا، صديقتها المسنة التى كانت تقيم بحى الموسكى... فلقد انصرم شهر تقريبًا منذ المرة الأخيرة التى قابلتها فيها وكانت تشتاق إليها بشدة. وفضلاً عن ذلك فقد كانت أليكساندرا شديدة الحماس ومفعمة بالسرور، حيث إنها كانت تريد أن تتقاسم مشاعرها مع الإنسانة التى نفثت الأمل فى حلم صباها،

وقادت خطاها ودشنتها فى المهنة التى اختارتها لنفسها، مع الإنسانة التى كانت تثق فيها أكثر من أى مخلوق آخر. طرقت الباب ولكن لم يفتح الباب أحد، ولكن بعد مرور عدة لحظات سمعت صوت سير صديقتها التى كانت تجر قدميها ببطء.

وعندما فتحت لها :السيدة المسنة الباب كانت على وجهها ابتسامة تجاهد من أجل أن تبقيها ثابتة، وكانت هذه الابتسامة تخفى محياها الذى كان لا يزال جميلاً برغم التجاعيد التى كانت محفورة عليه، وهى تجاعيد كانت تضع بصمتها على وجهها وتنحت فوقه آثار السنين والتعب بأزميل الزمن القاسى الذى لا يرحم، وتحفر أخاديدها العميقة الناجمة عن الوحدة والانطواء. وكانت زرقة غلالة النوم التى كانت ترتديها تضارع زرقة عينيها، وكانت هذه الزرقة قد غدت بدورها باهتة بمرور السنين. أما غلالة النوم التى كانت ترتديها فقد تفككت خياطتها على الأقل فى موضع تحت فتحة الذراع، كذلك تفكك الزران الصغيران اللذان كانا يغلقان فتحة الصدر، وصار أحدهما معلقًا بخيط رفيع دون أن يسقط، مما أسفر عن كشف بياض بشرتها المتجعدة فى المنطقة الواقعة فوق صدرها وتحت عنقها. وكان شعرها الأبيض الناصع غير المرجل يبدو مثل إكليل مهوش، أو بالأحرى مثل هالة جليلة من النور كانت يومًا ما تشع بالنور وتتألق بالضياء. كان شعرها هذا يمنح محياها مسحة عجيبة بعيدة عن الواقع، وكأنها كانت ملاكًا هبط من السماوات، وانتهى به المآل إلى هذا الحى الفقير البائس عقابًا له على فعلة اقترفها.

ولما رأت أليكساندرا معلمتها القديمة على هذه الحال المزرية انقبض قلبها أسى وحزنًا، فلقد بدت لها المعلمة وقد اعتراها الوهن والتعب أكثر من آخر مرة التقت بها فيها، وأنها قد استسلمت لعوامل الزمن ولتعاسة الشيخوخة، فى حين أن ملامحها التى اعتراها الإهمال بشكل غير عادى - إذ أنها لم ترها إطلاقًا على هذه الصورة من الإهمال والهجران - جعلتها تشعر بالشفقة عليها، ولكنها حاولت أن تخفى اضطرابها وجزعها.

مساء الخير!، بهذا حيتها وردت على ابتسامتها بابتسامة أعرض. مساء الخير، بهذا ردت عليها السيدة العجوز، وبمجرد أن طهرت حلقها من الخشونة التى كانت تلازمه، استمرت قائلة بحماس واضح كان يخيم عليه الإرهاق وتشوبه الحيرة: كم أنا سعيدة برؤيتك. يا أليكساندرا..... لم تتكلم أليكساندرا. ولكن المرأة المسنة استمرت فى الحديث وهى تفسح لها الطريق لكى تدلف إلى الداخل: هيا، ادلفى إلى الداخل، يا بنيتى، ولكن أرجو أن تسامحينى على ردائى هذا، فلم أتوقع زوارًا اليوم، كانت تشرح لها الموقف بهذه الكلمات وهى ترتب شعرها المهوش بطريقة تلقائية بيدها التى يعلوها النمش.

ودلفت أليكساندرا إلى الحجرة الوحيدة التى يتكون منها منزل المرأة العجوز المتواضع، وهى حجرة مربعة ذات سقف منخفض ليس بها من الأثاث سوى سرير حديدى ترقد عليه السيدة بيلا. وخزانة ملابس صغيرة بجواره وأريكة قديمة فى مواجهته بالضبط. ووقع

بصرها على خزانة الملابس فوجدت زهرية صغيرة بها وردتان ذابلتان، وكانت هذه الزهرية بمثابة المسحة الوحيدة للرفاهية فى منزل صديقتها الصغير المتواضع. وكانت الزهرية موضوعة فوق مفرش جميل من الدانتلا منسول الخيوط على الأقل فى حوافه، وشاهدت أليكساندرا إلى جانبه بالضبط زجاجة الكولونيا التى كانت تحتوى على عطر الورد، والتى كانت قد حملتها معها هدية لمعلمتها فى المرة الأخيرة التى زارتها فيها منذ أربعة أسابيع، وكانت السيدة بيلا قد استهلكت نصفها تقريبًا.

وكانت توجد على الجدار فوق السرير أيقونة صغيرة لأحد القديسين، وفى الناحية اليسرى كانت توجد صورة ذات برواز قديم ردىء الصنع، حال لونه مثلما حال لون الجدار الذى وضع فوقه. وكانت الصورة صغيرة جدًا بحيث لم تتمكن أليكساندرا أبدًا، فى جميع المرات التى زارت فيها المنزل، من أن تتبين من مكانها الذى كانت تجلس فيه على الأريكة، ملامح الأشخاص الذين كانوا مصورين فيها. ولكنها لم تجسر أبدًا على أن تسأل صديقتها مهابة لها وإجلالاً، وكذا مخافة أن تقلب ماضيها رأسًا على عقب أو أن تجرح مشاعرها بغير حصافة.

اجلسى. يا بنيتى. قالت لها السيدة العجوز هذا وهى تشير إلى الأريكة فأطاعتها أليكساندرا، وجلست السيدة بيلا بدورها على طرف السرير الذى لم يكن مرتبًا، والذى كان يصدر صريرًا كلما ناء بحمله وكأنه حيوان جريح. ثم أردفت قائلة: أرجو أن تعذرينى

للإهمال البادى، يا بنيتى، ولكننى كما قلت لك آنفًا لم أكن أنتظر زوارًا اليوم، كررت هذه العبارة لكى تبرر بها اعتذارها عن عدم قيامها بترتيب سريرها، فى الوقت الذى كانت تبسط فيه يدها على المفرش لتجذبه حتى النقطة التى كانت تجلس فيها، من أجل أن يغطى تقريبًا الجزء القذر من الملاءة. وهنا قالت أليكساندرا: بحق الله أرجو أن تسامحينى لأننى جئت على غير انتظار وبدون ميعاد سابق. كانت أليكساندرا وهى تقول ذلك ترمق معلمتها العجوز بعينين مغرورقتين بالدموع وزاخرتين بالحنان وبحزن غامر، كانت تجاهد دون جدوى بغية إخفائه من السيدة المسنة... كانت حالة معلمتها المحبوبة قد ساءت منذ المرة الأخيرة التى زارتها فيها. ولقد أدركت أليكساندرا ذلك من ملامحها ومن نظراتها ومن الطريقة المتثاقلة المتعبة التى كانت تنطق بها الألفاظ، كما أن المكان المحيط بها كان يبدو أنه يشهد بدوره على سوء حالتها، فقد كان يصرخ بجلاء معلنًا انعدام الاهتمام بحياة السيدة العجوز ذاتها فى كل مظهر من مظاهرها.

أتعرفين؟ كنت أتمدد فى فراشى وأفكر فيك منذ الصباح، وبالأحرى كان السبب فى هذا هو أننى كنت أحس مسبقًا بحضورك وأتوقع زيارتك، قالت لها معلمتها هذا فانقبض قلب أليكساندرا وانفطر حزنًا عليها. فقالت لها: أجل! وفضلاً عن ذلك لم يكن بوسعى أن أعزف اليوم عن القدوم لزيارتك. قالت هذا ثم ضحكت برقة. وهنا قالت السيدة العجوز وهى تحدق فى وجهها بعينين

تعبران عن انعدام الصبر: وبعد؟ كيف انقضى اليوم الأول لك فى المدرسة؟ - على خير ما يرام، وإن كان التلاميذ الصغار يحتاجون إلى مواجهة صارمة على نحو أشد...: قالت هذا وهى تضحك. ولكن حماسها ما لبث أن تبدد فى اللحظة التى لاحظت فيها من ملامح صديقتها أنها تعانى من صعوبة فى التنفس، فسألتها منزعجة: هل تشعرين بتعب ما؟.

إننى بخير، أجابتها السيدة العجوز بهذا لكى تهدء - روعها وهى تتحاشى أن تنظر إليها، ثم أردفت قائلة: لا تنزعجى لأمرى، يا بنيتى. ثم مدت المعلمة يدها من جديد هذه المرة إلى أحد أدراج خزانة الملابس وتناولت صندوقًا كرتونيًا صغيرًا أزرق اللون، وهو صندوق الشيكولاتة الذى كان مغلفًا بغلاف أزرق لامع. والذى كانت قد أهدته لها أيضًا أليكساندرا فى إحدى زياراتها الأخيرة لها. وقامت بفتح الصندوق بحرص وعناية وقدمته لها لكى تأخذ منه قطعة شيكولاتة، وكانت تهدف بالأحرى من وراء هذا التصرف إلى تشتيت انتباه صديقتها الأصغر وصرف اهتمامها عن حالتها الصحية السيئة.

شكرتها أليكساندرا ولكنها لم تتناول أيًا من قطع الشيكولاتة الثلاث التى كانت قد بقيت داخل الصندوق. وهنا قالت السيدة العجوز: خبرنى، هل ما يقال عن المدرسة حقيقى؟. - ماذا يقولون عنها؟. - يقولون إنها كبيرة جدًا وعصرية جدًا، قالت هذا بعد ان

اتسعت حدقتا عينيها الذابلتين، وكأنها كانت تحاول أن تتخيل شكل المدرسة أو كأنها كانت تريد أن تراها بعينى قلبها.

قالت لها أليكساندرا: أجل... إنها بالفعل كبيرة جدًا ومبانيها عصرية وكذلك معاملها - حقًا إنها أكبر مدرسة فى مصر كلها. ضحكت أليكساندرا من التعبير الذى جاء على لسان صديقتها، فقد كانت معلمتها العجوز تخفى داخلها روح طفولة لا بد أنها اكتسبتها مع الزمن بسبب لقائها المستمر مع الأطفال الذين كانت تعلمهم؛ وهنا تساءلت أليكساندرا عما إذا كانت هى نفسها سوف تكتسب يومًا ما هذه الروح. وهنا قالت لمعلمتها: إنها حقيقة، فالمدرسة تحتوى على صالات للألعاب وثلاثة أروقة ومكتبة وعيادة ومدرج كبير ومسرح كبير للعروض والاحتفالات وأشياء أخرى كثيرة.

كم أود أن أزورها!، عبرت المعلمة عن دخيلتها وكأنها أمنية لن تحققها أبدًا، فقالت أليكساندرا: قريبًا جدًا، فبمجرد أن تشعرى بتحسن سوف آخذك معى لزيارتها، كان هذا ما وعدتها به. وهنا أطلقت السيدة بيلا تنهيدة من أعماقها، فقالت لها أليكساندرا بعد فترة من التردد: إن الجالية تفكر فى ضم تلميذات مدرسة أخيلوبولوس للبنات إلى المدرسة الجديدة.

رمقتها السيدة بيلا بحيرة ودهشة حادة، فقد كان من الواضح أن عزلتها فى هذا المنزل الذى يبدو كالصومعة لم تسمح لها بسماع شىء عن التغييرات الهائلة التى كانت تجرى حولها، ثم قالت: أحقًا؟ لماذا؟ - إن هذا بسبب القانون الخاص بالتعليم المختلط، وهو قانون

صدر منذ زمن قصير فى بلاد اليونان، قالت أليكساندرا هذا ثم ضحكت ضحكة ذات مغزى، وبعدها أردفت قائلة فى لهجة جادة: ثم إن عدد الصبيان قد بدأ بالفعل فى التناقص. قالت السيدة بيلا: بدأ فى التناقص؟ وا أسفاه! - ولسوء الحظ فإنه عدد أفراد الجالية بدأ فى التناقص والاضمحلال رويدًا رويدًا... ولكن لحسن الحظ فإن الخسائر ليست جسيمة حتى الآن، ولكن.... كانت أليكساندرا تقول هذا بشىء من الفخر. فقالت العجوز: ماذا تريدين أن تقولى؟

- إن الجالية تخشى أن يستمر هذا التناقص، وبذلك تصبح المدارس اليونانية مضطرة للاندماج مع بعضها وضم التلاميذ جميعًا فى مدرسة واحدة.

وهنا توقفت أليكساندرا عن الكلام. فلم تكن تعرف ما إذا كان من الحصافة أن تبوح من جانبها بكل هذه المعلومات لسيدة عجوز، عاشت فترة ظفر الجالية ومجدها وعاصرت ذروتها وتقدمها ونجاحها، غير أن أليكساندرا أرادت أن تكون صريحة للغاية معها. فقد كان من غير المعقول أن تدعها تقتات على الأوهام الباطلة والأفكار الخادعة وأن تعيش مع الأحاسيس الكاذبة. ذلك أن السيدة بيلا كانت إنسانة ذكية ومحترمة. ولهذا فإن أليكساندرا المعلمة الشابة كانت توقرها وتثق فى رأيها بلا حدود.

ولدهشتها لم تنبس السيدة العجوز ببنت شفة، بل اكتفت بأن حولت أنظارها صوب النافذة المفتوحة التى كانت تطل على البناية المواجهة، كما ظلت برهة من الزمن تحدق فى الأيقونة التى كانت

موضوعة داخل إطار خشبى. وهنا بدت أمام ناظريها فتاة صغيرة ترتدى فستانًا طويلاً ذا لون أزرق لامع وتضع على شعرها منديلاً مبهرجًا لونه فوشيا ـ وكان طرفا المنديل مربوطين بعقدة فوق رأسها ـ وكانت هذه الفتاة قد خرجت إلى شرفة منزلها فى البناية المواجهة وأخذت تنفض بساطًا. كانت المنازل قريبة جدًا من بعضها لدرجة أن ذرات الغبار وصلت إلى مسكن معلمتها المتواضع.

وبعد مرور عدة لحظات وبينما كانت المعلمة العجوز تهز رأسها ببطء من أجل أمر لم تفهمه تلميذتها الشابة، غمغمت السيدة بيلا بلهجة حالمة وقالت: يبدو إذن أنه وصل.... ولم تتمكن أليكساندرا من أن تفهم لمن كانت معلمتها العجوز تتوجه بكلماتها هذه: هل كانت توجه لها الكلام أم كانت تحادث نفسها؟ وكانت أليكساندرا من المكان الذى تجلس فيه تلمح نظرات صديقتها المسنة، التى بدت كأنها تبحر فى أعماق الزمن أو كأنها كانت تحلم بشىء بعيد غير متوقع ربما كان سيحدث لها. وربما كانت ذاكرتها تستعيد مرة أخرى تلك الأيام الخوالى الرائعة عندما كانت الجالية اليونانية فى مصر فى أوج أمجادها، فلقد كانت آنذاك امرأة شابة مفعمة بالأحلام والرغبات والطموح. ولكن السيدة بيلا ما لبثت أن عادت مرة أخرى إلى الحاضر وإلى منزلها المتواضع، فالتفتت إلى تلميذتها الشابة وقالت: يبدو أن حمولة الزمن قد وصلت إلى غايتها....، ثم توقفت برهة قصيرة وأردفت قائلة: أجل! إنها نهاية عصر. يا أليكساندرا... وهناك عصر آخر يولد بكل تأكيد. وهنا

هزت الفتاة رأسها دليلاً على موافقتها وكررت كلمات معلمتها العجوز بصوت خفيض قائلة: هناك عصر آخر يولد بكل تأكيد.

أليكساندرا؟، قالت العجوز هذا؛ - نعم: - ينبغى علىّ أن أبوح لك بشىء: - ما هو؟؛ - إننى أستعد للرحيل عن هذا المنزل؛ - ترحلين؟ وأين ستذهبين؟؛ - إننى ما عدت قادرة على العناية بنفسى، يا بنيتى. وهنا أحست المرأة العجوز بالتعب ولكنها واصلت حديثها قائلة: إن حالتى تزداد سوءًا على الدوام و......؛ ثم توقفت برهة عن الكلام. وكان توقفها هذه المرة لكى تتنهد وأردفت قائلة: ينبغى علينا كلينا أن نتقبل أن نهايتى قد باتت وشيكة. فقالت أليكساندرا: لماذا تقولين هذا الكلام؟؛ - حتى أكون صريحة فإننى أعتقد أن نهايتى قد تأخرت على أية حال، ثم ضحكت فى وهن وأردفت قائلة: لقد كان الله رحيمًا بى....

رنت أليكساندرا بعمق داخل عينيها اللتين كانتا تحتفظان حتى الآن بشىء من الجاذبية، ولم تشأ أن تتقبل أن كل شىء قد تغير فى الحقيقة وأن كل شىء قد صار إلى نهايته. كم كانت تود أن تصل جميع الأشياء كما كانت: الجالية اليونانية، السيدة بيلا، والحياة. ثم من بعد ذلك بدت كما لو كانت قد تذكرت شيئًا فسألت معلمتها العجوز بعد أن تجدد أملها: وماذا عن أم نعيمة؟ ألا تقوم هذه المرأة برعايتك على الدوام؟.

وهنا أطلقت السيدة المسنة تنهيدة خفيفة وقالت: آه! لك الله يا جارتى المسكينة الحبيبة أم نعيمة!، قالت هذا ثم توقفت برهة قصيرة عن الحديث لتستريح وأردفت قائلة: لقد أصابها الهرم

مثلى، يا أليكساندرا، قالت هذه العبارة وهى تبتسم ابتسامة تحمل مزيجًا مختلطًا من المرارة ومن الإحساس بقبول الواقع، ثم استأنفت كلامها: وفضلاً عن ذلك فإن أحفادها الكثيرين قد أرهقوها وأصابوها بالوهن، فلم تعد قادرة على الاعتناء بى.

خفضت المعلمة الشابة أبصارها لكى تخفى أساها وتدارى حزنها الذى كان يغدو كل لحظة أشد وطأة، وبرغم أنها كانت تعرف أن هذا اليوم سيأتى عاجلاً أو آجلاً، فإنها لم تشأ تقبل هذه الحقيقة المؤلمة. وهنا كسرت السيدة العجوز حاجز الصمت المحير وقالت: لقد عشت أجمل حياة فى هذا البلد، عشت حياة بأكملها ولن أغير حياتى هذه من أجل أى شىء فى العالم. صمتت السيدة بيلا مرة أخرى لبرهة قصيرة تطلعت خلالها إلى الخارج من النافذة وكأنها تريد تسجيل شىء ما، ثم قالت: فى الحقيقة لست قادرة على أن أعيش فى أى مكان آخر...، غمغمت بهذه الكلمات وكأنها كانت تحدث نفسها ثم التفتت مرة أخرى إلى صديقتها الشابة واستمرت فى حديثها: بكل صراحة أنا لا أهاب الموت، يا أليكساندرا. فرمقتها أليكساندرا بعينين مفتوحتين على اتساعهما ولكنها لم تقل شيئًا، فأردفت معلمتها قائلة: ويكفى أننى سأموت فى المكان الذى ولدت فيه، وهذه فى حد ذاتها ميزة لا نظير لها.. وأنت تعرفين ذلك، يا بنيتى.. إنها نعمة لا يحظى بها كل الناس.

قالت أليكساندرا فى جزع: لا تتحدثى بهذه الطريقة من فضلك...... ولكن السيدة بيلا قاطعتها مرة أخرى بقولها: يا

أليكساندرا، إن الحياة جميلة جدًا ولكنها لا تستمر أبدًا على حال واحدة. إنها تتغير مثل مياه النهر... وإن هذا أمر نتعلمه نحن البشر جميعًا منذ الخطوات الأولى لنا فى الحياة، توقفت العجوز برهة قصيرة عن الحديث ثم أردفت قائلة: وإن بداية السعادة بالنسبة لنا هى أن نتقبل هذه الحقيقة. ومع ذلك فلا يجمل بنا أن نظل ملتصقين بما هو قديم، يا بنيتى، بل ينبغى أن نتخلص من الأمس وإلا فلن نعيش أبدًا أحرارًا، قالت السيدة بيلا هذه العبارات وهى تلمح إلى أمر يخص تلميذتها وكانت أثناء حديثها تحدق بعمق فى عينيها. ثم أردفت قائلة: إن من يظلون فى إسار الماضي، يا بنيتى، يغدون تعساء أشقياء.

فهمت أليكساندرا ما كانت تلمح إليه السيدة بيلا بحديثها، وبرغم أنهما لم تتطرقا أبدًا مرة أخرى - فى كل مرة كانتا تلتقيان فيها - للحديث عن حالتها الحساسة المؤلمة وما حدث لها إبان ذلك الصيف الحزين، فإنهما أحستا أن هذا الذى حدث ينتصب أمامهما كالشبح. ولقد أدركت أليكساندرا أيضًا أن هذه الكلمات نفسها كانت تتعلق بحياتها الخاصة وبماضيها الذى كانت قد حفظته سرًا فى أعماق روحها كما لو كان كنزًا ثمينًا، وبرغم أنها لم تبح به أبدًا لكائن من كان فإنه كان من الواضح أن هذا الماضى قد استغرقها بالكامل. برغم أنها كانت ترفض البوح به وتريد الانفصال عنه لكى تتقدم فى حياتها، فإنه سلب من ذاتها أكبر نعمة فى حياتها ألا وهى الحياة نفسها.

وهنا قالت أليكساندرا: أحس مرات كثيرة بأن ما عشته فى الماضى كان كافيًا، أكدت لها تلميذتها ذلك وكأنها وجدت فى خاتمة المطاف الفرصة المناسبة لأن تسر إلى صديقتها، التى كانت تبوح لها بمكنون نفسها وبأفكارها المنطقية ومخاوفها؛ ثم استأنفت حديثها قائلة: إننى أخشى أن يكون الماضى قد توقف منذ زمن عن إثارة اهتمامى. كانت أليكساندرا تثق بمعلمتها العجوز دون سائر الناس منذ أن تحولت علاقتهما معًا إلى صداقة من نوع خاص، فقد كانت السيدة بيلا هى الإنسانة الوحيدة التى كانت تعرف أسرار حياتها، كما كانت المرأة الشابة تحس أن هذه الأسرار كانت تربطهما معًا بعمق بالغ الخصوصية. ومن ثم فقد كان بوسعها أن تفضى بأسرارها إلى هذه المرأة العجوز وحدها وأن تبوح لها بكل ما خفى من فكرها، وكان ما تحدثت به الآن إليها أمرًا لم تجرؤ على كشفه أبدًا لأى مخلوق مهما كان أو تجسر على قبول فكرة البوح به. ولكن ما كان أشد غرابة من هذا هو أن المعلمة العجوز كانت فى كثير من المرات تمدها بإجابات على أسئلتها حتى قبل أن تتمكن المعلمة الشابة من صياغتها.

مدت السيدة المسنة يدها إلى شفتى صديقتها الشابة، وكأنها كانت تريد أن تختم على فمها لتمنعها من الاسترسال فى الحديث وقالت لها: لا تتلفظى بمثل هذا الكلام إطلاقًا مرة أخرى.....، وكأنها كانت توبخها برفق بهذه العبارة ثم أردفت قائلة: إن الماضى ينتمى إلى هؤلاء الذين لا يرغبون فى أن يعيشوا حاضرهم، وإلى هؤلاء الذين يخشون أن يحلموا بالمستقبل. تنهدت السيدة بيلا

تنهيدة عميقة ثم أردفت قائلة، وكأنها كانت هذه المرة تحادث نفسها: إن العجائز المسنين من أمثالى ليس لهم نصيب فى نعمة الحلم... هل تعرفين لماذا؟ لأن الطبيعة ذاتها قد حرمتهم من هذا....

وهنا اغرورقت عينا أليكساندرا بالدموع، إذ كان هناك شىء ما داخلها ينبئها بأن هذه الكلمات لم تكن سوى رسالة وداع للسيدة العجوز. ولكنها فهمت كذلك أن السيدة بيلا كانت قد وهنت أكثر من ذى قبل، وأنها لن تتحمل أكثر من ذلك مثل هذا الضرب من الحوار والتساؤل عن المشكلات. فما كان منها إلا أن قالت لها: لقد تأخر بى الوقت ولقد أرهقتك بالحديث؟، قالت هذا وهى تحاول أن تحبس عبراتها فى فجوتى عينيها. بعدها ضغطت على يد معلمتها المتغضنة بكفيها ونهضت واقفة على غير رغبة منها من جلستها على الأريكة القديمة. فقالت لها السيدة العجوز وهى تحدق بعمق فى عينيها: لقد سعدت جدًا بحضورك، يا عزيزتى، فالوحدة فى خريف العمر لا تحتمل ولا تطاق.

ساعدتها أليكساندرا على التمدد فى فراشها ثم غطتها برفق بالمفرش القطنى الذى كان على سريرها ثم أغلقت مصراع النافذة، فقد كان نور الشمس لا يزال موجودًا بالخارج برغم أن الساعة قد تخطت الثامنة، ثم قالت لها: سوف أراكِ قريبًا، وعدتها بدلك ثم قبلتها على وجنتها الذابلة. كانت الرائحة المنبعثة من بشرتها بسبب العرق تختلط برائحة عطر الكولونيا الذى كانت قد وضعته على

وجهها، فذكرت أليكساندرا بأوراق الورود الجافة التى تتساقط من فوق القبور تحت أشعة الشمس الحارقة إبان الظهيرة؛ وظلت هذه الرائحة مطبوعة فى ذاكرتها على الدوام.

(١٧)

بعد انصرام وقت قصير على الاحتفال اللامع بذكرى عيد الاستقلال اليونانى الموافق ليوم ٢٨ أكتوبر، وهو الاحتفال الذى تم فى الصالة الكبرى للمدرسة اليونانية وفى مسرحها، بحضور جميع القائمين على أمر الكنائس الأرثوذوكسية للجالية والكنائس التابعة لها، صعدت أليكساندرا إلى قاعة الدراسة لكى تجمع أغراضها. وكان الجو داخل القاعة يغمره السكون، حيث إن معظم المعلمين كانوا قد رحلوا لتوهم بعد انقضاء الاحتفال، فيما خلا القليل النادر منهم الذين كانوا سوف يشاركون فى الاجتماع الطارئ الذى كان مدير المدرسة ينوى عقده.

وبمجرد أن دخلت أليكساندرا وزملاؤها الأربعة مكتب المدير حتى أدركوا أن هناك أمرًا خطيرًا قد حدث، فقد شاهدوا المدير وهو جالس على مقعده الوثير وقد غمره اليأس والإحباط بوضوح، فضلاً عن أنه كان مستغرقًا فى التفكير وفى التحديق بنظرات ثابتة فى وثائق كانت موضوعة على مكتبه. وعندما رفع الرجل نظراته وثبتها على وجوه زملائه، أعلن عليهم بدون مواربة وبحزن واضح أن القوات الإسرائيلية قد قامت بغزو شبه جزيرة سيناء، وأنها تتقدم صوب قناة السويس.

ساد الصمت بين الحاضرين للحظات وغدوا نهبًا للحيرة والذهول ثم انتابهم قلق بالغ، إذ إن الخوف من نشوب حرب والعواقب الوخيمة لذلك قد ارتسم على نظراتهم المذهولة. التى كانوا يتبادلونها بعضهم مع بعض. كما ازدادت مخاوف أليكساندرا عندما تذكرت اليونانيين الذين كانوا يعيشون ويعملون حتى الآن فى المنطقة، وكذا المصريين الذين كانوا يخدمون فى هذه البقعة المجاورة لقناة السويس. ولم يكن هناك أدنى شك فى أن الخسائر الناجمة عن هذا الصدام سوف تكون جسيمة وهائلة، وفى أن العواقب الوخيمة له سوف تفوق التقديرات، حيث إن الصدام الحربى لا ينتج سوى المخاطر وحدها.

وبعد مرور أيام قليلة على هذا تلقت أليكساندرا مكالمة تليفونية من جارة صديقتها أنجيليكى هزتها من الأعماق هزًا، إذ أخبرتها الجارة - بعد إلحاح من صديقتها أنجيليكى لكى تحادثها تليفونيًا - أن زوجها أحمد قد سقط صريعًا فى ساحة الجهاد بعد أن قاتل ببسالة وبطولة فى معركة قناة السويس، وأنه لقى مصرعه قبل أسابيع قليلة من نقله إلى مدينة القاهرة...

ومع القطرات الأولى لأمطار فصل الخريف كانت غلالة من الحزن الثقيل تلف البناية الصغيرة المؤلفة من ثلاثة طوابق والكائنة فى شارع حلمى بضاحية المعادى: ولقد أحست أليكساندرا بهذا الحزن بمجرد أن صفت سيارتها على الجانب المواجه من الطريق. كانت الغلالة الضبابية التى تلف الجو ذات نسيج كثيف لدرجة أنه

كان بوسعها أن تلمسها لو أنها مدت يدها للأمام، ولم تكن هذه الغلالة الضبابية تغطى فقط سماء هذه الضاحية بعينها، بل كانت تمتد بلا هوادة ولا رحمة لتغطى سماء مدينة القاهرة بأسرها وسماء البلاد كلها.

كانت قد حضرت لتقديم التعازى لصديقتها ولمواساتها ومساندتها وشد أزرها، كما فعلت قبل أربعة أعوام عندما حضرت جنازة والدتها الراحلة، على الرغم من حالتها النفسية التى كانت تدعو للرثاء. لقد كانت أنجيليكى صغيرة السن.. صغيرة جدًا.. لم تتخط العام الثالث والعشرين من عمرها، بيد أن القدر ابتلاها بالمصائب مرات عديدة فى حياتها. فالموت يضرب أناسًا بعينهم بعنف أشد من سواهم، ويطاردهم بإصرار، عندما يلوح له أنهم ضعفاء مطحونون وأنهم بمثابة فريسة أو غنيمة بالغة السهولة. والعدالة بالنسبة للموت معنى مجهول، طالما أن هذه العدالة لا تحقق أهدافه بحياد ودون انحياز. وفى الحقيقة فإن الموت يعتبر بمثابة قدر ظالم لا يرحم.

وتذكرت أليكساندرا الطفلة الصغيرة التى كانت فى أحضان صديقتها أنجيليكى، ووجهها الأسمر الجميل، وتذكرت ضحكاتها وسرورها فى يوم عيد ميلادها الثالث الذى احتفلت به منذ عهد ليس بالبعيد، وأفضت بها هذه الذكرى إلى حزن أشد عمقًا. إذ تذكرت محيا أنجيليكى الذى تغمره السعادة ويحف به النور والهناء، وتذكرت الفخر الذى كان يتألق فى عينيها عندما قدمت لها ابنتها

لتراها للمرة الأولى، وتذكرت فرحها الذى اختلط بالحياء عندما قالت لها إن الصغيرة تشبه والدها أحمد، الذى لم تتمكن أليكساندرا من رؤيته إلا من وصف صديقتها له ومن صور الزفاف التى كانت موضوعة فوق البوفيه القديم.

تسمرت خطى أليكساندرا عند مدخل بوابة المنزل وترددت فى الدخول: فبماذا يمكنها أن تواجه صديقتها؟ وماذا عساها أن تقول لها؟ وما الكلمات التى يمكنها أن تمنح السلوى والعزاء لإنسان، فقد الكثير خلال سنوات عمره قبل أن يتمكن من أن يعيش حياته؟ وفكرت فى أنه ربما كان يجب أن تمر عدة أيام قبل أن تقابل صديقتها، فتحركت لتقفل أدراجها راجعة. ولكنها فكرت ماذا لو أن صديقتها كانت بحاجة إليها فى مثل هذه الساعة القاسية؟ وماذا لو كانت تحتاج إليها؟

وعندئذ توقفت مرة أخرى لعلمها أن أنجيليكى لم يكن لديها أى إنسان آخر فى العالم تعتمد عليه فى حزنها وألمها، فضلاً عن أن أليكساندرا كانت تحس بأنها مذنبة فى حق صديقتها بسبب غيرتها منها. وبسبب الأفكار السلبية التى أحست بها تجاهها عندما تقابلت معها قبل شهور قليلة من الآن، فمنذ ذلك الوقت أصبحت كل منهما لا تنفصل عن صديقتها. ولكن، يا رباه! أنى لها أن تجد الشجاعة لكى تراها وتقابلها؟ وماذا يجب عليها أن تفعل لكى تهدئ من روعها وتداوى جرحها الذى أصيبت به حديثًا جدًا؟

نظرت إلى مدخل المنزل محاولة أن ترتب أفكارها عندما لمحت ظلاً خلفها لفت انتباهها فالتفتت لكى تنظر إليه... كانت السحب تظلل ضوء الأصيل الضبابى الرطب، بينما كانت قطرات المطر التى تواصل السقوط تصنع غلالة أثيرية مثل الرداء، بينها وبين الهيئة التى كانت تنتصب الآن واقفة فى مواجهتها على مسافة قصيرة منها، موقظة داخلها ذكرى قديمة ولكنها نابضة بالحياة.

أحست بيد باردة تعصر قلبها، ومن بعدها شعرت أن هناك خدرًا يسرى فى جسمها وكأنها أصيبت بالشلل المفاجئ، ولم يكن بها من أثر للحياة سوى ما تشع به عيناها. زحفت نظرتها تجاهه شيئًا فشيئًا بنعومة غريبة، بشعور بالحنين إلى الماضى كانت تحس أنه مؤلم للغاية. عندما كان منطقها يجاهد فى اللحظة ذاتها كى يفرض وجوده على تيار مشاعرها المتدفق. لقد كان هو بشحمه ولحمه.. لقد كان عادلاً... وإن كان يبدو أنه أكبر سنًا، ولكنه كان يزخر بالوسامة بينما كانت ملامح وجهه وكأنها تلونت بخطوط واضحة لفرشاة رسم، لتعبر عن النضج والرجولة فى آن. وهنا رغبت أليكساندرا فى التحدث إليه وفى أن تصرخ فى وجهه وفى أن توبخه بقسوة، ولكنها عندما فتحت فمها تجمدت الكلمات على شفتيها ولم تنبس ببنت شفة.

وزاد اضطرابها عندما ابتسم لها حبيبها بتلك الابتسامة التى لا يمكن التصدى لها، والتى لم تتوقف أبدًا عن جعل فكرها جميلاً

برغم أنها حرمت منها لفترة تزيد على أربع سنوات بكاملها. وبرغم أنها كانت تستشرفه دومًا فى خيالها وبرغم أنها كانت تعرف أنها يومًا ما سوف تقابله وجهًا لوجه، فإنها لم تتوقع أن يحدث هذا اللقاء بهذه السرعة - على الأقل ليس فى مثل هذه الظروف التراجيدية - وهى تحس أن ضعفها كان شديد الوضوح بحيث لا يمكنها أن تجابهه. شعرت فجأة أنها واقعة فى فخ وأنها غدت فريسة لحالة ما، كانت تحلم مرات لا حصر لها بأنها سوف تواجهها، ولكنها لم تكن تعرف كيف سيتسنى لها مواجهتها أو كيف سيتسنى لها الهروب منها.

أليكساندرا!، تناهى إليها صوته الزاخر بالعاطفة والذى كان موجهًا إليها بجسارة وشجاعة مثلما كان دأبه قبلاً، مثل المرة الأولى فوق الجسر. ولكنه كان هذه المرة أجش وأعمق بدرجة أكبر من ذى قبل بسبب تدخينه للسجائر وبسبب مرور السنين التى انصرمت.

رمقته أليكساندرا وهى مذهولة بينما كانت هناك سلسلة من الصور الداكنة تدور أمام عقلها فى مشهد باهر الإنارة. أترين؟ لقد نطقت اسمك هذه المرة دونما خطأ، استمر عادل فى حديثه وهو يزم شفتيه بطريقة، برغم أنها بدت لأليكساندرا مضطربة إلى حد ما، فإنها اعتقدت أنها تنم عن فرط تأثره. ولكنها على أية حال لزمت الصمت مرة أخرى، وحشدت كل قواها لكى تسيطر على نفسها، ولكى تتغلب على خمولها وضعفها، ولكى تجابه الحرب التى نشبت داخلها. وعندما أفلحت فى خاتمة المطاف فى فعل هذا همت

بالانصراف. ولكن عادلاً مد يده وأمسك بمعصمها بقوة، ثم قال لها في شبه توسل واستعطاف: انتظرى من فضلك....

وصوبت أليكساندرا نظرة تأنيب ليد الرجل، فما كان منه إلا أن سحب يده بسرعة عندما شعر بأنه أخطأ، أنا آسف!، غمغم بهذه العبارة وهو يرمقها بنظراته ثم قال: ولكنى أرجوك ألا ترحلى من فضلك. ظلا على هذه الحال للحظات وكل منهما يواجه الآخر، تحاصرهما التساؤلات التى كانت تلتهب على شفتى كل منهما، وتحدق بهما الحيرة وقطرات المطر التى واصلت السقوط، مثلما حدث آنذاك حينما التقيا لأول مرة على الجسر، وكأن المطر كان شاهد صدق على هذه الصدفة الغريبة. وكان عادل هو أول من كسر حاجز الصمت مرة أخرى بقوله: منذ الوقت الذى حضرت فيه أنجيليكى إلى مكتبى وتحدثنا عنك، لم أستطع أن أنتزعك من عقلى.

خفضت ناظريها كما لو كانت لا تتحمل أن تراه مرة أخرى، أو كأنها لم تعد تحتمل كذبه وبهتانه، فلقد اعتقدت أنه كان يسخر منها، حيث إن أنجيليكى لم تخبرها أبدًا بمثل هذه المحادثة التى دارت بينهما. كنت أتمنى أن يحدث مثل هذا اللقاء بيننا، بل إننى صليت من أجل حدوثه، وشاهدى على هذا هو الله...... قال هذا ثم استأنف الحديث بقوله: برغم أننى أعترف أننى لم أتمن أن يحدث اللقاء فى مثل هذه الظروف الحزينة.

ولكن الخدر الذى استشرى فى جسمها لم يسمح لها برد الفعل، فقد كانت تتوق بشدة إلى التحدث إليه، ولكنها أحست بأن من المستحيل أن تتحدث، وكأنها كانت ترزح تحت واحد من تلك الكوابيس التى كانت معتادة على رؤيتها فى لياليها، خلال الفترة التى انفصل فيها عنها، وكانت تعتقد آنذاك أنها قد خسرته إلى الأبد. ومن هذه الكوابيس - على سبيل المثال - أنها كانت تراه وهو يقف فى آخر الجسر وينحنى فوق القضبان الحديدية لكى ينظر إلى مياه النهر: وكانت ترى نفسها واقفة فى الجهة المقابلة له، وهى تحاول أن تجذب انتباهه عن طريق صياحها بأعلى صوتها وقوتها مرة بعد مرة ولكن بدون جدوى ولا طائل. وكانت كلما فعلت ذلك كان صوتها الذى أصيب بالخرس ولم يعد مسموعًا يخونها ولا يطاوعها إلى أن يختفى حبيبها، وكانت تستيقظ من نومها حينئذ والعرق البارد يغمر جسدها، من فرط التوتر والجهد الذى بذلته فى مساعيها واليأس الذى منيت به لفشلها.

أعرف أنك غاضبة منى..... أصر عادل على قول هذا مغتنمًا الفرصة ومستمدًا الشجاعة من أن أليكساندرا لم تدر له ظهرها كما كان يتوقع، ثم أردف قائلاً: ومع ذلك فأنا أيضًا غاضب منك!.

- أنت؟، نجحت أخيرًا فى أن تتلفظ بكلمة فكسرت بذلك على غير توقع منه حاجز الكابوس الرهيب، ثم أردفت قائلة: أنت الغاضب منى؟ أنت؟ أنت يا من اختفيت من حياتى بدون شرح أو تفسير؟ أنت يا من انسللت مثل اللص دون أن تعطينى دليلاً على أنك حى؟

أنت يا من تركتنى فريسة للخوف والخجل؟ إن تصرفك هذا لم يكن عادلاً!.

استمرت فى حديثها مثل تيار المياه الجارف المتدفق الذى يحطم سدًا أسمنتيًا منيعًا، وتمكنت من التوقف فى اللحظة الأخيرة قبل أن يجرفها اندفاعها الذى لا سيطرة عليه إلى مياه أكثر غورًا. لقد كانت لدى مهمة سامية رفيعة، مهمة مقدسة كان علىّ أن أنفذها وأصل بها إلى نهايتها مع رفاقى وزملائى، قال لها عادل ذلك بلهجة مثيرة للفضول وغير معتادة منه، ثم استرسل قائلاً: وعندما عدت ـ على أية حال ـ كنتِ قد رحلتِ بالفعل.. فبحثت عنك فى كل مكان، وسألت عنك بوابى العمارات المجاورة والبقال وبائع الخضر الموجود فى الضاحية وأعطونى جميعًا الإجابة نفسها، وهى: لقد رحلت مع خطيبها إلى مدينة الإسكندرية.

وهنا ضحك ضحكة خافتة بينه وبين نفسه، وكانت ضحكته ضحكة مبتورة، رن صداها برعب فى هذا السكون الحزين الذى كان يلفهما. شعرت أليكساندرا بالاضطراب، فبرغم أن هذا كان أحد الاحتمالات التى جالت بخاطرها، فإنها لم تتوقع أن تسمعه وهو يصرح به بفمه. ثم استطرد عادل قائلاً: لقد تألمت بشدة وجرحت فى كبريائى، ولكن ماذا كان بوسعى أن أفعل، يا أليكساندرا؟. رمقته بنظراتها ولكن الأفكار الجارفة حالت مرة أخرى بينها وبين التحدث، ومنعتها من أن تدافع عن نفسها أو تبرر

موقفها. ماذا كان بوسعى أن أفعل؟، عاد عادل ليكرر من جديد بلهجة خالية من الاضطراب بعد أن سيطر عليه الهدوء تمامًا. هل كان علىّ أن أذهب إلى الإسكندرية لأثأر من خطيبك اليونانى؟.

لم تستطع أليكساندرا أن تفسر لهجته، وأحست بقدر كبير من الاضطراب لم تكن تملك الهدوء اللازم لتحليله، ولكن كان هناك على أية حال شىء فى ملامح وجهه الجديدة قد تغير بكل تأكيد، وكانت ترى ذلك بوضوح. لقد كانت أنجيليكى على حق فلم يعد عادل هو الشخص نفسه الذى كانه. لقد كانت لدىّ مهمة سامية كان علىّ أن أصل بها إلى نهايتها، عاد عادل ليكرر ما قاله قبلاً بلهجة أكثر هدوءًا وضبطًا للنفس، وكانت لهجة تتناسب مع رجل فى مثل مركزه ومكانته. كان يتحدث بكبرياء وفخار وبلهجة تنم عن أنانية كانت أليكساندرا تراها فيه لأول مرة، حيث قال: ليس بوسعك أن تتصورى الأمر... فلو لم أكن أنا بل كان من أحبك هو واحد من بنى جلدتك... فإنك لن تفعلى سوى الشىء نفسه......

كان يبدو لا مباليًا أو على الأقل باردًا، وكانت لهجة صوته جافة تنم عن أنه تحرر من كل ما يمت للإحساس بصلة. ليس الأمر كذلك، قاطعته بينما كانت تحاول أن تفسر سر لهجته التى تغيرت. وهنا قال لها: لقد ظلمتِنى وكان الشىء الوحيد الذى فكرتِ فيه هو أننى قد هجرتك. قالت الفتاة: لقد فات الأوان... فات الأوان. - أعرف، أجابها وهو يهز رأسه بغضب ويطوحها إلى الخلف، ثم قال:

أعرف أن الأوان قد فات... لقد مرت أربع سنوات على ما يبدو لى.. ماذا كان يمكن أن يحدث لو لم تقع كل هذه الأشياء. هل كنت ستوافقين على الزواج منى؟ وهنا استشعرت أليكساندرا مسحة من السخرية تشوب صوته.

رمقته وحدقت فى عينيه، وأحست أنه يبدو عليه أنه كان يعرف مسبقًا إجابتها، فقال لها: ما كنتِ مستعدة للتخلى عن حياتك وعقيدتك ومنبتك من أجل خاطرى، أليس كذلك؟. قالت أليكساندرا: إن هذا أمر ليس بمقدورنا أن نعرفه أبدًا....، قال عادل: ما كنتِ لتفعلى هذا أبدًا، اعترفى بذلك.

ولا أنت كنت ستفعله، أجابت أليكساندرا بلهجة قاطعة. قال عادل: ربما! وأقر ذلك قائلاً: ربما كنت على حق، وربما لا. ولكن أيًا كان الأمر فلقد أحببتك بكل وضوح وبصراحة، وأريد أن تعرفى هذا... لقد أحببتك بكل ما أملك من قوة ولم أحب إنسانة أخرى سواكِ....

أسدلت أبصارها ثم قالت: ليس إلى هذه الدرجة على أية حال... فلقد وثقت بى وخاطرت من أجلى....، قال عادل: لم يكن هناك حل آخر سوى ذلك، ـ وهل تعتقد أن هذا يمحو كل شىء سلف؟ ـ إن الماضى انتهى وما عاد له وجود ـ ما عاد له وجود فى الحقيقة. رددت هذا وسمعته وكأنها بهذا توافق على ما قاله، وعلى أنه اختار بالكاد اللحظة الأخيرة لكى يبقى على لهجة التساؤل فى عبارته الموجهة لها.

تفحص عادل وجهها للحظات قصيرة ولاطفه بنظراته، وكأنه كان يبحث فيه بدوره عن آثار أو علامات انطبعت فوقه طوال هذه السنوات. ولا بد أنه شعر بالرضا عن اللوحة التى تفحصها بالفعل بكل عناية وتمهل، وذلك لأن أساريره انفرجت وارتاحت بصورة محسوسة. لدرجة أنه ذكرها بالعاشق الرقيق الذى كانه قبلاً. أما أليكساندرا فقد أسدلت رأسها لأنها لم تحتمل أن تكون موضعًا لتفحصه لها ولعينيه اللتين كانتا تخترقانها. ولكن برغم أن المنطق كان يملى عليها الانصراف فإنها لم تستطع أن تتحرك قيد أنملة.

وهنا قال عادل: كم أود بشدة أن أراك مرة أخرى، يا أليكساندرا ..... قال لها هذا فأفزعها منه مرة أخرى، فرفعت رأسها من جديد وصوبت إليه أنظارها ورمقته باستياء واضح قائلة: كيف؟، نجحت هذه المرة فى أن تتلفظ بالكلمة. فقال عادل ردًا عليها: لا تسيئى فهمى. فأنا أعنى أن نتقابل كأصدقاء... أعنى كأصدقاء قدامى. وأصرت أليكساندرا على صمتها وطفقت ترمقه بالطريقة ذاتها لتثير استياءه.

تتحدث عن الصداقة؟، غمغمت أليكساندرا بارتياب شديد. فقال عادل على الفور: لقد كنت دائمًا هناك من أجلك، وانتظرتك. لقد تابعت تقدمك وعرفت أنك كنت تدرسين بالجامعة وأنك عينت بعد تخرجك معلمة فى المدرسة؛ - وكيف عرفت بهذا كله؟: - إن لى مصادرى الخاصة؛ - هل تتجسس علىّ؟.

أهانته الجملة الأخيرة بصورة تفوق التخيل، وكان من الواضح أنها مست وترًا حساسًا فى شخصيته، فقد اسود وجهه وامتقع

للمرة الأولى وتبدلت ملامحه على حين غرة، لدرجة أن أليكساندرا أصيبت بالهلع. ثم من بعد ذلك ارتد خطوتين إلى الخلف ورمقها بنظرة زاخرة باللوم وكانت عيناه تشتعلان بالغضب حينما قال: لقد حضرت هنا لكى أقوم بواجبى ولكى أقدم ضريبة الشرف والتكريم لرجل سقط شهيدًا من أجل وطنه. إن لدىّ دينًا فى عنقى يجب أن أؤديه.

وهنا صرخت أليكساندرا وكأنها واقعة تحت تأثير كابوس رهيب وقالت: إنه وطنى أنا أيضًا، فقال عادل: علىّ أن أقدم التعازى لزوجة بطل صنديد همام. قالت أليكساندرا: أتسمع؟ إن هذا البلد بلدى....؛ فقال عادل: لن أسمح لكائن أيًا كان أن يقدم على إهانتى بهذه الطريقة، سامحينى.

وبدون أن يمنحها الفرصة لتبرير موقفها أو للشرح والتفسير، سبقها إلى الانصراف واندفع نحو بوابة المنزل. أحست بتيار الهواء الذى انبعث من هذه الحركة السريعة للغاية وكأنه يلطم وجهها ويوقظ داخلها ذكرى أخرى كان الزمن قد واراها. وشاهدته وهو يصعد السلالم بسرعة دون أن ينظر خلفه على الإطلاق. وقفت هناك وكانت على وشك التداعى والانهيار. فقد كانت بالفعل قد اهتزت من الأعماق وكان قدماها يحملانها بكل جهد جهيد. كانت تتوق بشدة إلى الرحيل من مكانها هذا بأقصى سرعة ممكنة، فلم يكن بوسعها أن تظل فيه بعد الآن ولم تك قادرة على الصعود إلى

منزل أنجيليكى. فأى مكان لها بينهم؟ شعرت فجأة بأنها غريبة جدًا، وأن صلتها مقطوعة مع الناس الذين يقومون بواجب العزاء فى هذا المنزل. وكان عليها أن تحرك جسمها من جديد ولكن بدنها الذى كان ثقيلاً مثل صخرة أسمنتية أبى أن يطاوعها أو يمتثل لها.

(١٨)

ولم ترجع أليكساندرا إلى منزلها هذه الليلة برغم أن قسطنطين كان متغيبًا، إذ أحست بأنها ضعيفة ومتعبة وأنها بحاجة إلى دفء أسرى وإلى رعاية والديها؛ ولم تشأ أن تواجه زوجها حتى تليفونيًا، ولذا فإنها عهدت إلى والدها بأن يخبره أنها سوف تمضى أيامًا قليلة معهما فى منزل الأسرة إلى أن يعود من مباشرة أعماله. ومر عليها اليومان التاليان بهدوء وبغير توتر نفسى - أو على الأقل هكذا اعتقدت - فقد راضت نفسها على ألا تتكلم إلا بالقليل النادر. ولكى تتحاشى أسئلة والديها وارتيابهم - برغم أنهم على أية حال كانوا قد أدركوا حالتها النفسية - فقد حرصت على إظهار اهتمامها بالمناقشات التى كانت تدور بينهما، وعلى أن يبدو عليها أنها كانت تتابعها باهتمام بالغ، برغم أنها لم تكن تسمع كلمة واحدة مما كانا يقولانه. وكان الشىء الوحيد الذى تسعى إليه هو البرء من أعراض هذه المقابلة غير المتوقعة مع عادل والتفكير بروية وهدوء.

لقد تمنت بكل ما تملك من قوة أن تتمكن من السيطرة على نفسها وأن تتحرر من رغبتها الشديدة فى مقابلته ومعاودة لقائه: وكانت رغبتها هذه المرة هى أن تتخلص من الشك والارتياب ومن

التساؤلات. ولكن رغبتها هذه بدلاً من أن تهجع وتتطامن كانت تزداد كل لحظة، إلى أن أصبحت مؤلمة بصورة لا تطاق ولا يمكن التغلب عليها بصورة ماحقة. فلم تكن أليكساندرا تملك القوة اللازمة لقهر هذه العاطفة الجامحة أو للسيطرة بشدة على نفسها، وذلك لفرط ضعفها الذى كان من المحتمل أن يدفعها إلى القيام بأفعال ذات عواقب وخيمة يصعب التنبؤ بها.

وعندما كان تفسيرها القديم الناضج لعلاقتها مع (عادل) يلح على مخيلتها. ويدفع عقلها للاستهجان وفكرها إلى الاستنكار جنبًا إلى جنب مع لذة لحظات العشق، كانت تثور على نفسها وتؤنب روحها على طبيعتها الضعيفة الهشة، وعلى عجزها عن الانصياع فى خاتمة المطاف لصوت الحكمة والتعقل والمنطق.

إننا نشعر بالقلق عليك، يا أليكساندرا، قطع عليها والدها بهذه الجملة استغراقها فى التفكير والتأمل. كانوا يتناولون إفطارهم فى حجرة الطعام ويتناقشون فى عواقب الحرب الرهيبة. قالت أليكساندرا: أتشعرون بالقلق؟ ولأى سبب؟، فقال الأب: منذ اليوم الذى أتيت فيه وأنت دائمة التفكير ومتكدرة المزاج. ماذا يحدث لك؟. ـ ماذا يحدث لى، يا بابا؟ لا شىء على الإطلاق بصراحة. قالت هذا ثم أخفت وجهها خلف فنجان القهوة البورسلين لبرهة من الوقت. وعندما أنزلت فنجان القهوة إلى المائدة مرة أخرى نجحت فى إيجاد مبرر معقول فقالت: إننى فقط متضايقة مما حدث حولنا فى الآونة الأخيرة، وأتعذب لهذا السبب.

ـ أنت محقة فى هذا، فالأمور ليست على ما يرام، وآمل أن تمر هذه الظروف بسلام وأن يعود إلينا الهدوء والصفاء. وفضلا عن ذلك فقد واجهنا الكثير من المتاعب! ـ آمل ذلك، يا بابا، غمغمت أليكساندرا بيأس. ـ ومع ذلك فهناك أمر كنت أود أن أناقشه معك منذ فترة من الزمن، قال والدها هذا ثم صمت برهة استأنف بعدها حديثه: لقد ترددت حقًا، ولكن ينبغى أن أعترف لك بحيرتى وارتباكى. ـ ماذا يحدث؟. شعرت أليكساندرا بأن ملامح والدها تسبب لها الحيرة. ولكنها مع ذلك لم تنجح فى التنبؤ بالموضوع الذى كان يريد أن يتحدث فيه، آخذة فى اعتبارها هذا المظهر الزاخر بالحرص الذى بدا على والدها.

وهنا قال والدها: لماذا توقفت عن مرافقة زوجك فى سفرياته إلى عمله؟ فأنت تقريبًا لم تذهبى معه فى أية سفرة قام بها. كما أن الأقاويل تعيد وتزيد عن غيابه فى سفرياته بدونك. كان القلق واضحًا فى نبرة صوته التى كانت تشوبها جرعة صغيرة من الانتقاد. إن الأقاويل لا تهمنى بحال من الأحوال، كان هذا هو رد فعل الزوجة الشابة بعد أن أحست بالغضب وصدمت من رأى والدها، ولكنها كانت فى الحقيقة لا تأبه للشائعات على الإطلاق، أفلم يكن يكفيها ما تعانيه من متاعب؟

لا ينبغى أن تتجاهلى أحكام الناس وكلامهم، يا بنيتى، تدخلت والدتها فى الكلام بغية توجيه النصح لابنتها ـ أحقًا ينبغى علىّ

ذلك؟. قالت أليكساندرا هذا وهى ترفع نبرة صوتها الغاضب. ـ هذا ما جبل عليه الناس، يا عزيزتى أليكساندرا، أردفت والدتها قائلة هذا فى تردد، ثم ألقت نظرة على زوجها وكأنها تطلب منه أن يخرجها من هذه الورطة الصعبة.

إن هناك أمورًا، يا بنيتى، شئنا هذا أو لم نشأ تصبح نظامًا قائمًا بذاته قرونًا من الزمان. وليس من السهل أن نبطل أثرها فى يوم وليلة، قال لها والدها هذا مفسرًا به رأيه. وبرغم لطف طباعه وآرائه التقدمية، فإن ما قاله كان يبدو قاطعًا وحاسمًا. وماذا عن الحرية الشخصية والإرادة الحرة؟ وماذا عن نعمة أن يختار الإنسان نوعية الحياة التى يريدها؟ ماذا عن هذه الأشياء كلها، يا بابا؟ هل هى مجرد زينة تحلى بها صفحات الكتب؟، كان يبدو فى صوتها الغضب الحاد، وكأنها كانت تكدس نبرات صوتها فى نبرته كل هذه السنين من التفكير والعذاب وخيبة الأمل. قال والدها: كلا بالطبع! ولكن هناك أمورًا معينة كما سبق أن قلت لك لا يمكن تجاهلها... فكيف يتسنى للمرء أن يتغاضى عن المبادئ التى تغلغلت جذورها فى أعماق الكيان الاجتماعى بأسره؟.

فقالت أليكساندرا: نحن ندلف إلى مشارف الستينيات من القرن العشرين وأنت لا زلت تتحدث عن حتمية الموروثات! هل هذا ممكن؟: ـ تقصدينِ ما هو مقبول من الموروثات...، صحح لها والدها كلامها بجدية ورزانة. ـ إن هذه الشقشقة كلها عن الموروثات والمبادئ والتصرفات المقبولة قد أرهقتنى من أمرى عسرًا، ولم أعد

أسمع سواها لسنوات بكاملها، قالت الفتاة هذا وهى تقهقه بعصبية.

وهنا قال والدها: إن أنجيليكى قد تحدت هذه الموروثات ورأيت ما كابدته من معاناة. أُخِذَت أليكساندرا على حين غرة وارتجفت جراء هذا الانحراف المباغت للمناقشة الدائرة بينهما، ولكنها بوغتت على نحو أشد بهذا التلميح الواضح الصريح الذى انطوت عليه عبارة والدها. فما كان منها إلا أن صوبت إلى والدها نظرة زاخرة بالملامة، وصاحت فى وجهه بغضب واضح قائلة: ماذا تعنى؟ إن من الظلم البين أن تقول هذا! إنه ظلم صارخ. خاصة الآن حيث تعيش أنجيليكى فترة حزينة تراجيدية جدًا.

ولكن والدها استمر فى حديثه بثبات. وهو يمارس ضبط النفس بطريقة تدعو للإعجاب قائلاً: إن المغفور له والدى، أعنى جدك، كان يقول لى باستمرار أهون على الإنسان أن يضحى بذاته وأن يضحى بحياته نفسها. من أن يضحى بجذوره وقيمه التى ورثها عن آبائه وأجداده... وحيث إننى كنت آنذاك لا أزال حدثًا صغير السن. فقد سخرت حقًا من آرائه المحافظة. إلا أننى مع ذلك حينما شببت عن الطوق وتقدم بى العمر فهمت أنه كان على حق فيما قال.

قالت أليكساندرا: وعلى أى شىء ترتكز فى رأيك هذا، يا بابا؟.

- فهمت أنه على حق من سبب واحد جوهرى، أردف والدها قائلاً بحزم متجاهلاً مرة أخرى سؤال ابنته: إن ذاتنا تنتمى إلينا حيث إننا نمارس عليها إرادتنا الحرة. أما جذورنا فتنتمى إلى أولئك

الذين أورثونا إياها. وبناء على ذلك فإننا أسرى لهم على الدوام، وليس لنا الحق فى أن نتنكر لهذه الجذور. سببت (لها) كلماته هذه وعلى الأخص ملامحه غضبًا شديدًا: وكان صدى هذه الكلمات يخفى الصرخة الرهيبة التى كانت تحزن عقلها. ولكنها مع ذلك نجحت فى أن تستعيد برود أعصابها، إلى أن يتاح لها الفوز فى المعركة التى سوف تخوضها. ولكن قبل أن تبدى رد فعلها على هذا، أردف والدها قائلاً: إننى لم أؤمن حقًا بصدق نصيحته لى إلا حينما وجدت نفسى فى مواجهة ورطة حدثت لى فى الماضى.....

قال هذا ثم توقف برهة عن الكلام وكأنه كان يريد التذكر ثم انتهى إلى قول ما يلى: لا! لا! ليس لنا الحق فى أن نتجاهل كل هذه الأمور أو نبطلها. فسوف تنقضى عقود كثيرة من الزمن وعصور متتالية لكى ننجح فى تحقيق هذا، وحتى مع افتراض نجاحنا فى هذا فسوف تظل أمور بعينها موجودة وسوف تحدد هذه الأمور نوعية الحياة للأجيال القادمة. فهناك أمور بعينها لا تتغير ولا تتبدل أبدًا....

لم تطق أليكساندرا صبرًا على معارضة والدها لها فى الرأى: فبرغم أنها كانت تعلم علم اليقين أنه كان يحبها بإفراط وأنه كان معجبًا بها بلا حدود، فإن الموضوعات التى كانت تتعلق بالمفاهيم الخاصة بالموروثات من الآباء والأجداد كانت تتحول عند الحديث معه إلى طريق مسدود لا حل وسط فيه. وكانت بمثابة مناقشة تنم عن العناد والتشبث بالرأى لم تكن تحتملها أليكساندرا بحال من

الأحوال، وهى حقيقة كانت تثير حنقها منذ نعومة أظفارها. ومن ناحية أخرى فإن حالتها النفسية لم تكن لتسمح لها أن تضيع جل وقتها فى مشاحنات ومماحكات أخرى.

وفى تلك اللحظة دخلت الخادمة العجوز حجرة الطعام وكأنها إله يهبط من الآلة فى المسرح الإغريقى القديم، فقطعت بذلك حبل المناقشة المثيرة للحنق والغضب. وقالت: أستميحك عذرًا. يا سيدتى، فلقد نسيت أن أخبرك بشىء... لقد أحضر ساعى البريد رسالة للسيدة أليكساندرا منذ وقت مضى. قالت أليكساندرا: رسالة لى؟ هنا؟. قالت الخادمة العجوز: نعم! لقد تركتها فى المطبخ. هل تودين أن أحضرها لك؟.

اعتقدت أليكساندرا أن هذه كانت فرصة ذهبية ومبررًا وجيهًا للنهوض من على المائدة، وإنهاء المناقشة التى لم تكن لتسفر سوى عن احتكاك ومصادمات بينها وبين والدها. ولذا قالت: لا! لا! شكرًا لك. لقد انتهيت من إفطارى وسوف آخذ الرسالة بنفسى، كان هذا هو ما قالته للخادمة العجوز. نهضت أليكساندرا من مقعدها وذهبت إلى المطبخ حيث شاهدت الرسالة موضوعة فوق الثلاجة، وبينما كانت تتناولها بيدها تساءلت كيف لم تفطن إلى وجودها قبل ذلك. تفحصت المظروف من الوجهين فلم تجد عليه اسم المرسل. فقامت بفتحه وبدأت فى قراءة محتويات الرسالة. وفجأة اتسعت حدقتا عينيها إلى أن أصبحتا فى الحال مثل شريطين ضيقين. حتى تمنع العبرات من التساقط على صفحة

وجهها البارد. كانت الرسالة رسالة من قبل إدارة دار رعاية المسنين اليونانية، وكانوا يخبرونها أن السيدة بيلا قد رحلت عن الحياة وأنها تركت لها وديعة صغيرة.

استقلت سيارة تاكسى، فلم تكن قادرة على أن تقود سيارتها وأحست بأنها مرهقة بالفعل: ومن الواضح أن الحركة فى الطرقات فى تلك الساعة سوف تستنفد الجهد والطاقة، خاصة بالنسبة لحالتها النفسية السيئة. وعندما وصلت أليكساندرا إلى دار المسنين اليونانية لكى تتسلم أغراض السيدة بيلا، وجدت أن كل ما كان بحيازة صديقتها المتوفاة كان قد جمع ووضع فى صندوق صغير من العاج لونه مائل للصفرة. قامت أليكساندرا بفتح الصندوق بمفتاح صغير أعطته لها مديرة دار المسنين، فوجدت بداخله ربطة صغيرة من الخطابات وصورًا فوتوغرافية قديمة، كما عثرت على صرة صغيرة بها عدة جنيهات ذهبية.

تركت أليكساندرا المال لإدارة المؤسسة ثم دلفت إلى حديقة دار المسنين، وآثرت أن تجلس على أريكة خشبية تحت ظل وارف لنخلة عجوز: كانت نخلة عجوزًا مثل النزلاء الذين كانوا يستمتعون بأشعة الشمس فى الشرفة المواجهة لها، وهم غارقون فى وحدتهم وعالمهم الفريد من نوعه، عالم النسيان والذكريات. ولقد أحزنتها هذه الصورة حزنًا يفوق التخيل؛ فأحست برغبة فى أن توجد فى ذلك المقهى الذى جلست فيه ذات مرة مع عادل أمَامَ تمثال أبى الهول، ولكنها لم تجد فى نفسها الشجاعة لأن تخطو خطوة واحدة.

وما إن جلست على المقعد الخشبى حتى أراحت على ركبتيها الصندوق العاجى الصغير كما لو كان طفلاً صغيرًا عليلاً تعتنى به، وأخذت فى يديها تلك الربطة من الصور الفوتوغرافية، وأخذت تمعن النظر فيها واحدة واحدة بعناية وتركيز. كانت معظم الصور قديمة ـ ولقد أدركت هذا من مظهرها ولونها الباهت ـ وكانت تصور أسرة سعيدة مكونة من خمسة أفراد تعيش فى مدينة من مدن أقاليم مصر، هى على ما يبدو مدينة الزقازيق التى كانت مسقط رأس صديقتها المسنة التى توفت إلى رحمة الله. واستطاعت أن تتبين فى صورة من الصور حديقة قصر كبير، وفى صورة أخرى حقلاً شاسعًا من حقول القطن، كانت ثماره البيضاء التى تلوثت من فرط القدم والإهمال قد تميزت فى مقابل خلفيته القاتمة.

ومن بين الصور الفوتوغرافية كانت توجد واحدة استطاعت أن تتعرف عليها فى الحال، فقد كانت هى الصورة التى كانت المرأة العجوز قد علقتها فوق سريرها على الحائط العارى. فأخذت أليكساندرا تتفحصها بعناية وانحدرت دمعتان على وجنتيها. ففوق الورقة السميكة القاتمة للصورة كانت توجد صورة رجل شاب وصورة امرأة شابة فائقة الجمال. وكانت صورة المرأة هى صورة السيدة بيلا فى ريعان شبابها، حيث كانت جذابة آسرة، هادئة البال وواثقة من نفسها ومن حياتها، وحيث كانت تنظر إلى الحياة بثقة وتفاؤل. لقد تعرفت عليها فى الحال من نظرتها التى لم تفقد أبدًا

بريقها، ومن بسمتها التى لم تذبل أبدًا، ومن ملامحها التى ظلت دومًا كما هى بدون تغيير وكأنها طفلة نضرة. وفكرت أليكساندرا أن بعض الملامح المميزة تظل دومًا ثابتة بدون تغيير على مر الزمان دون أن تخضع لقهره وسلطانه. إنها ملامح تظل على حالها دون تغير تتحدى الزمن وتُثبت ـ برغم قوة الزمن التى لا تقهر ـ أنها تتغلب على كل شىء، وتبرهن أن الزمن ليس وحده الذى لا يقهر فى المقام الأول.

كانت اللعنة ذخرًا قدسيًا، وكانت هذه الصورة الفوتوغرافية بمثابة تأثير فائق فى نفسها وفى داخلها ودليل على عودة قرارها إليها: أو تراها كانت فقط بمثابة ذريعة تبرر بها ضعفها؟ ضعفها الذى كانت تحمله دومًا على كاهلها كما لو كان تذكارًا لحبها الذى لم يقدر له النجاح أبدًا ولم يتحقق، حبها الذى كان عقيمًا مثل علاقتها الرسمية بقسطنطين، حب بلا طائل ولا نتيجة وبلا أمل مثل علاقتها غير الرسمية بعادل. ضحكت كثيرًا من هذه الأفكار التى بدا لها أن من الغريب أن تفكر فيها، بل بدا لها فكرها على العكس من ذلك قاسيًا وحقيقيًا بدرجة كبيرة.

بحثت مرة أخرى داخل الصندوق العاجى. فوجدت فى القاع ربطة صغيرة من الرسائل موضوعة فيه، فقامت بفتح غلاف مظروف منها بالصدفة ونشرت ورقة الرسالة الموجودة فيه بحرص وعناية؛ وتبين لها أن محتوى الرسالة وكذا عنوان المرسل إليه كانا

مدونين باللغة الفرنسية. وعندما قرأت أليكساندرا السطور الأولى من الرسالة أحست كما لو كانت قد انتهكت عالمًا لا ينتمى إليها. وتذكرت آنذاك أن صديقتها الراحلة كانت قد أسرت إليها ببعض الأمور. وكانت قد أفضت لها بشطر من الأسرار التى كانت تحافظ عليها مدونة فى سطور رسائلها الصفراء.

كان تاريخ الرسالة الذى طالعته قديمًا إذ كان العاشر من شهر فبراير عام ١٩٢٩ وبدون أن تفهم وجدت يدها تبدأ فى الارتجاف وكذا شفتيها، فقد كانت الرسالة رسالة غرام مدونة بيد رجل إلى حبيبته. وكانت مليئة بالعواطف الرقيقة والوعود الأبدية بالثقة، وهى وعود كان من الواضح أن من قطعها على نفسه لم يصنها... وعندما قدر لأليكساندرا فى خاتمة المطاف أن تقفل أدراجها عائدة إلى منزل والديها، أخبرتها الخادمة أن والديها قد غادرا المنزل لفترة قصيرة وأنهما سوف يرجعان قبل موعد الغداء. فشرعت تجر قدميها المثقلتين بالإرهاق والحزن وكأنها تقتات على الخيال والأحلام تقريبًا، ثم ولجت حجرة مكتب والدها وسجلت رقمًا جديدًا فى المفكرة.

بعدها طلبت هذا الرقم تليفونيًا وطلبت من صاحبه أن يقابلها عند سفح الأهرامات أمام تمثال أبى الهول كما حدث بينهما فى المرة الأولى. وتقبل الشخص (وهو عادل) هذا المطلب برضا وترحاب. أو كان هذا على الأقل ما بدا لها من حرارة صوته.

(١٩)

كانت القاعة الرئيسية الرائعة المتألقة لمبنى أوبرا القاهرة الفخيم تخلق فى نفس الزائر مشاعر من النشوة، وتوجد لديه الإحساس بصورة منسوخة من عصر آخر، وكانت الثريات الفاخرة الثمينة تشكل قبة شفافة من النور ذات بريق تعشى منه الأبصار، يغمر المكان وينعكس على الآثاث الوثير المنحوت نقشًا، وعلى المرايا وعلى اللوحات المرسومة وعلى السجاجيد الحمراء التى كانت تغطى الجزء الأكبر من الأرضية المصنوعة من المرمر. كان هذا كله بمثابة صبغة قرمزية تذكر الزائر بالقصور الأسطورية. فقد كان الجمال الرائع للمبنى يجذب دائمًا أنظار زائريه المحبين للفنون كما يجذب المغناطيس الحديد. فكانوا يعجبون به إعجابًا لا مزيد عليه وينتشون طربًا بمرآه، ويحسون أنهم انتقلوا إلى عالم آخر مختلف عن عالمهم.

وكان العرض الذى يقدم الليلة على مسرح دار الأوبرا هو عرض أوبرا عايدة، وكانت القاعة الرئيسة للمبنى تغص بحشود من الناس، وكان هذا بمناسبة الذكرى الخامسة للثورة المصرية، ولذا فقد توافد إلى هناك معظم الرموز السياسية والقيادات العسكرية، الأمر الذى أضفى على الاحتفال بهاء ورونقًا. وكانت أليكساندرا معجبة بمبنى الأوبرا من الداخل كما لو كانت هذه هى المرة الأولى التى تزوره فيها، بيد أن هذا الهاجس كان فى الحقيقة يستولى عليها باستمرار فى كل مرة توجد فيها فى هذا المكان. فمنذ أن ولجت

عالم الموسيقى الكلاسية بفضل حبيبها عادل لم يفتها تقريبًا عرض واحد من عروض الأوبرا، وكانت والدتها - أو فيفيان صديقتها - تصطحبها فى معظم المرات للذهاب إلى هذه العروض، وكان قسطنطين يرافقها فى بعضها الآخر، برغم أن قسطنطين لم يكن مولعًا بمثل هذا النوع من الموسيقى فإنه كان يتابع العرض بسرور بالغ.

يا له من زحام كبير هذه الليلة!، علق قسطنطين على ما يراه وهو متضايق. - إنها ذكرى قيام الثورة، ذكرت أليكساندرا هذا بينما كان قلبها قد انقبض، واستولت عليها حالة من الاكتئاب الغريب. أسعد الله مساءكم!، جاءت هذه التحية من طرف أحد معارف الزوجين الشابين. فرد قسطنطين التحية بإيماءة من رأسه وهو متكدر المزاج. ثم قال بصوت زاخر بالاستياء: يوجد هنا كثير من اليونانيين الليلة ....

أجل! أنت محق فى هذا، فالليلة توجد هنا كل قيادات الجالية اليونانية وتقريبًا نصف أفراد الجالية، قالت هذا أليكساندرا واستمرت فى إزجاء التحية القلبية لمعارفها وأصدقائها، ولكنها تحاشت أن تقترب من الحلقات والدوائر التى كان الكثير من اليونانيين يقفون فيها. فلم يكن لديها المزاج الذى يحدو بها إلى الخوض فى مناقشات روتينية متكررة، كانت تجعل قسطنطين ينفعل ويفقد أعصابه أو تثير حنقه واستياءه، نظرًا لأنه كان فى هذه

الظروف كثيرًا ما يوجه إليها اللوم والعتاب الذى يتآرجح ما بين العبوس والمزاح، أو يتهمها بزيادة شعبيتها منذ أن تولت منصبها فى المدرسة اليونانية.

وهكذا ففى غمار محاولتها تحاشى زوجين مزعجين كانا يتأهبان للاقتراب منهما، التفتت فجأة إلى الجهة الأخرى فاصطدمت عن طريق الخطأ بمنكب عريض قوى لأحد الرجال. فرجع الرجل ليبدى لها أسفه. وهنا تسمرت أنظارها على وجهه دون أن تقوى على أن تنبس ببنت شفة. مساء الخير، حياها هذا الرجل (وهو عادل) بصورة جادة رزينة، أما أليكساندرا فقد نجحت بالكاد فى أن تهز رأسها هزة خفيفة. كيف حالك، يا مدام كيريازوبولوس؟ لم أكن أتوقع أن أقابلك هنا، قال لها الرجل ذلك ثم حدج بناظريه الرجل الذى كان يرافقها وقال: إنه زوجك، إن لم أكن قد أخطأت.

وهنا رجع قسطنطين إلى المكان الذى كان يقف فيه الضابط بنجوم الشجاعة التى كانت تتلألأ على الشريط الموجود على بزته الرسمية، وعندما أمعن النظر فى هذه النجوم بحرص وعناية خمن أن الرجل الذى كان يحادث زوجته كان صاحب رتبة عالية. فصوب إلى زوجته نظرة متحيرة، أما هى فقد بذلت جهدًا فوق طاقة البشر أعقبته بابتسامة مصطنعة وهى تقول: أجل! إنه زوجى قسطنطين خريسوستوموس.

فقال عادل: إننى فى شديد الأسف، يا سيد خريسوستوموس، فلقد تذكرت لقب والد زوجتك، هكذا تحدث وكانت نبرة صوته

تـزخـر بمسـحـة غيـر مـحـسـوسـة من الاستيـاء وبـغلاف رهيـف من الـغيـرة. جاهـد أن يبعده فـى الحـال بسعلـة خشنـة وهـو يقول: لقد سعدت جدًا بلقائك. ولما لاحظت أليكسانـدرا الفضول وهـو ينهش قلب زوجها قسطنطين ويتزايد بصورة محسوسة، حرصت من فورها على أن تكمل التعارف بين الرجلين وهى تستعيد رباطة جأشها بصعوبة. ثم قالت: أقدم لك السيد عادل محى الدين، وهو صديق قديم من معارف زوج أنجيليكى الراحل.

نظر عادل نظرة عميقة فى عينيها ولكنه لم يقل شيئًا. بل ابتسم بكياسة ولطف وهو يتحرك بخفة ليقدم مرافقته إليهما: ولم تكن أليكساندرا ـ فى غمار اضطرابها ـ قد انتبهت إلى وجود امرأة شابة تقف إلى جوار عادل الذى قال: أقدم لكما بدورى الآنسة ياسمين، وكان بهذا يكمل التعارف. وعندما اقتربت الفتاة منهما تبينت أليكساندرا أنها كانت فتاة فائقة الجمال وفى ريعان الشباب ويتراوح عمرها حول الخامسة والعشرين عامًا؛ كانت خمرية اللون ذات عينين جميلتين معبرتين ذكرتها بعينى عادل حينما التقت به أول مرة.

الآنسة ياسمين محامية، وقد أنهت لتوها دراستها الجامعية وهى تستعد الآن لإعداد رسالتها للدكتوراه. استأنف عادل الضابط المصرى حديثه بكبرياء وفخر مصطنع. تشرفت بمعرفتك جدًا، قال هذا قسطنطين وهو يحس بالإعجاب تجاه الشابة الفاتنة. وهو تصرف لفت نظر زوجته كما لفت نظر عادل الذى ارتسمت على

شفتيه ابتسامة رضا أخفاها بالكاد تحت شاربه الكثيف الذى كان يظهر رجولته للعيان. أرجو لكما سهرة ممتعة، قال عادل هذا وهو يوجه حديثه بشكل أساسى إلى أليكساندرا وهو يردف قائلاً: إننى واثق من أنكما سوف تستمتعان بالعرض.

أشكرك شكرًا جزيلاً. غمغمت أليكساندرا دون أن تنجح فى التخلص من الرجفة الخفيفة التى انتابتها، ثم خفضت أبصارها إلى أسفل كما لو كانت لا تتحمل مدلول تعبيراته الساخرة. وبمجرد أن ابتعد الزوجان. سأل قسطنطين زوجته بعد أن فطن إلى الاضطراب الذى اعتراها قائلاً: من هذا الشخص؟ فلم أكن أعرف أنك على علاقة مع رجال الشرطة... برغم أن حدة صوته لم تكن مفرطة فإن ملامحه الزاخرة بالمرارة كانت تشهد على استيائه الحاد.

وصل اضطرابه إلى ذروته بسبب ألفاظه وملامحه، ولكنها مع ذلك نجحت فى السيطرة على نفسها حتى لا يفتضح أمرها وقالت: قلت لك إنه من المعارف القدامى لأنجيليكى و...... فقال الزوج: وماذا؟: قالت: هذا هو كل ما فى الأمر، ولا شىء غير هذا. لقد كان جارها قديمًا فى بولاق، وكانا يقطنان نفس العمارة. قال الزوج: إلى هذه الدرجة من رفع الكلفة معه؟، قالت أليكساندرا: لقد قابلته مرة أو مرتين فى منزلها، عندما كنت أزورها. ثم قابلته أيضًا مرة أخرى منذ عدة شهور فى جنازة زوجها التعس.

رمقها قسطنطين فى شك وارتياب واستاءت هى من ملامحه ونظراته. ولكن استياءها كان أكبر من المرأة الساحرة الجذابة

الرقيقة التى كانت برفقة عادل. وفى هذه اللحظة دق جرس المسرح للمرة الثالثة إيذانًا برفع الستار فأنقذها لبرهة من نظرات زوجها الحافلة بالشك والارتياب. ووسط قاعة العرض الفسيحة والزاخرة بالمشاهدين حاولت أليكساندرا أن تركز أفكارها، ولكنها لم تنجح فى التركيز على العرض الذى بدأ لتوه فى التكشف شيئًا فشيئًا على خشبة المسرح ليهز مشاعر المشاهدين بموسيقى فيردى الرائعة وبالفنانين الموهوبين وبالمناظر الفخمة الرائعة.

وتساءلت أليكساندرا باستمرار عن كنه هذه المرأة وهويتها، فى حين كانت عيناها تفتش عنها فى يأس على أمل العثور عليها. وقالت لنفسها إن عادلاً لم يكن يعرف بكل تأكيد أنه سوف يقابلها فى هذا المكان، أم ترى عساه كان يعرف ذلك ويبغى مضايقتها وجرحها؟

(٢٠)

من كانت هذه المرأة؟، طلبت أليكساندرا أن تعرف هذا بلهجة آمرة بمجرد ظهور عادل على الباب. حيث كانت تنتظره منذ وقت مبكر: فلم يغمض لها جفن طوال الليلة الماضية وكانت تتقلب بدون توقف على سريرها بجوار قسطنطين. بجوار رجل كان لا يعبأ على الإطلاق بعشقها بعد أن ثارت أعصابه وهجر سرير الزوجية. أخذت أليكساندرا تفكر فى الفتاة الجميلة التى كانت برفقة عادل، وأحست بالغيرة تنهش روحها وتساءلت: ترى هل كانت مقابلته لها بمحض الصدفة؟ أم تراه حضر برفقة خطيبته المحامية المصرية عامدًا متعمدًا لكى يضايق أليكساندرا ويغيظها؟

وعندما حل المساء استقلت أليكساندرا سيارة تاكسى وذهبت إلى الدهبية (العوامة) التى كانت قد تشبعت برطوبة الماء، والتى كانت تتوهج وتشتعل بشعلة العشق الذى ولد بينهما فى ذلك المسكن الطافى على الضفة الغربية لنهر النيل - أعنى تلك العوامة التى كانت مقرًا لعلاقة عشقهما إبان الشهور الأخيرة بحبهما السالف، منذ أن زارا معًا منطقة الأهرامات وأعادا الآن علاقتهما إلى الحياة بعد أن انتهت إلى النسيان منذ خمس سنوات تقريبًا. وكان عادل قد اشترى العوامة من مالكها منذ زمن قصير، عندما تحسنت موارده المالية عقب تقلده لمهام منصبه الجديد فى الوزارة.

ومنذ اللحظة الأولى بالفعل أصبح اللقاء المتجدد بينهما عاصفًا، وغدا بمثابة سكين يُقدم قربانًا على مذبح العشق المهيب، أو كأنها مطر الافتداء الذى يهطل على تربة الصحراء التى تحترق من الغيظ. وكانت أليكساندرا تحاول إقناع نفسها بأن تصدق أنه بعد كل ما حدث لن يوجد شىء بوسعه أن يفرق بينهما مرة أخرى. فما أسهل على الإنسان أن يخدع نفسه بأفكاره الباطلة وبأحلامه الطوباوية التى يخلقها لكى يبرر بها أفعاله وسلوكه!

بدأ الظلام ينتشر بعد أن غابت الشمس وصبغت مياه نهر النيل بصبغة بنفسجية ذات رداء قرمزى، وعبثًا كانت أشعة الشمس تجاهد مع ذلك أن تظل عالقة فوق صفحة المياه الرطبة. وكانت أصابع الشمس غير المتجسدة التى تبدو كأنها أصابع فنان ماهر يعزف على أوتار آلة القانون، تتلاشى شيئًا فشيئًا لتترك خلفها سيمفونية متناغمة من الألوان المتآلفة المتناسقة.

ولكن الزوجة الشابة أليكساندرا لم تلق بالاً لهذا الجمال ولم تصوب أنظارها إلى هذه اللوحة التى كانت تتغير أمامها، والتى كان لونها يصير باهتًا شيئًا فشيئًا خلف نافذة العوامة نصف المفتوحة. كانت تنتظر قدوم حبيبها فحسب بصبر نافد. ثم سألته حينما رأته أمامها مرددة العبارة التالية مرات عديدة: إننى أكرر سؤالى لك: من كانت هذه المرأة؟؛ ولم يحر عادل جوابًا على هذا السؤال واكتفى بإغلاق الباب خلفه: فقلل بذلك أكثر الإضاءة التى كانت خافتة بالفعل فى هذا المكان. ثم رنا إلى المرأة الشابة بابتسامة باردة غامضة دون أن ينبس ببنت شفة، ثم من بعد ذلك حينما أيقن أن نظرتها الثابتة المحدقة لم تلن قال لها بغضب: ليس لك الحق فى أن تسألينى هذا السؤال. فقالت أليكساندرا فى دهشة: ماذا قلت؟. قال عادل مستأنفًا الحديث: لقد طلبت منك ارتباطًا كاملاً ولكنك رفضت ذلك. ومن ثم فليس لك الحق فى أن تسألينى هذا السؤال.... ولكى أكون صريحًا معك، فإننى أعتقد أنه ليس بوسعنا أن نستمر على هذه الحال بعد الآن.

كانت نظرتها إليه الآن تشهد على الدهشة التى باغتتها، وكانت دهشتها من ملامحه أكثر وأشد من دهشتها من ألفاظه التى كانت تسمعها منه للمرة الأولى. وليس بوسعى أنا أيضًا الاستمرار فى هذا، أجابت عليه بصوت خافت ضعيف واستمرت قائلة: أتظن الأمر سهلاً علىّ؟. فقال عادل: أنت تعلمين علم اليقين أننى دست على مبادئى وقيمى وعلى عقيدتى من أجلك؛ وأحست أليكساندرا

بنبرة من اللوم فى صوته، وكانت نبرة صوته تكاد تصل إلى حدود عدم اللياقة خاصة حينما قال: ولقد أردت كذلك أن......، فقاطعته من فورها قبل أن يسترسل فى حديثه قائلة: وأنا أيضًا فعلت الشىء نفسه!. فقال عادل: إن عليك اتخاذ قرار، فما زالت الفرصة سانحة أمامك، يا أليكساندرا.

قال عادل هذا ثم ألقى بالمفتاح على الأريكة بجوارها، ثم قال: لقد طلبت ذلك منك مرة أخرى منذ اليوم الأول الذى تقابلنا فيه. هل تذكرين ذلك؟ فلا تعتقدى أن هذا الوعد يمكن أن يظل سارى المفعول لوقت طويل. فرمقته أليكساندرا بعينين تقطران بالتوسل. وهو توسل أو ابتهال تروم به التفهم لموقفها أو لعله توسل بغية قليل من التذرع بالصبر. وقالت: لقد حاولت.. حاولت أكثر من مرة كما قلت لك. ولكن الأمر ليس سهلاً على الإطلاق.

وهنا وقف عادل أمامها، وبدا جسمه بالنسبة لها مثل جدار ضخم كان يحجب عنها مسارات الهواء، كان قويًا يشتهيه فؤادها بيد أنه كان فى الوقت نفسه طاغية مستبدًا. وهنا قال لها بشىء من السخرية: حاولت؟. فخفضت أليكساندرا عينيها وقالت: فى كل مرة كنت أجد نفسى فيها فى مواجهة كل هذه الأمور التى واجهتنا، كنت أحس بالعجز الكامل وباليأس المطبق......

ضحك عادل ضحكة مصطنعة، وابتعد عنها وهو يقول بعصبية: إنك لم تنجحى أبدًا فى الحكم على ما هو أبعد من معتقداتك

الشخصية الثابتة، أو على ما هو أبعد من الأمور التى علموها لك، أو على ما هو أبعد من المسلمات المتوارثة التى تربيت عليها ونشأت. إنك لم تنجحى لأنك لم تحاولى. وهنا رمقته أليكساندرا وهى تضحك من فرط ضيقها، وفى الوقت نفسه كانت تسأل نفسها أين سمعت من قبل هذه العبارات، ثم قالت له: إن أخشى ما أخشاه هو أننا كلينا نعانى من العلة ذاتها.

فرد عليها عادل قائلاً: إنك تتأرجحين، يا أليكساندرا ....: قال هذا وكأنه لم يسمع ما قالته، ثم استأنف قائلاً: إنك تتأرجحين بين عالمين دون أن تعرفى بالضبط إلى أى عالم منهما تنتمين... وربما أنت لا تريدين المعرفة، ولكن ليس بمقدورك أن تظلى إلى الأبد معلقة بينهما. فقالت أليكساندرا: ماذا تريد أن تقول؟. فرجع عادل فجأة إلى المكان الذى كانت تقف فيه، وقال والشرر يتطاير من عينيه: إننى أطلب منك الارتباط الكامل.... إن هذا أمر غاية فى الوضوح. كان يبدو عليه الحسم والصرامة ولم يبد على ملامحه أى أثر للتفهم أو للحنان والرقة.

كرر عادل عبارته الأخيرة عدة مرات وكانت المرة الأخيرة لتكرارها أكثر إصرارًا وحدة عما سبقها من المرات. ولكن أليكساندرا على أية حال لم تكن تحظى بالشجاعة على مجابهة المشكلة وجهًا لوجه. ففى كل مرة حاولت وبذلت جهدها لم تجد أبدًا الشجاعة لكى تبوح له بالحقيقة الخاصة بإجهاض حملها الذى حدث خلال الفترة الأولى من علاقتهما. وفى الحقيقة فإنها لم

تفهم لماذا أخفت عنه أمرًا كان يخصه بمثل ما يخصها تمامًا. ربما كانت فى قرارة نفسها تخاف أن مثل هذا البوح بالحقيقة ستكون له عواقب سلبية، إذ إنه كان من شأنه أن يزيد من إصرار عادل وحسمه أو ربما ـ وهذا هو الأسوأ ـ كان من شأنه أن يثير حنقه وغضبه ويستثير كوامن مشاعره، التى لم تشأ هى أن تتخيل مقدارها أو تتعرض لمدى عنفها.

ليس بوسعك أن تنتمى إلى عالمين، عاد الضابط ليكرر عبارته بإصرار أشد متجاهلاً الأفكار التى كانت تدور داخل عقلها بغير هوادة، ثم أردف قائلاً: ليس لأى شخص الحق فى هذا، يا أليكساندرا. بعدها توقف لبرهة قصيرة عن الكلام ثم وجه إليها الحديث بإصرار أشد قائلاً: يجب عليك أن تختارى طريقًا من بين الطريقين. وهنا قالت أليكساندرا: والسبب فى ذلك هو تلك المرأة، أليس كذلك؟؛ أطلق الضابط تنهيدة عميقة ثم قال: السبب فى ذلك هو ضعفك وتخاذلك فى اتخاذ القرار بعد مرور كل هذا الوقت. أما أنا فليس بوسعى بعد الآن أن أخدع نفسى ولا أن أنتظر.. ليس بعد الآن.. ومن ناحية أخرى أعنى منذ اللحظة التى رأيتك فيها بجانبه.....

قال هذا ثم قطب ما بين حاجبيه واتخذ سمتًا أفزعها وأرعبها: كانت عيناه تشبهان قوسًا رهيبًا يوشك أن تنطلق منه السهام المسمومة نحوها: وكان من الواضح أنه كان مستاءً جدًا.... لا بل إن ما به كان شيئًا أكثر من الاستياء، إذ بدا لها وكأنه يشعر

بالاشمئزاز... أم ترى كان خيالها المريض هو الذى يهيم به ويعربد؟ كانت أليكساندرا تعرف أن عادلاً على حق، وعلى أية حال فإن الارتباط الكامل كان يعنى الخضوع الكامل، بمعنى أنه كان يعنى التخلى عن هويتها وأرومتها وعن جميع تلك القيم التى كانت تفتخر بها وتزهو حتى اليوم، والتى كانت تقوم بنشرها بين تلاميذها، ولم تكن تحظى بالقوة التى تجعلها قادرة على تخطيها مهما حاولت، حيث إنها لم تكن تملك شجاعة أنجيليكى.

فماذا عساها كانت ستقول لأسرتها؟ وكيف كان بوسعها أن تواجه قسطنطين؟ ومع ذلك فقد كانت تحب الضابط المصرى بكل ما تملك من قوة، وكانت على استعداد لأن تضحى بنفسها من أجله لو طلب منها ذلك، فهذا كان أيسر عليها من الخيار الأول. وهنا تذكرت كلمات والدها حينما قال لها: أهون على الإنسان أن يضحى بذاته وأن يضحى بحياته نفسها من أن يضحى بجذوره وقيمه التى ورثها عن آبائه وأجداده...، وتذكرت أنها غضبت آنذاك من تزمته ورجعيته ومن مفاهيمه البالية العتيقة. ثم عادت لتتذكر ما قاله والدها لها بعد هذه العبارة من كلمات ذات دلالة: ولسوف تنقضى عقود كثيرة من الزمن وعصور متتالية لكى ننجح فى تحقيق هذا، وحتى مع افتراض نجاحنا فى هذا فسوف تظل أمور بعينها موجودة وسوف تحدد نوعية الحياة للأجيال القادمة......

وغدا واضحًا أنها فى أعماقها لم تكن تختلف كثيرًا عن والدها مهما أكدت العكس من ذلك، حيث إن هذه المعتقدات قد ترسخت

فى أعماقها، وأصبح من المستحيل اجتثاثها من جذورها أو تقويض دعائمها، من أجل الرجل الذى أحبته أكثر من أى شىء فى العالم. وكأن كل هذه الأمور لم تكن كافية فجاءت التغيرات العاصفة على المسرح السياسى فى المنطقة لتزيد الطين بلة، فالرجل الذى ارتبطت معه بعلاقة العشق لم يكن مجرد مواطن عادى، بل كان عضوًا فى الحكومة ذا مركز رفيع جدًا، لقد كان بالتحديد قائد الشرطة وكان من مهامه مطاردة من ينتهكون القوانين من بنى جلدتها.

لقد فكرت فى الموضوع مليًا؛ قالت أليكساندرا هذا وهى تبتلع ريقها بصعوبة، حينما بدا أن صبره قد أوشك على النفاد. كان صوتها أشبه ما يكون بصوت قادم من مكان بعيد: لقد فكرت فى الموضوع مليًا، كررت العبارة ثم أردفت قائلة: إن الأمر صعب... أعنى أنه مستحيل، فلست أملك القوة على معارضة أسرتى وعلى معارضة الظروف والعصر وعلى معارضة نفسى ذاتها. فقد كانت تدرك أنه كان يتعين عليها منذ الآن فصاعدًا أن تكون صريحة معه وصريحة بالمثل مع نفسها، ومن ثم فالأمر لا يحتاج إلى أى تأجيل؛ فربما لو أنها عبرت له عن رأيها بصراحة فإنه سوف يفهمها.

وعندما سمع ما قالته صوب إليها نظرة غاضبة ثم صاح فيها قائلاً: عندئذ فإن طريقينا يفترقان هنا، وهذه المرة فإن الافتراق واقع لا محالة!، قال هذا بصورة قاطعة لا مساومة فيها. فرمقته أليكساندرا وقد استولى عليها الهلع، فلقد اعتقدت فى البداية أن

عبارته كانت تهديدًا من تلك التهديدات التى كان يكررها كل مرة، عندما كانت رغبته أو غيرته تتعاظم. لكنها عندما شاهدت ملامحه الصلبة التى لا تلين ورفضه التفاهم أو التصالح معها مثل المرات السابقة، انقبض قلبها بشدة لدرجة أنها أحست من لحظة لأخرى أنها ستتهاوى مغشيًا عليها، فهمست متوسلة: ألا تفهم؟.

لم يجب عادل على ما قالته، بل اكتفى بأن ألقى عليها نظرة أخيرة واختفى من أمامها بمثل سرعة الريح، تاركًا إياها فريسة لأوزارها وشكوكها مرة أخرى. لقد اختفى من حياتها فجأة تمامًا مثلما حدث فى المرة الأولى، ولكنها فى هذه المرة كانت تعرف على الأقل أين سوف تجده. وماذا بوسعها أن تطلب منه. وعندما بقيت وحدها مرة أخرى بعد رحيله، كان المكان يغرق فى ظلام دامس.

الجزء الثالث

حقبة زمنية جديدة

(٢١)

كانت شوارع القاهرة وميادينها تعج بالحركة الصاخبة، وكذا كانت المقاهى وجميع الأماكن العامة تكتظ بالرواد، كما كانت دوائر الجالية اليونانية فى المدن الكبرى تتجمع فى اهتمام. كانت الصحافة الأجنبية والمحلية كلاهما يصوران الرئيس عبد الناصر وقد انسحق تحت وطأة فشل الوحدة بين مصر وسوريا، وراجت الشائعات التى تتحدث عن حل المعاهدة التى عقدت بين البلدين. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل إن الصحافة وجهت قبل أيام قلائل مقالات نارية إلى الشعب، أدانت فيها صراحة نظام الملكية الخاصة وأعلنت فيها بلا مواربة الحرب ضد الطبقة المدنية المستغلة، وأعلنت عن وجوب اتخاذ إجراءات شديدة القوة والصرامة متواكبة مع الضغط الشعبى ضد رأس المال الخاص، وطالبت بالإسراع فى تأميم الموارد الاقتصادية من جانب الجهاز الحكومى. ولقد قامت الصحف المصرية بنشر مقالات ملتهبة انحازت فيها

صراحة لجانب الزعيم المصرى المحبوب من شعبه، وكانت تقوم عقب كل خبر يتم إعلانه على لسان الرئيس بنشره فى مانشيتات عريضة، من بينها: نحن ماضون إلى سحق استغلال الطبقة المدنية واحتكارها، أو: لقد حانت الفرصة لإلغاء الملكية الفردية، أو: آن الأوان أخيرًا لتهميش دور الطبقة المالكة المستغلة التى تمتص دماء الشعب الفقير.

ولقد اتخذت مطاردة كبار الملاك الأجانب والمصريين وكذا كثير من المواطنين الأبرياء أبعادًا رهيبة، وغدا الجميع يرتابون فى الجميع. ولقد سمعت أليكساندرا أكثر من مرة والديها وهما يتهامسان بصوت خفيض مع قسطنطين أو مع أصدقائهما الآخرين وأقاربهما، ويعبرون عن مخاوفهم وعن قلقهم وارتيابهم من المستقبل. لقد ساد القلق وعم التوجس فى كل مكان حتى فى قاعات الأساتذة الموجودة فى مدرسة أمبيتيوس اليونانية، حيث كان يتجمع جميع المعلمين. وكان القلق أشبه ما يكون بالمرض أو الوباء الذى ينتشر بسرعة ويتفشى كالفيروس بصورة لا يمكن السيطرة عليها. برغم أن الإجراءات الجديدة لم تثقل كاهلهم بصورة مباشرة - فلم يكونوا على أية حال سوى عاملين بسطاء، وكانت الحكومة تدعم الموظفين والأجراء البسطاء الذين يكدحون فى سبيل الحصول على ما يقيم أودهم أو يسد رمقهم - فإنهم جميعًا كان لديهم أصدقاء أو أقرباء قد مستهم هذه الإجراءات بطريقة مباشرة. ومن ناحية أخرى فقد كان عدد تلاميذ المدرسة اليونانية يتناقص بصورة محسوسة، بحيث غدت الأفنية ذات الحجم الكبير

شبه خالية، بعد التناقص المستمر فى صفوف التلاميذ. فخلال الفصل الدراسى الأخير وحده غاب ثلاثة تلاميذ فجأة من فصل أليكساندرا، كما غاب ثمانية عشر تلميذًا فى المدرسة بكاملها، عندما تم الاستيلاء على أملاك أولياء أمورهم. ولقد رحل بعض أعضاء الجالية اليونانية المبرزين أثناء الليل إلى وجهة غير معلومة دون أن يخطروا أحدًا برحيلهم، حتى ولا أحب الناس إلى قلوبهم من الأصدقاء أو الأقارب، وانطلقوا راحلين لا يلوون على شىء دون أن يحيوا حتى أصدقائهم الحميمين.

ثم نظرت أليكساندرا من النافذة الموجودة فى المقصف المدرسى، فشاهدت التلاميذ وقد خرجوا من فصولهم إلى الفناء فى الفسحة الأخيرة من اليوم الدراسى، وكان صغار التلاميذ قد أنهوا بالفعل يومهم الدراسى، أما أولئك الذين لم يرحلوا منهم إلى منازلهم فقد كانوا يلعبون ويجرون، وهم لاهون خارج مبنى الجمناسيون المسقوف الموجود بالصالة الرئيسة، بينما كان التلاميذ الأكبر سنًا يتحدثون بسعادة مع بعضهم وهم يستمتعون بجمال المكان الذى يحيط بهم. كانت المزايا التى يستمتع بها تلاميذ المدرسة، وكذا أولئك التلاميذ المنتمون إلى أسر فقيرة كان أبناؤها يتلقون تعليمهم مجانًا، مزايا قليلة حقًا، فكيف ستنتهى هذه الأمور كلها؟

زارت المعلمة الشابة أليكساندرا منزل والديها هذا المساء ذاته، حيث كانت تهرع إلى منزل والديها لكى تجد الهدوء وراحة البال. كلما كانت مرآة الذكريات تعكس أمامها الصور القديمة. وكلما لفها

الحنين إلى الأهل بعذابه. ولم يفلح العامان الأخيران اللذان أعقبا آخر مقابلة لها مع عادل فى الدهبية العائمة، لم يفلحا فى جعلها تزيل عن روحها على نحو كافٍ هذا الإحساس الجارح النافذ الذى سبب لها ـ عندما اخترق عقلها ونفذ إلى روحها ـ اختناقًا، وجعل الحذر يسرى فى جميع أطراف جسمها. لقد حاولت فى البداية مرات كثيرة أن تقترب منه وأن تتصل به وأن تحادثه، لكنه عندما أصر على موقفه الزاخر بالإدانة نحوها ورفض أن يرد على مكالمتها التليفونية، أسقط فى يدها وشعرت بخيبة الأمل وحاولت أن تتكيف مع حياتها التى لا طعم لها، بجوار قسطنطين الذى بدا لها فى الآونة الأخيرة كأنه ألقى سلاحه واكتفى بمنافستها فى اللامبالاة والبرود وعدم الاهتمام.

وعندما وصلت أليكساندرا إلى منزل والديها وجدت هناك السيد بريكليس وهو يتحدث مع والدها، وتبينت أن هناك ملمحًا فى أسارير هذين الصديقين ينبئ عن قلقهما الشديد من خطورة الموقف، ومن الطريقة المحفوفة بالمخاطر التى تدار بها الأمور. وسمعت أليكساندرا والدها وهو يقول: لقد دخلت صباح اليوم مجموعة من الشرطة السرية تحت قيادة أحد ضباط الجيش مصنع السيد بابايوانيس، وسلموه إعلانًا بإغلاق المصنع وإيقاف العمل فيه... ولقد هاتف السيد بابايوانيس معارفه قبل أن يسلم مفاتيح المصنع، بعدها أنهى حياته بيده بعد أن أطلق مسدسه على رأسه. فالمسكين لم يتحمل الصدمة.....

هز صديقه السيد بريكليس رأسه بهدوء ثم أخرج غليونه من فمه وقال: لقد طالت عمليات التأميم الجميع سواء كانوا من المصريين أو من الأجانب، ولم يعد أحد بمنجاة من كماشة القانون الذى صدر بهذا الشأن. حتى لو كان من المواطنين المصريين. فقال والد أليكساندرا: وماذا بوسعنا أن نفعل؟ ؛ ورد عليه الصحفى بقوله: ليس هناك مجال للمفاوضات فالحكومة مصرة على موقفها، والشىء الوحيد الذى بوسعنا عمله فى الوقت الحاضر هو أن ننتظر. وسوف نتصل برئيس الجالية.

(٢٢)

دق جرس الهاتف فجأة فكسر حاجز الصمت الذى كان يسود البهو الكبير فى المنزل، فقفزت أليكساندرا قبل الآخرين من مقعدها على المائدة ورفعت سماعة التليفون وقالت: صباح الخير، يا سيد نسيم، ولكن ابتسامتها الضعيفة ما لبثت أن اختفت فى التو واللحظة. فقطبت ما بين حاجبيها وصوبت نظرة رعب على زوجها، على حين استأنفت حديثها فى الهاتف قائلة: ماذا قلت؟ أجل! فى الحال....، ثم تركت سماعة التليفون فوق الجهاز الأبيض العاجى وقالت: قسطنطين...؛ قالت هذا بصوت مرتعش على حين غدت ملامحها تقريبًا ودودة عطوفة تمهيدًا لهذا الذى كانت على وشك أن تقوله لزوجها. إنه السيد نسيم.....، قالت هذا وأحست أن حلقها جاف، ثم استأنفت كلامها قائلة: إنه يريدك هناك على جناح السرعة.....

قال الزوج: ماذا يحدث؟؛ ومرت لحظات كافية إلى أن نجحت فى التلفظ بالعبارة التالية: لقد قاموا بتشميع المصنع..... وهنا قفز قسطنطين مذعوراً من فوق كرسيه الوثير. فسقطت من يده الجريدة الفرنسية التى كان يمسك بها وتبعثرت أوراقها على الأرض أمام قدميه، وقال: متى حدث هذا؟، فقالت: اليوم.. فى ساعة مبكرة من الصباح. ينبغى عليك أن تسرع، فالسيد نسيم لا يعرف ماذا ينبغى عليه أن يفعل.... ولم يسمح الاضطراب المباغت الذى استولى على قسطنطين له أن يفكر بأعصاب باردة، فشرع يذرع البهو جيئة وذهاباً مثل الوحش البرى وهو يركل بقدمه كل ما يجده فى طريقه، ثم انفجر قائلاً: كنت أعرف هذا! وقلته لكم مراراً!، كان يقول هذا وهو يزأر مثل الحيوان الجريح. فقالت له أليكساندرا: اهدأ يا قسطنطين، فصرخ هذا قائلاً: أهدأ؟ أتجسرين على التحدث عن الهدوء بعدما دمرت حياتنا بالكامل؟ لقد ضاعت جهود والدى... ضاعت جهود حياة بأكملها.. ضاع كفاحى وضاع مستقبلى!.

قسطنطين، تمالك نفسك من فضلك، قالت له هذا وهى تتوسل إليه، فلم تكن تتحمل أن تراه على هذه الصورة. فرد عليها بقوله وقد تملكته ثورة الغضب الجامح: ولكن ماذا يهمك أنت؟ ترى هل يعنيك خرابى أو دمارى؟ لقد كنت دوماً منفصلة عنى ونافرة منى، وكنت غريبة عن كل ما يمت إلىّ بصلة. قالت أليكساندرا: توقف من فضلك ولا تتشاجر معى، فلست السبب فيما حدث لك.... - بل أنت السبب! أنت وطبقتك الاجتماعية!. - ماذا تقول. يا قسطنطين؟ ثب

إلى رشدك.. ثب إلى رشدك واذهب إلى المصنع فى الوقت المناسب لترى ماذا يمكنك إنقاذه. ـ ماذا أنقذ؟ ألم يقل الرجل إنهم أغلقوا المصنع وقاموا بتشميعه؟ ماذا تريدين أن يحدث أكثر من هذا؟ واحسرتاه! وأسفاه! إلى من أتوجه؟ ومن أخاطب؟ فهؤلاء حساسون لا يطيقون سماع أى كلام ولا يرتشون، ولا يفقهون شيئًا. أفلا ترين أو تسمعين ماذا يحدث طوال هذا الوقت؟. ـ قسطنطين..... ـ ولكن ماذا عساك تفهمين؟ ترى هل كنت موجودة معنا هنا دائمًا؟ إنك تحلقين دومًا مع السحب، وتعيشين فى عالمك وكل شىء فى نظرك تافه لا يساوى قلامة ظفر. أوتظنين أننى لا أعرف شيئًا؟ أوتعتقدين أننى لا أفهم شيئًا؟. ـ ماذا تعنى؟. ـ أم تراك تعتقدين طالما أننى لم أنبس ببنت شفة طوال هذا الوقت أننى كنت غافلاً أو نائمًا بصدد ما يحدث؟. ـ هل أنت فى كامل وعيك؟ إنك تنفجر غاضبًا فى وجهى دون أن أكون مسئولة عن كل هذا الذى حدث.

كان الكيل قد فاض وطفح، وكان غضب قسطنطين وثورته قد وصلا إلى الحد الأقصى لهما، وحولاه إلى مخلوق رهيب مرعب لا يمكن التعرف عليه، ولم تصب أليكساندرا بالرعب فى حياتها أكثر مما أحست به الآن. فكلما اقترب منها كلما شعرت بالرعب والرجفة وكانت واثقة من أنه سوف يضربها. وتذكرت ذلك الرجل الذى أخافها فى الزقاق منذ سنوات فارتدت خطوتين إلى الوراء بالغريزة. ولكن زوجها مر عليها مرور الكرام مكتفيًا بأن رمقها بملامح تنضح بالكراهية ثم توجه بعدها إلى داخل المنزل. وفكرت أليكساندرا فى اللحاق به وسؤاله عما كان يلمح إليه فى قوله بأنه

قال عادل: أخشى أنك تتحدثين مع الشخص غير المسئول. فليست لى أدنى علاقة بهذه الأمور كلها. قالت أليكساندرا: أعرف أن من الصعب أن تتفهم موقفى. ولكن حالة زوجى مأساوية فى حقيقة الأمر. فلقد أشرف على الجنون وكاد يضيع بالكامل داخل السجن، ثم تنهدت تنهيدة عميقة واستأنفت حديثها بحدة أقل عن ذى قبل: وأخشى ما أخشاه أن أكون أنا المسئولة عن هذا كله..... قال عادل: أنت؟ ماذا تعنين؟. وعادت لترمقه مرة أخرى ناظرة إلى عينيه دون أن تعطى له تفسيرًا لما قالته، وفضلاً عن ذلك فلم تكن هناك حاجة لمثل هذا التفسير، لأن عادلاً قد فهم على الفور ماذا كانت تعنيه.

قال الضابط: ثم ماذا؟ ألم تقومى باختياره زوجًا لك فى النهاية؟ ألم تفعلى ذلك؟ فماذا تريدين الآن إذن؟. قال هذا وهو يصيح فى وجهها بعد أن تخلى عن أسلوبه الرسمى معها، بينما كانت عيناه تقطران سمًا زعافًا. فقالت الفتاة: أنا لم أقم باختيار أحد، فالظروف هى التى أملت علىّ ذلك التصرف الذى يجب علىّ فعله. فقال الضابط وهو يضحك ضحكة خافتة ساخرة: ما يجب عليك! لقد اتبعت ببساطة الطريق الذى أشارت عليك باتباعه تصرفات بنى جلدتك. فماذا تريدين الآن منى؟. فقالت أليكساندرا: أريد منك أن تساعده، وأن تساعدنى فى التخلص من أوزارى. إننى أستعطفك أن تفعل هذا من أجلى وفقط من أجلى. فإذا كان لا يزال هناك أى أثر داخلك لعاطفة تجاهى، وإذا كنت قد أحببتنى يومًا ما فساعدنى بالله عليك....

قال عادل: لست مديناً لك على الإطلاق بأى دين... فهل تشعرين بالذنب لأجلى؟ لقد وثقت بك مرتين ولكننى خدعت فى كلتيهما. تنهدت أليكساندرا تنهيدة عميقة بعد أن ندمت على ضعفها هذا الواضح، فاستأنف الضابط حديثه قائلاً: ومن ناحية أخرى فإن هذا الأمر يتجاوز صلاحياتى.... قالت أليكساندرا: إنك غاضب منى، أعرف ذلك وأفهمه، فقال عادل: تفهمين؟ لا إن الأمر على عكس ذلك تماماً!. فقالت: إننى أتوسل إليك، فإنه غير مسئول فى شىء عما حدث. فلا تصب جام غضبك منى على رأسه، فهو ليس مسئولاً. قال الضابط: أتعتقدين أن القبض عليه قد حدث بغية الانتقام منك؟ أو تم لأسباب شخصية؟؛ قالت: أجل! أعتقد ذلك، فقال عادل: إنك واهمة ومخدوعة بشكل يدعو للرثاء؛ قالت: ماذا تعنى؟، قال: إن زوجك قد تآمر لقلب نظام الحكم واشترك فى ذلك مع أعداء الحكومة.

وجمت أليكساندرا ولاذت بالصمت، إذ أدركت فجأة أنها لم تكن تعرف حقيقة زوجها، وأنه لم تكن لديها أدنى فكرة عن جوهر شخصيته فى خاتمة المطاف. فبرغم أنها كانت تعيش معه كل هذه السنوات فإنها لم تهتم أبداً لمعرفته، لأنها كانت مستسلمة بكاملها لعاطفتها الجارفة تجاه الضابط المصرى. ورغم هذا كله فقد نجحت فى أن ترد على عادل بأنفاس لاهثة قائلة: هذه أكاذيب..... فقال عادل: أنا لا أتفوه بأكاذيب يا مدام خريسوستوموس!، وهنا لاحظت أليكساندرا أنه يركز على لقب زوجها. ثم استأنف عادل حديثه قائلاً: لدينا شهود وإثباتات. فقالت أليكساندرا: ليست لدى

أية فكرة، وأنا لا أعرف شيئًا عن هذا .....؛ فقال الضابط: والآن وقد عرفت؟؛ فقالت: إننى ماضية فى الاحتفاظ بشكوكى.

قالت هذه العبارة بما يشبه الهمس، على الأقل لكى تتخلص من ربقة الوزر الذى أحست به فجأة تجاه قسطنطين، فيما يتعلق بضعفها وبتقبل أنها أبدت نحو زوجها الذى اقترنت به عدم اكتراث ولا مبالاة أثارت أعصابه ردحًا من الزمن. غير أن إجابتها على عادل أهانته وأثارت غضبه فقال: إذن لم يعد هناك سبب لوجودك هنا بعد الآن. وأقترح عليك أن ترحلى فى الحال عن مكتبى. تجمدت أليكساندرا ووجمت، إذ إن كلمات عادل قد اخترقت جسمها بنصالها كما لو كانت خناجر مسنونة. كانت هذه هى المرة الثانية التى يطردها فيها، لذا اغرورقت عيناها بالدموع وكانتا على وشك أن تذرفا دموعًا مرة لا تقدر الكلمات على التعبير عنها. غير أنها لم تذرف الدمع ولم تنبس ببنت شفة، بل اكتفت بتنكيس رأسها وخرجت من مكتب الضابط وهى تشعر بالإذلال والمهانة، ليس فقط بسبب مسلكه المهين تجاهها ولا بسبب ملامحه الفظة غير المبالية، بل أيضًا بسبب ضعفها الذى كان يقترب من حدود العجز. فقد كانت تبغى أن تبين له الآن مرة أخرى أنها ـ برغم كل ما حدث خلال كل هذه السنوات السبع التى انصرمت، وبرغم كل ما اعتنقه من أفكار عنها ـ كانت تروم أن تبين له أنها لم تحب رجلاً آخر كما أحبته، وكانت واثقة من أنها لن تحب مخلوقًا آخر كما أحبته.

وكانت أليكساندرا تعرف كذلك أن هذه كانت المرة الأخيرة التى ترى فيها عادلاً، برغم أنه راجع فيما بعد موقفه من زوجها قسطنطين وتدخل فى نهاية الأمر من أجل الإفراج عنه، عقب تلك المواجهة الجافة الباردة معها، وعقب إعادة النظر فى طلبها الذى أبدته بطريقة حافلة بالضراعة والتوسل.

الخاتمة

كانت الأضواء الملونة للألعاب النارية تعلن عن مقدم الألفية الجديدة وهى تنير سماء مدينة أثينا من خلف النافذة الرئيسة لحجرة الاستقبال فى المنزل الذى يطل على تل الأكروبوليس. وكانت بعض هذه الألعاب النارية تبرق ما بين الفينة والأخرى فى عمق الحجرة، وتشكل لوحات رائعة مؤثرة من هذا النوع الذى يستحثك لكى تقوم بلمسه من أجل أن تعيش قسطًا من سحر الدنيا ذات الثراء المتعدد الوفير.

ولقد رسم أحد هذه الألعاب النارية صورة إطار دائرى أشبه ما يكون بمذنب أو نجم غارب يترك خلفه قوسًا مضيئًا، وكانت إضاءته من الشدة بحيث يخاله المرء وكأنه يشتعل نارًا. وفى تلك اللحظة اندفعت مرة أخرى الذكريات إلى عقل أليكساندرا، فتذكرت الجسر

الذى كان يربط بين الزمالك وبولاق، والذى سارت فوقه ألف مرة ومرة وحلمت به ألف ليلة وليلة... ولقد أخبرها أحد معارفها - وهى ليست متأكدة من شخصه - أن ذلك الجسر لم يعد موجوداً الآن وأنهم أزالوه، وأقاموا فى مكانه جسرًا جديدًا آخر بمواصفات فنية حديثة وبتشعيبات ومخارج كثيرة. غير أن أليكساندرا على أية حال لم تتوقف أبدًا عن إعادة بناء ذلك الجسر بخيالها، طوال هذه السنوات كلها وكأنه قوس قزح تشكل بعد هطول المطر، وذلك لكى تسير فوقه مرارًا وتتذكر ما مضى من ذكريات تملأ بها فراغ حياتها ووحدتها.

وكانت أليكساندرا لا تفتأ تسأل نفسها عن السبب الذى جعلها لا تقوم أبدًا برحلة العودة التى كانت تزمع القيام بها، وهى رحلة كانت تتوق إليها من أعماق فؤادها، منذ أن تغيرت الأحوال والظروف وهدأت العاصفة. وكان قرار القيام بالرحلة مهيمنًا على فكرها طوال هذه السنوات كلها التى انصرمت منذ أن قفلت راجعة إلى وطنها اليونان... ولكنها على أية حال لم تجد أبدًا الشجاعة اللازمة لتحقيق هذا الحلم، إذ كانت تتصور أن قيامها برحلة قصيرة بوصفها سائحة بسيطة إلى البلد الذى عشقته، سوف تكون أشد إيلامًا للنفس من غيابها الدائم عن مصر. فالأفضل لها أن تظل عاكفة على حلمها ومبقية على صورة الأمس داخلها وعلى الأمل الكامن فى صدرها.

وهكذا كانت تنتهى فى كل مرة تحاول فيها حفز نفسها إلى اتخاذ قرار السفر إلى العدول عنه، إلى أن انصرمت السنون

وضعفت التوقعات والآمال، وتطرق الوهن إلى العزم والتصميم، برغم أنها لم تكف مطلقًا عن التفكير فى ذلك. ثم صوبت أليكساندرا بصرها تجاه البوفيه القديم الذى كان لوالدتها والذى كان والداها يحتفظان فيه بمقتنيات حياتهما، وكان واحدًا من التذكارات القليلة التى نجحت فى حملها معها من القاهرة إلى جانب ما حملته من ذكريات، عندما اضطرت لمغادرة مصر نهائيًا عام ١٩٦١هى وأفراد أسرتها. كانت توجد فوق هذا البوفيه صورة السيدة بيلا الحبيبة إلى نفسها محاطة ببرواز معدنى بسيط، وبجوارها فى الصورة حبيبها أو عاشقها المجهول الذى كان يبتسم لها وهو يحدق فى عينيها بنظرات زاخرة بالثقة والتفاؤل.

أما الصور الأخرى فكانت كلها قابعة داخل الدولاب بجوار الصحف المكدسة التى كان يرسلها لهم السيد أثاناسياذيس الصحفى. وكان هذا الصحفى مستمرًا فى إصدار صحيفته فوس= الضوء، التى كان يطالعها اليونانيون القلائل الذين ظلوا ماكثين فى بلدهم الحبيب الجميل مصر لم يغادروه، ولم يفت السيد أثاناسياذيس أن يرسل لهم نسخًا من هذه الصحيفة بانتظام. وبداخل هذا الدولاب كانت توجد رسالتان كانت قد تلقتهما من قسطنطين، ولم تكن تفهم لماذا احتفظت بهما كل هذه السنوات. وكان قد أرسل الرسالة الأولى منهما من ألمانيا بعد مرور شهور قليلة على إطلاق سراحه من السجن فى مصر، وكان يطلب فيها منها أن تنضم إليه لكى ينسى كل منهما الماضى ويقيمان معًا حياة جديدة، ولكن أليكساندرا رفضت تلك الفكرة؛ لأنها لم تكن تريد

ارتكاب الخطأ ذاته مرة أخرى. وبعد مرور عدة سنوات على هذه الرسالة أرسل إليها قسطنطين رسالة ثانية، ليخبرها هذه المرة أنه تزوج من زميلة له ألمانية، وأنه رزق منها بطفل وأنهما سعيدان معًا، وتمنى لأليكساندرا بدورها أن تسعد فى حياتها، ومنذ ذلك الحين لم تتلق منه أية رسالة ولم تعرف أخباره.

أما بخصوص الضابط المصرى الوسيم - أعنى الرجل الذى لم يفارق خيالها قط، الرجل الذى كان يجسد أحلامها طوال هذه السنوات كلها الحافلة بالوحدة الدائمة والعزلة العاطفية التى اختارتها لنفسها، وجعلتها بمثابة جزاء أو عقاب لها على تخاذلها وجبنها، وعلى الجنين الذى لم تتركه يولد ويعيش - فقد علمت من صديقتها أنجيليكى أثناء إحدى زياراتها لها فى بلاد اليونان مع ابنتها، أنه لم يتزوج أبدًا، وأنه رقى إلى منصب الوزير فى نهاية حقبة السبعينيات، وأنه فارق الحياة منذ سنوات قليلة بعد أن أصيب بمرض عضال لا برء منه ولا شفاء، نظرًا لأنه عايش فترة حرب عام ١٩٦٧وحرب عام ١٩٧٣ كما عاصر حقبة الأحداث الإرهابية التى حدثت عام ١٩٨١وأودت بحياة الرئيس محمد أنور السادات.

كانت أليكساندرا تقف أمام النافذة الرئيسة لحجرة الاستقبال فى المنزل الذى يطل على تل الأكروبوليس، وترفع يدها ملوحة بتحية الوداع لتودع الرجل الوسيم الذى كان قادمًا من الشرق، وهو يواصل سيره باطمئنان دون أن يراها أو يسمعها، ليعبر الجسر الذى

كانت هى قد شادته فى خيالها، أما الرجل فقد ابتعد بخطوات سريعة دون أن ينظر خلفه حتى ولو مرة واحدة.

المؤلف فى سطور

السيدة بيرسا كوموتسى

ولدت، فى مدينة القاة، ثم عادت إلى وطنها بلاد اليونان بمجرد أن أنهت دراستها الجامعية فى قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة. ثم عملت بالتدريس فترة من الزمن فى المدارس المتوسطة والعالية؛ منذ عام ١٩٩٢ عملت على مستوى احترافى بالترجمة الأدبية من اللغة العربية واللغة الإنجليزية إلى اليونانية الحديثة.

وبإضافة إلى ترجمة عدد من الأعمال الأدبية المدونة باللغة الإنجليزية، اضطلعت بيرسا كوموتسى بترجمة القسط الأكبر من روايات الأديب المصرى العالمى نجيب محفوظ، الفائز بجائزة نوبل للآداب، وكانت ترجمتها عن اللغة العربية؛ كما انبرت لترجمة أعمال أخرى قوامها روايات وقصائد شعرية عن اللغة العربية.

ومن بين ترجماتها المهمة ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اليونانية الحديثة؛ ولقد حصلت عام ٢٠٠١ على جائزة كفافيس العالمية عن مجموع ترجماتها المنشورة. وفى عام ٢٠٠٦ منحتها الحكومة المصرية ميدالية الشرف تقديرًا لإسهامها فى دعم الأدبين المصرى والعربى ونشرهما بوجه عام.

المترجم فى سطور

أ.د: محمد حمدى إبراهيم

- أستاذ الدراسات اليونانية واللاتينية بكلية الآداب - جامعة القاهرة.

- حصل على الدكتوراه فى الأدب اليونانى، كلية الفلسفة - جامعة أثينا، عام ١٩٧٢ .

- أستاذ متفرغ بقسم الدراسات اليونانية واللاتينية.

- له العديد من الترجمات الأدبية من اللغتين اليونانية واللاتينية إلى العربية، من ذلك: ترجمة ملحمة «الإلياذة» للشاعر الرومانى فيرجيليوس (بالاشتراك مع آخرين)، مجموعة من قصائد قسطنطين كفافيس؛ خطبة بركليس الجنائزية؛ لونجينوس «عن الأسلوب السامى»؛ مختارات من الشعر اليونانى الحديث، وغيرها من الترجمات.

• له عدد من المؤلفات والدراسات النقدية، من ذلك: دراسة فى نظرية الدراما الإغريقية؛ مناقشة قبل القتل، وغيرها من المؤلفات.

- حصل على العديد من الجوائز العلمية والأدبية، جائزة الدولة التشجيعية فى الترجمة: عام ١٩٧٢، جائزة أ.د. حسن حمدى للبحث العلمى: التى يمنحها مجلس جامعة القاهرة، عام ١٩٨٨؛ جائزة كفافيس الدولية للبحث العلمى: جائزة جامعة القاهرة التقديرية فى العلوم الإنسانية، عام ٢٠٠١؛ جائزة الدولة التقديرية فى الآداب، عام ٢٠٠٥؛ جائزة جامعة القاهرة للتميز فى مجال الإنسانيات عام ٢٠٠٧؛ كما تم اختياره واحدًا من بين أفضل مائة شخصية فى العالم فى مجال التعليم، ومنح شهادة وميدالية من مركز السيرة الذاتية العالمى IBC، كمبريدج - إنجلترا، عام ٢٠٠٦ .

التصحيح اللغوى: صفاء الدين قميح

الإشراف الفنى: حسن كامل

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب